284

إحسان عبد القدوس

أخبار اليوم
قطاع الثقافة

Ahmed Mady

عيدكم مبارك

بنت السلطان

http://www.maktbtna2211.com/

الأعمال الكاملة

Thurs.
25/10/2012
Riyadh
ليلة عيد الأضحى

إحسان عبد القدوس

- ولد إحسان محمد عبد القدوس أحمد رضوان فى أول يناير عام ١٩١٩ بالعباسية بالقاهرة . والده المهندس الفنان الممثل والشاعر / محمد عبد القدوس . والدته السيدة فاطمة محيى الدين اليوسف ، لبنانية الأصل ، ممثلة مسرح وأسست دار روزاليوسف للصحافة والنشر عام ١٩٥٢ .
- تخرج فى كلية الحقوق عام ١٩٢٤ . عمل لمدة سنة كمحام ثم عمل بعدها كصحفى بمجلة روزاليوسف ثم عينته والدته رئيساً لتحرير المجلة ، وظل بها رئيساً للتحرير حتى عام ١٩٦٤ .
- تولى رئاسة تحرير « أخبار اليوم » من عام ١٩٦٦ حتى ١٩٧٤ ورئيساً لمجلس إدارتها من عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٧٤ .
- عمل كاتباً بالأهرام من عام ١٩٧٤ حتى وفاته وكان قد عُيِّن رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام خلال عامى ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ .
- تعرض للأغتيال والسجن عدة مرات بسبب كتاباته السياسية وخصوصاً عن قضية الأسلحة الفاسدة التى استخدمت فى حرب فلسطين وكان لهذه الكتابات أثر كبير لتهيئة الرأى العام لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
- كتب مئات الروايات والقصص القصيرة نشرت فى جرائد ومجلات مصرية وعربية وجمعت فى ٦٠ كتاباً وترجم العديد منها إلى أكثر من لغة أجنبية وتم تحويل عشرات منها إلى أعمال سينمائية وتليفزيونية ومسرحية وإذاعية .
- كان يؤمن بشدة بأن الحب والصدق وحرية الرأى هى أسس العلاقات الإنسانية .
- أنعش الحركة الثقافية بدعوته لإنشاء المجلس الأعلى للفنون والأدب ومشاركته الإيجابية فى تأسيس نادى القصة وجمعية الأدباء .
- حاز على العديد من الجوائز والأوسمة المصرية والأجنبية من جمعيات ومهرجانات سينمائية تقديراً لقصص أفلامه منها جائزة الدولة التقديرية فى الأدب بعد وفاته .
- توفاه الله إلى رحمته فى ١١ يناير ١٩٩٠ .

المكتبة القومية الحديثة
مصطفى اسماعيل
ت: ٠٤٠٣٣٤٩٠٦٩ / ٠١٠٧٤٧٠٠٦٠ / ٠١٢٣٥٩٨٩٤٧ / ٠١١٦٩٢٧٢٧٠
E-Mail:Elkawmia_68@hotmail.com
تأسست سنة ١٩٦٨
طبع نشر توزيع
المكتبة القومية الحديثة
طنطا ٦٠ شارع القاضى

دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

مجموعة قصصية

بنت السلطان

إحسان عبد القدوس

مجموعة قصصية

بنت السلطان

قتلت عمتي

يا حضرات المستشارين.. أرجوكم أن تسمحوا لى بأن أتكلم.. إنى أثق فى الأستاذ المحامى الذى يتولى الدفاع عنى.. وأثق أنه يستطيع أن يتكلم أحسن منى.. ولكنى أريد الكلام.. لا أستطيع أن أذهب إلى حبل المشنقة دون أن أتكلم.. وأتكلم حديثاً متصلاً.. هذه الأسئلة التى توجهونها إلىّ لن تزيدكم شيئاً.. ولكن حديثى.. خواطرى.. أحاسيسى.. قد تلقى ضوءاً أكثر ، إذا استطعت أن أعبر عنها.. فالذى يرتكب جريمة ، ينسى أسبابها لحظة ارتكابها ، ويعيش فى أحاسيسه.. الأسباب مهما عظمت لا تؤدى إلى ارتكاب جريمة.. ولكنها الأحاسيس.. الأحاسيس يا حضرات المستشارين..

وأنا معترف..

لقد قتلت عمتى توحيدة..

كتمت أنفاسها بوسادة السرير حتى ماتت..

وقد كنت أحب عمتى.. صدقونى.. كنت أحبها أكثر من أمى.. ولا زلت أحبها.. أحبها أكثر منكم يا حضرات المستشارين.. إن اهتمامكم كل هذا الاهتمام بمقتل عمتى ، لا يعنى أنكم تحبونها أكثر منى.. ولولا اقتناعى بقتلها لحكمت على نفسى بالإعدام ، قبل أن تحكموا به علىّ.. والواقع أنى حاكمت نفسى قبل أن تحاكمونى.. حبست نفسى فى غرفتى ثلاثة أيام قبل أن يقبض علىّ.. وعلقت حبلاً فى نافذة الغرفة ليكون مشنقتى.. وجلست تحت حبل المشنقة أحاكم نفسى.. وكنت قاسياً فى محاكمتها.. أقسى منكم.. لا.. أنتم لستم قساة.. أنتم رحماء.. صبركم الطويل فى محاكمتى دليل رحمتكم.. ولكنى لم أرحم نفسى.. أخذتها بمنتهى القسوة.. وحاسبتها حساباً عسيراً.. حساب الملكين «ناكر ونكير».. وخرجت من هذه المحاكمة وقد ازددت

اقتناعاً بجريمتى.. لا.. لم يكن قتل عمتى جريمة ، كان عملاً ضرورياً.. لو اقتنعت أن قتل عمتى جريمة ، لشنقت نفسى..

واسمحوا لى أن أفيض فى التفاصيل..

كانت عمتى توحيدة تعيش مع أختها الأصغر منها فريدة ، فى شقة من بيت يملكانه فى حدائق القبة مكون من ثلاثة أدوار.. شقة شرقية بحرية.. ثلاث غرف.. تطل على الشارع العمومى.. وبينها وبين محطة الأتوبيس مسافة لا تزيد على مائة متر... دقيقة واحدة وأجد نفسى فى الأتوبيس.. تصوروا..

ومن صغرى وأنا أتردد على بيت عمتى.. كانت أحب الأوقات إلىّ هى التى أقضيها فى الشرفة المطلة على الشارع العمومى.. أتفرج على الناس... والأتوبيسات.. والعربات.. وأملأ أذنى بصراخ الباعة وضجيج الحياة..

وكانت عمتى فريدة... طيبة.. هادئة.. مستسلمة دائماً.. وعمتى توحيدة هى الآمرة الناهية.. شخصية قوية مسيطرة.. لم تكن تتركنى أهنأ بالوقوف طويلاً فى الشرفة.. انزل يا منعم اشترى لنا رغيفين.. روح يا منعم أقف قدام كنكة القهوة ، وخليها تغلى مرتين.. منعم ، تعال احسب لى حساب البقال.. فى كل دقيقة أمر.. فى كل دقيقة شغلانة.. وكنت أطيعها.. وأحبها.. فقد كانت تعطينى قرشاً قبل أن أعود إلى بيتنا.. وكانت هى أيضاً تحبنى ، دون بقية أخوتى.. وكانت تقول لى كثيراً.. أنت رجل البيت.. وقد كنت أحس فعلاً بأنى رجل البيت.. فكما تعلمون.. عمتى توحيدة عانس ، وأختها فريدة عانس أيضاً.. وكان أبى قبل أن يموت ، لا يتردد عليهما كثيراً.. كان بينه وبينهما جفاء ، خصوصاً بعد أن باع ما ورثه عن أبيه ، وأصبحت عمتى توحيدة وعمتى فريدة أغنى منه.. لم يكن هناك رجل يتردد على البيت بانتظام إلا أنا..

وواظبت على التردد على البيت إلى أن كبرت.. ونلت التجارة المتوسطة.. وتوظفت.. وارتفع مرتبى إلى خمسة وعشرين جنيهاً.. وكبرت عمتى توحيدة ، وعمتى فريدة.. وأصبحت أنا المسئول عنهما.. أنا الذى أحاسب السكان.. وأنا الذى أشترى لهما حاجياتهما... أنا رجلهما... ولكن عمتى توحيدة ظلت محتفظة بشخصيتها القوية، المسيطرة.. الآمرة الناهية.. وقد ارتفع القرش الذى كانت تعطيه لى إلى جنيه.. ثم إلى جنيهين.. جنيهين فى الشهر يا حضرات المستشارين..

وصدقونى أنى لم أناقشها أبداً فيما تعطيه لى.. لم يكن يهمنى إذا أعطتنى جنيهين أو عشرة ، أو لم تعطنى شيئاً.. مرتبى يكفينى والحمد لله.. وقد ادخرت منه مائة جنيه.. مائة وثلاثة وعشرين جنيهاً على وجه التحديد.. وكان عوضى الوحيد عن الخدمات التى أؤديها لها ، هو جلوسى فى الشرفة المطلة على الشارع العمومى.. ساعة أو ساعتين ، أدخن سيجارتى.. كنت أحب هذه الشرفة.. كنت أحس أنها عرشى الذى أطل منه على عالمى.. والواقع أنى كنت أحب شقة عمتى كلها.. إنها كما قلت لكم ، شرقية بحرية.. ثلاث غرف.. واسعة.. منورة.. بينها وبين محطة الأتوبيس مائة متر.. تصوروا يا حضرات المستشارين.. مائة متر وأصبح فى الأتوبيس..

إلى أن خطبت..

خطبت فتاة من عندنا فى شبرا..

فتاة رأيت فيها كل أحلامى... جميلة.. هادئة.. حاصلة على شهادة الإعدادية.. هوايتها التدبير المنزلى..

كنت سعيداً بها.. أكاد أطير من السعادة.. عالمى أصبح أوسع بكثير من العالم الذى أطل عليه وأنا جالس فى شرفة عمتى توحيدة..

ولكن أحداً من عائلتى لم يفرح لسعادتى..

أمى قالت لى.. مش كنت تستنى لما يتجوزوا إخواتك البنات.. ثم ذهبت معى إلى بيت خطيبتى وهى مرتدية ثياب الحداد..

وأخواتى البنات يخرجن لى ألسنتهن.. ويلصقن بخطيبتى مائة عيب.. دى رجليها معوجة.. دى عنيها مبقررة..

ولكن عمتى توحيدة كانت أعنف منهن جميعاً فى السخط على خطيبتى.. لقد اعتبرتنى كأنى تخليت عنها.. قذفت فى وجهى بكل أنواع السباب.. وتنبأت قبل أن ترى خطيبتى ، بأنها لابد أن تكون فتاة مائعة.. من بنات اليومين دول..

الوحيدة التى فرحت بى.. وبلغت فرحتها إلى حد أن دمعت عيناها هى عمتى فريدة.. عمتى الضعيفة ، التى لا حول لها ولا قوة..

وقد تقولون يا حضرات المستشارين.. وما دخل كل هذا فى دافع الجريمة.. وأنا أقول إن هذا الموقف الذى وقفته عائلتى منى كان له دخل كبير فى تكوين أحاسيسى التى عشت فيها ساعة ارتكاب الجريمة.. فقد دفعنى هذا الموقف إلى الإحساس بالتحدى.. تحدى عائلتى.. ولم أكن فى يوم من الأيام إنساناً متحدياً.. لم أفكر من قبل فى أن أتحدى ناموسة.. ولكننى أصبحت أتحدى.. أتحدى أمى وأجبرها على أن تأتى معى إلى بيت خطيبتى.. وأتحدى أخواتى وأجبرهن على الابتسام.. ثم أتحدى عمتى توحيدة - لأول مرة - وأخالف أمرها بأن أعدل عن خطبتى.. وقد كبر فى نفسى هذا التحدى كما سترون.. أصبحت طاغية..

ونعود إلى القصة..

بعد يومين من إعلان خطوبتى ، فاتحت حماتى المستقبلة فى تحديد موعد عقد القران.. فابتسمت حماتى ، ابتسامة لا تزال مرسومة فى خيالى حتى الآن ، وقالت.. مش لما تشوفوا شقة الأول.. ولا تكتبوا الكتاب وما تلاقوش حيطة تقعدوا وراها.. وتعجبت من

كلام حماتى.. لم يكن يخطر فى بالى أن العثور على شقة يمكن أن يؤجل عقد قران.. ولكن حماتى صممت على رأيها ، وانضم إليها حماى.. واستسلمت.. لم تكن هذه مشكلة فى نظرى.. ولكن..

يا حضرات المستشارين.. هل حاول أحد منكم أن يبحث عن شقة للإيجار.. إنى أطالب المحكمة بأن تنتقل للبحث عن شقة.. أطالبها باسم العدالة.. باسم الضمير الإنسانى.. فإنكم لن تستطيعوا أن تعدلوا فى حكمكم علىّ ، ولن تستطيعوا أن ترضوا ضمائركم ، إلا إذا اكتشفتم وقدرتم مدى ما يعانيه العريس فى البحث عن شقة.. ستة شهور يا حضرات المستشارين.. ستة شهور وأنا أسعى على قدمى من حارة إلى حارة.. ومن شارع إلى شارع.. ومن حى إلى حى.. أسعى إلى السماسرة، وإلى أصحاب العمارات.. وإلى محافظة العاصمة التى تشرف على المساكن الشعبية.. وإلى.. وإلى.. وكنت قد قدرت أن أدفع ستة جنيهات للشقة التى أسكن فيها.. فرفعت المبلغ إلى ثمانية.. ثم إلى عشرة.. ثم إلى اثنى عشر.. نصف مرتبى يا حضرات المستشارين خصصته إيجاراً للشقة.. ورغم ذلك لم أجدها.. رغم أنى تنازلت عن جميع الشروط.. لم أعد أريدها تطل على الشارع العمومى كشقة عمتى.. لم أعد أريدها شرقية بحرية ، كشقة عمتى.. أريدها أى شىء.. ولو كانت جحراً فى بطن الجبل..

ولكنى لا أجدها..

وخطيبتى تزداد جمالاً فى عينى ، وأزداد لهفة إليها.. وهى تزداد نفوراً منى ، وأرى فى عينيها كأنها تتهمنى بأنى خيبة.. بأنى لست رجلاً..

وزاد إحساسى بالتحدى..

أصبحت أتحدى البوابين ، وأصحاب العمارات ، والسكان.. بل أصبحت أتحدى الحكومة ، والناس كلهم..

وطبعاً فكرت أن أتزوج وأقيم مع عائلتى.. ولكن.. مستحيل.. نحن عشرة أفراد نقيم فى ثلاث غرف.. وضقت بعائلتى لأنها تضم عشرة أفراد وتقيم فى ثلاث غرف.. وأصبحت أدخل البيت كالزوبعة.. أشخط فى أمى.. وأضرب أخواتى.. وألعن الدنيا..

وفكرت أن نقيم مع أهل خطيبتى.. مستحيل. الزواج ليس غرفة.. إنه بيت.. وبيت حماتى لا يمكن أن يكون بيتنا.. ثم ليس فى البيت غرفة يمكن التنازل عنها لنا..

ثم.. يا حضرات المستشارين.. كان البيت الوحيد الذى يمكن أن يؤوينا هو بيت عمتى.. كان يمكن أن تنتقل عمتى فريدة إلى غرفة عمتى توحيدة .. فتخلو بذلك غرفة نقيم فيها أنا وعروسى.. أو كان يمكن إخلاء غرفة الضيوف ، خصوصاً وأنها غرفة لا تفتح فى السنة إلا مرة أو مرتين.. ولكن.. لا.. توسلت.. بكيت.. ثرت. هددت ولكن ، لا.. أتدرون لماذا يا حضرات المستشارين.. لأن عمتى توحيدة تعتبر الزواج ، نجاسة.. وهى لا تسمح بأن تدخل النجاسة إلى بيتها.. هذه العانس الحيزبون..

هل كرهتها.. أبداً والله يا حضرات المستشارين.. وإلا كنت كرهت أمى.. كل ما هنالك أنى ثرت عليها.. تحديتها.. ثم لا شىء.. ولا زلت أتولى تحصيل الإيجار من السكان.. وأشترى لها ما تحتاجه.. لا زلت رجلها..

إلى أن انفتح باب الأمل..

مرضت عمتى توحيدة..

مرضت مرضاً خطيراً.. الطبيب يشك فى أنه السرطان..

وفرحت.. وفرحت خطيبتى.. إذا ماتت عمتى توحيدة ، فمن السهل أن تقبل عمتى فريدة أن نقيم معها..

وأصبح موت عمتى توحيدة حقيقة فى حياتى ، وحياة خطيبتى..

حتى أننا بدأنا نتحدث فى تحديد موعد عقد القرآن.. وقالت حماتى.. بعد ما تموت المرحومة ، يبقى تانى يوم الأربعين.. وعليك خير.

وهى تموت..

قطعاً تموت.. إنها لا تستطيع أن تتحرك من السرير.. وتنطلق منها صرخات الألم ليل نهار.. ووجها ليس له لون.. وأنفاسها ضعيفة..

ومر شهر.. شهران.. ثلاثة.. ستة أشهر.. وهى تنازع.. ثم.. أتدرون من مات يا حضرات المستشارين.. عمتى فريدة.. ماتت بالسكتة القلبية.. وبكيت بحرقة.. بحرقة.. كنت أشد شعرى ، وأضرب الأرض بقدمى.. حتى اعتقد المعزون أننى جننت.. وقد كنت على وشك الجنون فعلاً.. لا لأن عمتى فريدة ماتت ، ولكن لأن عمتى توحيدة لم تمت..

وبدأ أهل خطيبتى يغيرون موقفهم.. ملوا الانتظار.. انتظار الموت الذى سيتم به فرحى.. وبدأت أسمع همسات غريبة.. ثم سمعت أنه تقدم لخطبة خطيبتى شاب أعزب ، يعيش فى شقة وحده.. تقدم ومعه الشقة.. ثم أعلنتنى حماتى بأنها قررت فسخ الخطبة.. وجننت.. لقد أحببت خطيبتى.. أحببتها فعلاً.. أحببتها بكل أنفاسى.. بكل دقات قلبى.. بكل نبضة فى عروقى.. لم أكن أستطيع احتمال فسخ الخطبة.. أبداً ، لم أكن أستطيع.. وبكيت.. وتوسلت.. توسلت أن يمهلونى أسبوعاً واحداً.. فإذا لم أجد خلال هذا الأسبوع شقة ، فلهم أن يفسخوا الخطبة.. وقبلوا إمهالى هذا الأسبوع ، فقد كنت أفضل من العريس الآخر.. مرتبى أكبر.. وأخلاقى أحسن بشهادة الجميع.. ثم إن خطيبتى كانت قد بدأت تحبنى هى الأخرى.

ولكن يا حضرات المستشارين ، لم أحاول أن أبحث عن شقة خلال هذا الأسبوع.. كنت أعلم أنه لا أمل.. لم أعد أصدق كلام

الجرائد ، ولا كلام أصدقائى ، عن وجود شقق خالية.. إنما قضيت هذا الأسبوع أناقش موضوع موت عمتى توحيدة.. إن الموت قطعاً سيريحها من آلامها.. والمجتمع لن يخسر شيئاً إذا ماتت.. بالعكس إنها عالة على المجتمع.. ومن صالح المجتمع أن تخلو شقتها ، لعائلة جديدة ، شابة ، تعطى للمجتمع حياة جديدة.. فإذا لم يستطع المجتمع أن يخلى الشقة بالقانون ، فإنه لن يعترض إذا أخليت بالموت.. ثم.. الله.. هل يغضب الله.. ولكن الله سيأخذها إن لم يكن هذا الأسبوع ففى الأسبوع التالى.. بعد شهر على الأكثر.. فإذا جدت ظروف تساعد الله على أخذها ، فلن يغضب الله سبحانه وتعالى.. أبداً.. لن يغضب..

وأعدت هذا النقاش عدة مرات بينى وبين نفسى ، ثم ذهبت إلى عمتى.. كنت هادئاً عندما ذهبت إليها.. لم أكن هادئاً مثل هذا الهدوء فى أى ساعة من عمرى..

ورأيتها فى سريرها.. تتألم.. الألم يمزقها.. وجلست بجانبها.. وأنا أبتسم لها ابتسامة حب.. كنت أحبها فعلاً.. حب فيه شفقة ، وفيه حنان ، وفيه لوعة على حالها.. وقلت لها.. وأرجوكم يا حضرات المستشارين ، أن تتابعوا باهتمام تطور الحديث بينى وبينها.. قلت لها من خلال ابتسامتى الحزينة :

– عمتى.. يجب أن تموتى..

ورفعت إلىّ عينيها الزائغتين ، وفيها ذعر.. وهزت رأسها بعنف فوق الوسادة.. ترفض فكرة الموت.. تمتمت بلسانها المشلول :

– لا.. لا..

قلت وأنا أمسك بيدها وأربت عليها :

– الموت يريحك من الألم..

وأشارت بأصبعها نحو السماء ، واهتز لسانها قائلاً :

- الله..

تقصد أن الله هو الذى يريحها من الألم..

قلت وأنا أمسح بيدى على شعرها كأنى أغريها بأن تفهمنى :

- الله يريد لك الموت.. ومن حقك أن تختارى بين أن تتعذبى أياماً أخرى.. أو تموتى الآن..

هل فهمتم يا حضرات المستشارين.. إنى إلى هذه اللحظة لم أكن أفكر فى قتلها.. ولكنى كنت أغريها بالانتحار.. وفعلاً.. قلت لها بصراحة :

- عمتى.. ألقى نفسك من الشرفة ، فتستريحى..

فهزت رأسها فى عنف : لا.. لا.. وشفتاها ترتعشان..

قلت فى هدوء :

- هذا أرحم من أن تشعلى فى نفسك النار..

وعادت تهز رأسها ، وتحاول أن تصرخ...

وقلت :

- هل تفضلين زجاجة بوليس النجدة..

وأخذت تشوح بذراعيها ، وتحاول أن تدفعنى عنها.. ودبت فيها قوة تعينها على الصراخ..

هذه المجنونة.. إنها لا تفهم أبداً.. العجائز فى هذه السن يا حضرات المستشارين ، يفقدون القدرة على الفهم.. مهما بذلت معهم.. ومهما كان المنطق الذى تحدثهم به واضحاً معقولاً..

وضقت.. زهقت من غبائها وقلة فهمها.. وثرت.. وبسرعة رفعت وسادة السرير وكتمت أنفاسها.. وأخذت أضغط.. وأضغط.. وأنا أردد.. يجب أن تموتى يا عمتى.. من أجلك.. من أجلى.. من أجل خطيبتى.. من أجل الناس كلهم..

وتركتها جثة هامدة.. لم أشعر بأى اضطراب.. وخرجت من

الغرفة ، وناديت الخادمة العجوز التى تعيش معها ، وقلت لها.. ستك ماتت.. ولم تنزعج الخـادمة.. فد كـانت تنتظر موت سيـدتها فى كل لحظة.. ومصمصت شفتيها ، وقالت :

– ارتاحت..

واستدعينا الطبيب الذى كان يعالجها.. ونظر إلى عمتى من بعيد ، وكتب شـهادة الوفاة.. فهـو الآخر كان ينتظر مـوتها فى كل لحظة.. وقد هز رأسه وقال هو الآخر :

– ارتاحت..

ثم ذهبت إلى بيت خطيـبتـى ، وبشرتهم بوفـاة عمـتى.. وأطلقت حماتى زغـرودة.. يا ألف نهار أبيض يا خويا.. وابتسـمت خطيبتى.. منحتنى أجمل ابتساماتها..

وأنتم تعلمون الباقى يا حـضرات المستشارين.. تعلمـون كما هو ثابت فى محـضر التحـقيق ، أن البوليس لم يـقبض علىّ ، ولم تحم شبهات حولى ، ولم يشك أحد فى أن الوفـاة طبيعية.. وكل ما حدث أنى بعـد أن شـيـعت الجنازة.. جنـازة عـمتـى.. ذهبت إلى البـيت.. وحبست نفسى فى غرفتى ، وعلقت حبل المشنقة ، ثم جلست تحته ، وحاكـمت نفسى.. وعندمـا انتهت المحاكـمة بأن أصدرت حـكماً على نفسى بالبـراءة.. خرجت من غـرفتى وسلمت نفسـى إلى البوليس.. واعترفت بكل شـىء.. اعترفت وأنا واثق من براءتى..

والأمـر متـروك لكم يا حـضـرات المستـشـارين.. وأنا واثق من عدالكتم.. ولكنى مصر على طلبى ، بأن تنتقل المحكمة قبل أن تصدر حكمها ، وتحاول أن تجد شقة فاضية..

الحاج مدبولى حرامى !

يا حضرة القاضى..

صبرك علىّ... لست أنا الحرامى.. إنى متأكد أن سيادتك تتألم وأنت تحقق فى اتهامى بالسرقة قدر ألمى.. أرجوك يا سعادة القاضى.. أرجوك أن تستسلم لهذا الألم ، أرجوك أن تنظر إلىّ من خلال ألمك.. لا تتعجل.. أستحلفك بأولادك وأولادى ألا تتعجل.. إنى أعلم أن أمامك كثيراً من القضايا.. وأن عملك مرهق.. مرهق لعقلك ولضميرك.. ولكن قضيتى ليست عادية.. إن اتهام رجل فى مثل مركزى بسرقة سوار ذهبى لا يزيد ثمنه علي أربعة جنيهات ، لا يمكن أن يكون أمراً عادياً.. رئيس إدارة الحسابات بمؤسسة أبو الهول ، يسرق سواراً !! مستحيل.. إن بين يدى كل أموال المؤسسة.... وأستطيع أن أسرق آلاف الجنيهات.. لو كنت لصاً... أو لو كان يمكن أن أكون فى يوم من الأيام لصاً..

أرجوك يا سيادة القاضى.. دعنى أتكلم.. لا تقاطعنى.. لا تتعجلنى.. إنى أقف أمامك فى اللحظة الحرجة التى يتقرر فيها مصيرى ، ومصير أولادى.. وأقل ما أطالب به من حق هو أن أتكلم..

ولن أبرىء نفسى..

ولكنى سأقدم لك نفسى فى جريمة أخرى غير جريمة السرقة.. أما إذا كان لابد أن يكون فى هذه القضية لص، إرضاء للتكييف القانونى، الذى وضعته النيابة ، فاللص هو الحاج مدبولى الدكرورى..

الحاج مدبولى يا سيادة القاضى ، حرامى..

ولكن لا البوليس ، ولا النيابة ، ولا المحكمة تستطيع أن تثبت أنه حرامى.. لو كان هناك طريق لإثبات التهمة عليه. لما كنت الآن واقفاً متهماً أمامكم.. بل أؤكد لك يا سيادة القاضى أنه لو كانت هناك

وسيلة لإثبات التهمة على أمثال الحاج مدبولى ، لنقص عدد المتهمين بالسرقة فى الجمهورية العربية ، إلى النصف.. أكثر.. تسعون فى المائة من جرائم السرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، وكل أصناف الجرائم التى ترد فى هذا القطاع ، ستختفى.. ولى أمل كبير فى أن تساهم عدالتكم فى اختفائها.. بتبرئتى.. إن الحكم ببراءتى معناه الحكم بإدانة الحاج مدبولى.. ليس هناك طريق آخر لإثبات التهمة عليه.. على الحاج مدبولى.. إلا إثبات براءتى..

حلمك يا سيادة القاضى.. إنى لم أبدأ بعد فى سرد قصتى..

سكنت فى عمارة الحاج مدبولى بشارع المقياس فى المنيل ، منذ انتقلت وعائلتى من الإسكندرية لأتسلم عملى فى مؤسسة أبو الهول.. العمارة جديدة ، ورغم ذلك فقد أصرّ الحاج مدبولى على أن أدفع له مبلغ مائة وخمسين جنيهاً كخلو رجل.. لم يكن هو الذى طلبها.. ولكنه البواب.. وقد ذهبت إلى الحاج مدبولى لأرجوه أن يعفينى من هذا المبلغ.. ولكنه صرخ فى وجهى.. مبلغ إيه يا أستاذ.. أنا ماعرفش حاجة... الاتفاق مع البواب.. أنا مش فاضى للعمارة ولا بلاوى سكانها.. ورانا شغل.. و.. اضطررت أن أدفع المبلغ.. تحويشة العمر يا سعادة القاضى.. حق أولادى الأربعة وزوجتى ، اغتصبه الحاج مدبولى..

واقتنعت بأن الحاج مدبولى حرامى.. سرقنى... وكنت أصعد السلم كل يوم ، وأنا أهمس لنفسى فوق كل درجة.. حرامى.. حرامى.. وأنزل وأنا أهمس.. حرامى.. حرامى.. اثنتان وأربعون درجة يا سيادة القاضى ، أنزلها وأطلعها كل يوم أربع مرات ، وكل درجة تذكرنى بأن الحاج مدبولى حرامى..

هل كنت أستطيع أن أثبت عليه جريمة السرقة ؟

أبداً..

والحاج مدبولى كما تعلمـون جزار ، دكانه يقع فى شارع المنيل.. والمفـروض أن أشتـرى منه اللحمـة... كل سكان عمـارته يشتـرون اللحـمـة من دكانه.. غـصب عنهم.. رغم أنوفـهم... الذى يحـاول أن يتـحرر ويشـتـرى اللحمـة من دكـان آخر ، يسلـط عليه البـواب... ويتعرض للمضايقات.. يجن.. على أن معاملة البواب للسكان تتوقف على كمـية اللحم التى يشـترونهـا من جزارة الحاج مـدبولى.. الذى يشـترى كـيلو لحم فى اليـوم له معـاملة تخـتلف عن معـاملة الذى يشترى نصف كيلو.. وإذا فـرض ومرض أحد السكان وطال مرضه وامتنع عن أكل اللحم ، كما حدث لجارنـا السيد عبد العظيم.. انصبت عليه مضايقات البواب.. فإذا احـتج.. صرخ فيه البواب بكل وقاحة.. لما تبقوا تاكلوا لحمة ، ابقوا اتكلموا..

هل تعتقد أنى أبالغ يا سيادة القاضى..

أبداً ، والله.. هذا ما كان يحدث..

وقد ذهـبت بنفسى إلى دكـان الحاج مـدبولى منذ أن سكنت فى عمـارته ، ورحب بى.. وطلبت منه أن يزن لى كيلو لحمـة بتلو.. فإذا به يزن لى كيلو من العظم ، والشغت ، والدهن..

وقلت له فى أدب :

– إيه ده يا معلم.. ما تقطع من الحتة اللى هناك دى..

قال وهو لا ينظر إلىّ :

– دى محجوزة لزباين يا أستاذ.. ما كانش ينعز..

قلت فى شبه توسل :

– ما احنا كمان زباين يا حاج..

قال وهو يرفع ساطوره ويهوى به على القرمة :

– كل زبون وله ثمن يا أستاذ..

وفهمت..

إنه حرامى يا حضرة القاضى.. حرامى..

لم يكتف بسرقتى فى خلو الـرجل ، ولكن أيضاً يريد أن يسرقنى فى ثمن اللحمة.. يريد أن يبـيعنى بأكثر من التسعـيرة.. ماذا أفعل.. مـاذا تفعل أنت يا حـضرة القـاضى.. إنى واثق أن سـيادتك أيضـاً تضطر إلى أن تشترى اللحم بأغلى من التســعيرة.. رغم المهابة التى تحيط بك ، ورغم كلمـة العدل المعلقة بين شفتـيك.. دون أن تستطيع أن تفعل شيئاً.. دون أن يســتطيع القانون أن يحميك.. ولا البوليس.. ولا النيابة.. ولا السيد وزير التموين..

وقد وضعت يومها يدى فى جـيبى ، ودفعت له ثمن كيلو اللحم ، بزيادة خمسة قـروش عن التسعيرة.. وقلت له وأنا أبتـسم ابتسامة صفراء :

– عد الفلوس كويس يا حاج.. يمكن يكونوا ناقصين..

ونظر الحـاج إلى النقود فى يده ، كـأنه يزنهـا بكفه ، ثم ابتـسم ولمعت عيناه الجشعتان ، وقال :

– ورينى اللفة اللى فى إيدك دى..

واستـعاد منى ورقة اللحم ، وأعـاد وزن قطعة جديدة خـالية من العظم.

وهكذا اتفقنا..

كل يوم أدفع له خمسة قروش فـوق التسعيرة ، لأضمن لأولادى أن يأكلوا لحمـاً.. مائة وخمـسون قرشـاً فى الشهـر.. إنه حرامى يا سيـادة القاضــى.. حرامى.. ولا أسـتطيع أن أنسى فى أى لحظة من يومى أنه حـرامى.. حتى وأنا فى مكتـبى بمقر الشركـة ، كنت أرفع رأسى عن الدوسيه فجأة كأنى لدغت ، وأكون لحظتها قد تذكرت أن الحاج مـدبولى حرامى.. يسرقنى.. ويســرق رزق أولادى.. وأنتفض من نومى لأنى حلمت بـالحاج مـدبولى يســرقنى.. يسـرق جيـبى..

يسرق بيتى.. يسرق لقمة العيش من فمى..

وفكرت أن أبلغ عنه مراقبة التموين أو البوليس.. ولكنى كنت أعلم أنى لو فعلت فلن أصل إلى شىء ، وسيصب على الحاج مدبولى بعدها غضبه وانتقامه.. فالحاج مدبولى يا سيادة القاضى لا يسرق إلا الذين يعرفهم شخصياً.. خصوصاً سكان عمارته.. إكراماً لهم.. ويرفض أن يسرق أى غريب.. من باب الحذر من أن يقع فى يد مفتش التموين..

وكنت دائماً أتساءل لماذا يسرق الحاج مدبولى الناس.. لقد فتح الله عليه ، وأصبح صاحب عمارة.. وعنده زوجتان.. وكارتة بحصان واحد.. فما حاجته إلى نقود.. ماذا سيفعل بهذه النقود الحرام ؟.

أتدرى ماذا يصنع بها يا سيادة القاضى..

إنه يضعها فى ذراعى الست نرجس.. زوجته الجديدة.. أكثر من عشرين سواراً ذهبياً فى ذراعيها يا سيادة القاضى.. إنها دكان صائغ متنقل ، وفى كل شهر يزيد عدد الأساور.. جوز..

وكانت الست نرجس تأتى إلى زيارة زوجتى ، وأقف بعيداً أبحلق فى أساورها الذهب ، وأتذكر الخمسة القروش التى أدفعها كل يوم للحاج مدبولى.. هذه الأساور الذهبية يا سيدى القاضى هى نقودى أنا.. نقودى مجمدة فى سبائك ذهبية معلقة فوق ذراعى الست نرجس.. وكنت أكاد أصيح فيها كلما رأيتها.. هاتى فلوسى يا حرامية... يا مرات الحرامى.. ولكن صيحتى كانت تموت على شفتى.. والست نرجس تبتسم فى دلال..

والست نرجس يا حضرة القاضى امرأة فى الخامسة والثلاثين من عمرها.. ربما كانت فى الأربعين ولكنها تبدو فى الخامسة والثلاثين.. وجهها كالرغيف الأبيض.. وشعرها مصبوغ باللون الأصفر الفاقع... وتزجج حواجبها بكثير من الكحل... امرأة.. امرأة

لعبـية.. نغـشة.. مظاهرة مـن الأنوثة الصارخـة تتحـرك فى أركان العمارة الأربعة ، من شقة إلى شقة..

أرجوك يا حـضرة القـاضى.. لا تعترض على كـلامى عن الست نرجس.. إن الست نرجس هى العـمود الفقـرى لهذه القضـية.. ولن تستطيع أن تحكم بالعدل إلا إذا سمعت قصتها..

لقد خصتنى الست نرجس باهتمامها.. كانت تأتى لزيارة زوجتى كل مساء بعد أن تتأكد من وجودى فى البيت.. وكانت تفتح بابها كل صباح بعد أن تسمع صـوت أقدامى على السلم.. وتقول لى.. صباح الخيـر يا سى محـسن... ما تتـفضل تشـرب قهوة.. فكنـت أهز لها رأسى فى برود ، وأرفض دعـوتها.. وأجـرى من أمامـها ، وشـعاع عينيها ينطلق ورائى فى غيظ صامت..

إنى لم أكن أهتم بالست نرجس.. كل أنوثتها الصارخة لم تثر فى شعرة.. وقد كنت قبل زواجى شـاباً منطلقاً وراء شهواته... كانت لى مغامرات نسائية لا حصر لها.. وربما لو قابلت الست نرجس أيامها ، لأثارتنى.. ولكنى منذ زواجى وأنـا رجل مسـتقـيم.. رجولتى كلهـا لزوجتى.. وعيناى مغمـضتان عن كل نساء الأرض.. لا نرجس ، ولا غيرها..

ولكنى كنت مهتـماً بالأساور الذهبية التـى تحملها الست نرجس فى ذراعيـها.. كنت أستطيع أن أعـدها بعينى وأنا أقف بعيـداً عنها.. وإحساسى يشـتد يوماً بعد يوم بأن هذه الأسـاور ، ملكى أنا... إنها نقودى مـجمدة فـوق ذراعيهـا.. نقودى التى يسـرقها منى زوجـها الحاج مدبولى..

بل لقد بلغ اهتمامى بهذه الأساور أنى ذهبت إلى الصاغة وسألت عن سعرها ، وعرفت أن ثمن الواحدة منها ثلاثة جنيهات..

وحسبت الحسبة..

إن الحاج مدبولى يسرق منى كل شهر مائة وخمسين قرشاً.. أى أنه سرق منى خلال العام الذى مضى منذ سكنت العمارة ، ثمانية عشر جنيهاً.

فإذا كان ثمن السوار ثلاثة جنيهات ، فمعنى ذلك أن لى ست أساور فى ذمة الحاج مدبولى..

أليس هذا منطقاً يا حضرة القاضى..

إن القانون قد يحكم على الحاج مدبولى إذا ضبط بالبيع خارج التسعيرة ، بغرامة قد تصل إلى ألف جنيه..

ولكن قانونى أنا لم يكن يريد من الحاج مدبولى إلا ثمانية عشر جنيهاً.. فقط ما سرقه منى.. إنى لا أملك حق عقاب الحاج مدبولى.. فهذا من اختصاص الدولة.. ولكن من حقى قطعاً أن أسترد ما سرقه منى.. أليس هذا حقى يا سعادة القاضى.. أرجوك.. دعنى أتم كلامى..

ولم يكن معقولاً أن أذهب إلى الحاج مدبولى وأطالبه بما سرقه منى.. هذا كلام غير عملى.. كلام مجانين.. وأنا لست مجنوناً.. أنا رجل واقعى.. عملى..

الوسيلة الوحيد لأسترد مالى المسروق ، هى أن أبتسم للست نرجس..

وابتسمت لها.

ابتسامة تحمل كثيراً من المعانى ، التى كنت أجيد التعبير عنها قبل زواجى..

وفرحت الست نرجس بابتسامتى.. وزاد اهتمامها بى.. أصبحت ترسل بين كل يوم وآخر هدية.. طبق عاشورة.. طبق كعك ومنين.. حلة كشرى.. وزوجتى مندهشة.. وأنا واثق مقتنع بخطتى.. والست نرجس تأتى إلينا كل مساء لتطمئن إلى أنى أكلت من هديتها. والنبى

يا سى مـحسن مـا فيـه حاجة تـغلى عليك... ده أنت راجل سكرة يا سى محسن من يوم ما سكنت والعمارة منورة..

وزوجتى العبيطة لا تفهم شيئاً.. وأنا أفهم..

ولم أندلق على الست نـرجس.. عذبتـهـا ورائى شهـراً.. وكلمـا فتحت بابهـا ودعتنى للدخول ، اعتذرت بأى عـذر.. فيبتئس وجـهها الملغمط بالأصبـاغ ، وتقول... والنبى إنت محيـرنى يا سى محسن.. باين عليك مش سهل..

إلى أن كان يوم..

ونزلت من البيت سـاعة العصـر.. وفتحت نرجس بابهـا.. وقالت لى.. على فـين يا سى مـحسن.. وأجـبـتهـا وأنا أرسم على وجـهى الضيق والزهق.. والله مـتضايق وزهقـان يا ست نرجس.. قلت أطلع أتمشى على البحـر شوية.. وأجابتنى وهى تغـمز بعينيهـا.. طيب ما تيجى وأنا أفك ضيقـتك.. وقلت وأنا أدير لها ظهرى.. وإنت ذنبك إيه يا ست نرجس.... معلهش النهاردة..

وخرجت مـن العمارة ، وسـرت فى خطى متـمهلة علـى شاطىء النيل ، القريب من العمارة.. وبعـد دقائق ، أحسست بها ورائى... ثم سمعت صوتاً ينادى.. سى محسن.. سى محسن.. استنى شوية..

ووقفت إلى أن لحقت بى.. وقالت وهى تـتلفت حواليها.. أنت مش عايز تقوللى على الـلى مضايقك ليه.. هو أنا غريبـة يا سى محسن.. وقلت وأنا أدعى الدهشـة.. بس الكلام ده ما يبـقاش فى الشـارع يا ست نرجس.. تيجى ناخد تاكسـى... وخبطت على صدرها وقالت.. يا خبر.. واللا أقولك.. أحسن برضه..

وركبنا تاكسى..

هل تعتبرنـى سافلاً يا سعادة القاضى.. أرجوك لا تقـلب شفتيك هكذا.. لا تحـتـقـرنى.. تذكـر دائمـاً أنى إنسـان يسـعى وراء مـاله

المسروق.. ودعنى أتم حديثى قبل أن تحكم علىّ..

فى التاكسى عادت نرجس تسأل عن سر ضيقى..

وقلت لها بعد أن تمنعت كثيراً :

– تصورى إن واحد زيى ماهيته خمسة وخمسون جنيها.. بيوصله منهم ثمانية وأربعون بعد خصم الضريبة والتمغة.. مش قادر يوكل عياله.. تصورى إنى بعد ما حدفع أجرة التاكسى مش حلاقى حق علبة السجاير.. والبت الصغيرة عايزة فستان.. والواد عايز تلاتة جنيه علشان لبس الفتوة.. ومستلف ، والقسط يستحق بكره.. وبعد كده مش عايزانى أبقى متضايق..

وابتسمت نرجس وقالت وابتسامتها تملأ وجهها :

– بس كده. ده اللى مزعلك.. ولا يهمك.. خد دول ارهنهم.. واللا إن شا الله تبيعهم.. وسد ضيقتك..

وخلعت من ذراعها ثلاث أساور..

قلت لها وأنا أشيح عنها بوجهى :

– مش ممكن يا نرجس.. مش ممكن أبداً..

قالت :

– إخص عليك يا سى محسن.. هو أنا غريبة.. واللا فيه تكليف..

قلت :

– بس أنا عمرى ما قبلت حاجة زى دى..

قالت :

– أصل عمرك ما عرفت نرجس..

قلت :

– بس يمكن الحاج يعنى..

وقاطعتنى وهى تضحك قائلة :

– يا خويا.. يعنى هو بيعدهم.. واللا فاكر بيتمم عليهم قبل ما ينام.

وأخذت الأساور الذهبية.. ثلاث أساور.. بقيت لى فى ذمة الحاج مدبولى ثلاث أساور أخرى..

وقالت نرجس وهى تنزل من التاكسى :

- مش بكرة تفوت تشرب القهوة عندى..

قلت وأنا أعدها بابتسامتى :

-- بإذن الله.. بن تقيل.. وسكر مضبوط..

وأخذت الأساور فى نفس اليوم يا حضرة القاضى ، وبعتها فى الصاغة.. بعت الواحدة باتنين جنيه ونصف.. الصائغ أيضاً يسرقنى..

وارتحت نفسياً..

أحسست أنى قد أقمت العدالة.. من حق المسروق أن يسترد ماله من السارق.. هذه هى العدالة..

وأصبحت أشرب القهوة كل يومين.. وأحياناً كل يوم.. عند الست نرجس.. بن تقيل.. وسكر مضبوط..

وفى خلال ثلاثة أشهر كنت قد استرددت مالى من الحاج مدبولى ، على داير مليم.. ثمانية عشر جنيهاً.. ثمن ثمانى أساور.. لا ست أساور كما حسبتها من قبل.. فالصائغ يبيع للناس بثمن ، ويشترى منى بثمن.

وطبت نفساً.. برئت من الحقد الذى كنت أشعر به نحو الحاج مدبولى.. أصبحت أتعامل معه على قدم المساواة..

وكل ما حدث يا حضرة القاضى هو أن استقامت الدورة النقدية.. الحاج مدبولى يأخذ منى مائة وخمسين قرشاً فى الشهر.. ويشترى بها أساور لنرجس.. وأنا آخذ الأساور من نرجس.. وأبيعها.. وأسترد مالى..

وعندما برئت من الحقد والسخط ، أحببت الحاج مدبولى نفسه ،

وأحبنى الحـاج مدبولى.. أصبحنا أصـدقاء.. وأصبحت أمنح صـبيه بقـشيـشاً.. قـرشـين صاغ على كل كـيلو لحم أشـتريه.. وأضـيف القرشين صاغ أيضاً على ثمن الأساور..

هل هذه سرقة يا حضرة القاضى ؟!

أبداً..

إنهـا معـاملة.. وإذا كان القـانون أو الحكومة تفـتح ثغرة للـحاج مدبولى ، لكى يسرق مـالى ، فإن القانون والحكومة يجب أن يفـتحا لى ثغرة لأسترد مالى..

المهم..

بعد أن استـعدت الثمانية عـشر جنيهاً التى سرقـها منى الحاج مدبولى ، فكرت أن أسـترد كل ما سـرقه الحاج مـدبولى من باقى زبائنه ، وأرده إليـهم.. ولكن هذا ليس شـأنى.. وقـررت فعـلاً أن أقطع علاقتى بنرجس.. ولكن الحـاج مدبولى مستمـر فى سرقتى بواقع سـبعـة قروش فى اليـوم.. أى مائتين وعـشرة قـروش فى الشهـر.. أى حوالى ثلاثة عشر جنيـهاً كل ستة شـهور.. ثم هناك المائة وخمسـون جنيهاً التى سرقها منـى كخلو رجل عندما سكنت فى عمارته..

واستمرت علاقتى بنرجس..

تعطينى الأساور ، بقدر ما يسرق منى زوجها..

وزوجها يشـترى لها كل شهر أسورتين. وأحـياناً أربع أساور.. معتقداً أن هذه هى أسلم طريقة لادخـار أمواله.. خوفاً من أن يضعها فى البنك.. فـهو يصـدق الإشـاعات.. ويخـاف أن تصادر الحكومـة أموال البنوك.. ويخاف أن يحتفظ بها تحت البلاطة.. خوفاً من إشاعة أن الحكومة ستغير شكل أوراق النقد.

ولكن..

وأرجوك يا سيادة القاضى أن تقدر ما حدث بعد ذلك ، وتكون منصفاً لى..

لقد بدأت نرجس تتغير..

بدأت تقلل من دعوتها لى لشرب فنجان القهوة.. وبدأت تتجاهلنى.. وتزداد تجاهلاً يوماً بعد يوم.. ثم.. اكتشفت أن ساكناً جديداً قد سكن العمارة فى شقة بالدور الأرضى.. شاب أعزب.. أكثر منى شباباً..

وجننت..

لم أجن على نرجس.. صدقنى يا حضرة القاضى.. إنى كنت أحتمل من شرب فنجان القهوة ، أكثر من ثمن الأساور.. ولكنى جننت لأنى لا أجد طريقاً آخر أسترد به مالى المسروق..

وفى يوم.. لم أطق جنونى.. وكانت نرجس قد أهملتنى مدة تزيد على شهر.. فذهبت إلى شقتها ، وطرقت الباب بعنف.. وفتحت لى.. وهى دائماً تفتح بابها بنفسها.. وما أن رأتنى حتى قالت..

– المعلم زمانه جاى يا سى محسن.. بلاش النهاردة..

ولم أصدقها.. إنها تتحجج بزوجها منذ قررت أن تتركنى إلى الشاب الذى يسكن الدور الأرضى..

وقلت لها فى لهجة آمرة :

– سيبينى أخش.. أنا عايزك فى كلمتين.. ومش حاشرب قهوة..

وتركتنى أدخل.. وما كادت تغلق الباب ورائى حتى قلت فى هدوء :

– ناقص ست أساور..

فنظرت إلى كأنى مجنون ، وقالت :

– أساور إيه يا سى محسن..

قلت :

- الحساب لغاية آخر السنة..

قالت وهى تبتعد عنى :

- حساب إيه.. أنا مش فاهمة حاجة.. أنت فاكت إنى حاأعيشك بأساورى.. ما خلاص يا سى محسن.. جبرنا..

وحاولت أن أفهمها كل شىء.. حاولت أن أقول لها بصراحة سر علاقتى بها.. ولكنها لم تفهم شيئاً.. إنها لا تريد حتى أن تفهم أن زوجها الحاج مدبولى ، حرامى.. وهى تقول لى كلاماً جارحاً.. تهيننى.. تشتمنى.. ولم يعد هناك مجال للمنطق ، ولا للتفاهم.. فهجمت عليها ، ونزعت من ذراعها أسورتين.. وسال الدم من يدها.. وصرخت.. وهبت زوبعة فى العمارة كلها.. وجاء البواب.. وقبض علىّ.. وقدمت إلى المحاكمة بتهمة مشينة.. تهمة كاذبة.. تهمة السرقة..

هل أنا لص يا حضرة القاضى ؟

لا..

قد أكون أى شىء.. ولكننى لست لصاً..

وتذكر ما قلته لسيادتكم.. إذا كان القانون والحكومة قد فتحا ثغرة للحاج مدبولى ليسرق مالى ، فيجب أن تفتح لى ثغرة لأسترد مالى المسروق..

وأنا واثق من عدالتكم..

مستسلم لقدرى..

احكم علىّ بأى عقوبة.. ولكن.. لا تحكم علىّ بتهمة السرقة..

سارق الأوتوبيس

يا سيادة القاضى..

كل هذا الكلام لن يؤدى بنا إلى شىء.. إنهم يضيعون وقت المحكمة .. ما جدوى سماع الشهود إذا كنت معترفاً.. وقد قلت فى اعترافى أكثر مما يقوله الشهود.. ما جدوى هذه الإجراءات.. إن هذه هى خامس جلسة.. وأنا لا زلت فى السجن.. ورغم هذا فإن الموضوع الرئيسى فى القضية لم يبحث بعد..

يا سيادة القاضى.. أنا لا أقصد نقد المحكمة.. أستغفر الله.. كل ما أحاوله هو توفير وقت المحكمة.. أرجوك يا سيادة القاضى.. أبوس إيد سعادتك.. وحياة والدك.. امنحنى فرصة الكلام.. أنا المتهم.. وأنا الذى سأدخل السجن.. وحينخرب بيتى.. ويتشرد أولادى.. والأستاذ المحامى الذى يترافع عنى ، لن يحدث له شىء من هذا. بالعكس سيقبض أتعابه.. وقد باعت أمى اللبة الذهبية التى تعتز بها ، لتدفع له مقدم الأتعاب.. وأنا لا أعترض على الأستاذ المحامى.. لا ، ورحمة والدى.. إنى أقدره ، وأعتز بكلامه.. ولكن كل ما أريد أن أقوله لسيادتك ، هو أنى أولى من المحامى بالكلام.. فأنا المتهم.. أنا الذى سأدخل السجن.. وينخرب بيتى.. ويتشرد أولادى..

شكراً يا سيادة القاضى.. ربنا يديمك للعدالة وللغلابة.. وتأكد سيادتك أنى سأختصر فى كلامى..

يا سيادة القاضى..

بالله عليك.. هل من المعقول أن أسرق سيارة أتوبيس مزدحمة بركابها.. هل يبدو علىّ أنى كالصعيدى الذى اشترى الترام.. هل يبدو علىّ أنى مجنون.. لو أن سيادتك تشك فى أنى مجنون ، فأرجو إحالتى إلى طبيب.. بل أرجو أن تسألوا زملائى فى العمل،

وأصدقـائى فى المقهى.. يا سيـادة القاضى.. أنا أحـسن واحد يلعب الكومى فى حى باب الشعرية كله... فهل هذا يدل على أنى مجنون..

لا يا سيـادة القاضى.. لست مـجنوناً.. ورغم ذلك فوكيـل النيابة يصر على أنى سرقت سيارة الأتوبيس ، بركابها.. وهو متحمس فى اتهـامى إلى حد أنه خـيل إلىّ أن بينى وبينه ثأراً قديـماً.. يا سـيادة وكـيل النيابة ، هل حـدث - لا سمح الله - أن أغـضبـتك فى شىء.. دست لك على طرف... رفضت أن أؤدى لك خدمة.. ذكرنى يا حضرة وكيل النيابة ، إذا كنت نسيت..

معلهش يا حـضرة القاضى.. سامحنى الله يخلـيك.. أنا لم أقصد أى شـىء يسـىء إلى وكـيل النيابة.. ولكن هذه أول مـرة فى حيـاتى أقف فيـها أمام محكمـة.. وأجهل أصول الكلام.. علشـان خاطرى يا سيادة القاضى.. وحياة ولادك.. لا تغضب علىّ..

كل ما كنت أريد أن أقوله إن السيد وكيل النيابة ، عندما وجه إلىّ تهمة سـرقة سيارة الأتوبيس ، لم يسأل نفـسه ، ولم يسألنى ، لماذا أسرق سيارة أتوبيس.. ماذا أصنع بها بعد أن أسرقها ؟.

السيد وكيل النيـابة يقول إنى سرقتها ، لأفك أجـزاءها ، وأبيعها فى وكالة البلح..

طيب.. لنفـرض أن هذا صـحيح.. والركـاب.. الركـاب يا سيـادة القاضى.... مذا أصنع بهم.. هل أبيعهم هم أيضاً فى وكالة البلح؟

العقل يا هوه.. أنا حاتجنن.. إذا لم أكن مجنوناً.. فسأخرج مجنوناً من المحكمة.. إلا إذا أنصفتنى يا سيادة القاضى..

يا سـيادة القـاضى.. أنا لم أحـاول أن أسـرق سيـارة الأتوبيس بركابها.. هذه تهمة ليس لها منطق.. وأنا لست مجنوناً.. و..

حلم سيادتك..

سأروى لك القـصة كلها.. وأنا لا أفهم فى القـانون.. ولكنى أفهم فى

العدل.. وربما كان العدل لا يحتاج إلى فهم بقدر ما يحتاج إلى إحساس.. وأنا أحس بالعدل بين شفتى سيادتكم.. أنا مطمئن إلى العدل هنا..

حاضر.. لن أطيل..

لقد تزوجت رتيبة منذ خمس سنوات.. أرجوك يا سيادة القاضى.. أرجوك.. أبوس جزمتك.. لا تمنعنى من الكلام.. إن رتيبة ليست خارج الموضوع.. إنها أساس الموضوع.. هى السبب.. الله يرحمها ، ويحسن إليها..

لقد كانت رتيبة يا سيادة القاضى فتاة يتيمة تعيش مع خالتها ، فى البيت المواجه لبيتنا بحارة درويش بباب الشعرية.. وكانت تصغرنى كثيراً.. بينى وبينها خمسة عشر عاماً.. ورغم ذلك أحببتها.. أحببتها منذ كانت فى الثامنة من عمرها.. إنها جميلة يا سيادة القاضى.. شعرها أصفر.. والشعر الأصفر ، نادر عندنا فى باب الشعرية.. وربما قررت أن أتزوجها منذ كانت فى الثامنة.. ولكنى قبل أن أتزوجها ، كنت لها أخاً ، بل كنت لها أباً.. كنت أعود كل مساء من عملى حاملاً لرتيبة وخالتها ، بقدر ما أحمله لأمى.. إذا اشتريت أربعة أرغفة عيش لأمى ، اشتريت مثلها لرتيبة.. وإذا أشتريت أقة بلح لنا ، اشتريت أقة بلح لرتيبة.. بل إنى كنت أشترى لرتيبة أرغفة العيش الفينو ، بين حين وآخر.. لأنها كانت تحب العيش الفينو.. وأمى لم تكن تحب العيش الفينو ، ولكنها كانت تحب رتيبة ، وكانت تتلهف أكثر منى على اليوم الذى تزوجنى فيه لها..

حاضر يا سيادة القاضى.. سأختصر..

كبرت رتيبة ، وأصبحت فى السادسة عشرة.. وفتح الله علىّ وأصبحت سائق سيارة لورى فى شركة نقل تعمل على خط الصعيد ، ومكتبها فى شارع الأزهر.. وتزوجت رتيبة.. انتقلت بها من البيت المواجه ، إلى بيتنا ، هى وخالتها.. وأقمت فرحاً كبيراً لا تزال باب

الشـعرية تتـحدث عنه إلى اليـوم.. لقد اتهـمونى يومـها بـالإسراف.. ولكنهم لا يعلمون أن كل ما صرفته يومها على الفرح ، لم يكن يساوى شيئاً بالنسبة لفرحتى.. فرحة الحب ، يا سيادة القاضى..

وأنجبت رتيبة لى ابنى فتح الله.. وبنتى زهرة.. والله يوسعها علىّ بفضل دعوات أمى.. أصـبـحت أشهـر سـائق لورى.. أسطى بحق وحقـيق.. لم تكتب لى مخـالفة واحدة طول مـدة خدمتى ، كـما هو ثابت فى الملف.. ولم أتأخر يومـاً عن موعدى.. موعد القيـام وموعد الوصول.. بـل كنت حنبلياً فى مـسألة المواعـيد.. وكان المـوعد الذى أحدده كـأنه القـدر.. بل أحيـاناً كان رئيس المكتب يحـدد لى مـوعداً لوصولى إلى المنيا مثلاً.. فأرفضه.. ويلح... يا أسطى فهمى ، الزبون عايز البـضاعة تـكون عنده بكرة الساعة تلاتـة.. فأرفض هذا الكلام وأقول لرئيس المكتب.. مش ممكن يـا سى منير.. البضاعـة حاتوصل للزبون الساعة تلاتة ونص.. وكلمـتى هى السارية.. هى القدر.. وقد اشتهرت بين كل الزبائن بهذه الدقة التى أحرص عليها فى المواعيد... كانوا يطلبوننى شخصياً لأنقل لهم بضائعهم... وكنت أتقاضى اثنين جنيـه على النقلة الواحدة.. وارتـفعت إلى ثلاثة.. وأصـبح دخلى فى الشهر لا يقل عن ثمانين جنيهاً.. الحمد لله.. تشكر يا رب..

إلى أن مرضت رتيبة..

عمـرها ما مرضت يا سـيادة القاضى.. كـانت دائماً جمـيلة مثل الوردة.. قوية مـثل البقـرة.. ولكنها مـرضت.. حكمة ربنا... واشـتد عليهـا المرض.. ومرضت معـها حيـاتى كلها.. يا سيـادة القاضى أنا لست زوجها فحسب أنا أبوها.. وأخوها.. ليس لها أحد غيرى.. وأمى وخالتها عجوزتان لا تقويان على رعايـتها.. فجلست بجانبها.. أخذت إجازة من الشـركة... وإجازة ثانيـة.. وأنا بجانبهـا أراعيهـا برموش عينى.. وأحـضر لها أشهـر الأطباء.. الفيـزيتة اثنين جنيه.. وأحـياناً

أربعة.. واستدعيت لها كونسلتو أطباء ، كلفني عشرة جنيهات.. وتحويشة العمر تذوب.. ولكن تهون الفلوس ، ويهون العمر ، فى سبيل رتيبة.. حبيبتى.. رتيبة..

حاضر يا سيادة القاضى.. حاضر... سأختصر.. وتأكد سيادتك أنى لا أبكى استدراراً لشفقتكم وعطفكم.. أبداً والله.. ولكن اعذرنى سيادتك ، إنى لا أستطيع أن أتذكر المرحومة ولا أبكى..

لقد استقر رأى الأطباء يا سيادة القاضى.. غفر الله لهم.. على إجراء عملية استئصال المرارة لرتيبة.. ونقلناها إلى المستشفى الجمعية الخيرية فى العجوزة.. درجة أولى ، وحياتك يا سيادة القاضى.. رفضت أن ترقد رتيبة فى الدرجة الثالثة ، أو الثانية.. وقد رجتنى رتيبة أن أدخلها درجة ثانية.. وقالت : بلاش بعزقة فلوس يا فهمى. كفاية اللى صرفته لغاية دلوقتى.. ولكنى صممت على أن تقيم فى الدرجة الأولى.. هى أقل من مين.. ليست أقل من زوجة الأستاذ منير مدير الشركة.. دى ست طيبة.. أميرة.. مافيش حاجة تغلى عليها.. واستدنت.. لازلت إلى اليوم مديناً بخمسين جنيهاً للشركة.

وكنت أذهب كل صباح وأبقى بجانب رتيبة فى المستشفى.. وأراها بعينى وهى تذبل.. وتنطفىء.. وكانت تفتح عينيها ، وتقول لى.. قوم روح الشغل يا فهمى.. فأرد عليها.. مافيش شغل أهم من صحتك يا رتيبة.. خفى انتى وشدى حيلك.. وكله يتعوض..

ولكنى اضطررت أن أعود إلى العمل..

الفلوس يا سيادة القاضى..

الفلوس التى أقامر بها على صحة رتيبة.. لم أكن أدفع هذه الفلوس ثمناً لصحة رتيبة وعمرها.. فالصحة والأعمار بيد الله ، ولكنى كنت أقامر بها لعلى أكسب صحة رتيبة وعمرها.. وكنت أدفعها للأطباء وللمستشفى بروح المقامر.. ولهفة المقامر.. المقامر على صحة زوجته..

وكنت أذهب إلى مقر الشركة ، وأقود اللورى إلى بنى سويف.. وأعود به.. لأجرى إلى المستشفى.. وأبيت بجانب رتيبة.. اتفقت مع السيد محمود التومرجي على أن يسمح لى بالمبيت على مقعد بجانب زوجتى.. وكنت أرفض النقليات البعيدة.. لم أكن أقبل أن أسافر باللورى إلى أبعد من بنى سويف حتى أعود بسرعة إلى المستشفى.. ورغم انشغال فكرى فى هذه الفترة ، وتلف أعصابى ، فإنى لم أرتكب مخالفة مرور واحدة ، ولم أتأخر عن المواعيد التى أحددها دقيقة واحدة.. إن الأسطى فهمى... كلمته كالقدر..

إلى أن كان اليوم الأسود يا سيادة القاضى.. اليوم الذى اتهمت فيه بسرقة سيارة أتوبيس.. أنا أسرق سيارة أتوبيس !! بأه ده معقول يا عالم!!

المهم..

لقد تركت المستشفى فى ساعة مبكرة من الصباح ، وذهبت إلى مكتب الشركة لأستلم اللورى.. وما كدت أصل إلى هناك ، حتى اتصل بى محمود التومرجي ، بالتليفون ، وطلب منى أن أعود إلى المستشفى حالاً.. رتيبة فى حالة خطرة وتريد أن ترانى..

وتركت مكتب الشركة دون استئذان.. وجريت فى شارع الأزهر.. جريت لم أمش.. ولم أمدد خطاى.. ولكنى جريت كالمجنون.. وكنت أعرف خط سيرى.. سأجرى حتى ميدان العتبة الخضراء.. والمسافة إلى هناك إذا جريتها لن تستغرق أكثر من عشر دقائق.. ثم سأركب الأتوبيس نمرة ستة من محطته النهائية فى العتبة الخضراء بعد عشر دقائق بالضبط.. إنى خبير فى تحديد المسافات..

ولكنى لم أجد الأتوبيس فى المحطة النهائية..

أرجوك يا سيادة القاضى أن تتبع أحاسيسى منذ تلك اللحظة..

المفروض أن يكون هناك دائماً سيارة أتوبيس فى المحطة

النهائيــة.. سيــارة تصل ، وسيارة تقــوم.. وبين كل سيــارة وأخرى عــشر دقــائق على الأكــثر.. هكذا قــرأنا فى الصـــحف.. ولكن المحطة النهائية.. كرأس الأصلع.. ليس فيها ولا أتوبيس..

الصبر يا فهمي..

ووقفت بين عشرات من أفــراد الجمهور المنتظرين فى الأتوبيس.. أنتظر.... لماذا لم أركب تــاكسى.. لأنــنى كمــا قلت لســيــادتك كــانت تتملكنى روح المقــامرة.. المقامر على حيــاة زوجته.. والمقامــر يحتفظ بكل مليم فى جيبه ليلعب به.. والسبب الأهم ، أنه لم يكن معى سوى عشرة قروش.. كنت قد دفعت فى اليــوم السابق كل ما معى وكل ما استدنتــه ، تسديداً لفاتورة المستشفى.. وانتظرت عــشر دقائق.. وأنا أضرب الأرض بقــدمى.. وأزفر أنفاسى.. وأمــد ساقى فى كل لحظة لأجرى إلى المستشفى.. ربما وصلت إليها قبل أن يصل الأوتوبيس..

اصبر يا أسطى فهمى..

وصبرت..

وجاء الأتوبيــس بعد عشــر دقائق.. وترك الســائق مكانه ، وترك الموتور دائراً.. وفى لحظة واحــدة كان الأتوبيس قــد أفرغ من فــيه ، وامتلأ من جديد بالركاب.. ووجدت مكاناً لقدم واحدة من قدمى على السلم من ناحية مقعد القــيادة.. ومرت الدقائق وأنا معلق على السلم بقدمى الواحدة.. دقيقة اثنتين.. خمس.. ومر مفتش المحطة ، وقلت له:

- مش نطلع بأه يا أفندى..

ونظر إلى باحتقار :

- اصبر يا أخينا..

ثم تركنى..

وصحت بكل بأنفاسى :

- هو فين السواق..

ورد صوت لا أعرفه :

- بيشرب شاى..

وصرخت بكل غلّى :

- ده بيعطل النّاس.. الله يعطل حاله..

وجاء الكمسارى يصرخ فى :

- خليك مؤدب يا حضرة.. هو احنا مش ناس زيكم ولا إيه..

وعدت أصرخ :

- لو كنتم ناس زينا ، كان بقى فى قلبكم رحمة.

وزغدنى الكمسارى قائلاً :

- ما تلم لسانك أمال..

وبدأ الصياح.. كل الركاب فى صـفى.. وقدرت أن خناقة ستهب.. وأنا لا أريد أن تهب خناقة.. كل ما أريده أن أصل إلى رتيـبة.. رتيبة فى حالة خطرة يا حضرة القاضى..

وانحنيت على رأس الكمسارى أقبلهـا.. حقك على يا حضرة.. أنا آسف.. اعذرنا.. أصل مراتى تعبانة فى المستشفى..

وشوح الكمسارى بيده قائلاً :

- قالوا لك علينا عربة إسعاف..

ثم ابتعد عنى..

وكتمت غيظى.. بل كتمت دموعى..

ثم جاء سلطان زمانه بعد أن انتـهى من شرب كوب الشاى.. جاء هتلر.. جـاء أبو شنب فضـة.. جـاء حضـرة السائق المغـوار.. وأزاح الركاب من طريقـه.. ثم جلس على مقـعده ، وأخذ يصـدر الأوامر... ابعد شوية عن الفتيس يا حضـرة. تعال كده يا أخينا ما تطبقش على نفسى..

وأنا صابر.. معلق على السلم من قدم واحدة.

وأخيـراً تحرك الأتوبيس.. بـعد عشـر دقائق.. لم يبق مـن الموعد الذى حددته سوى عشرين دقيقة..

وما كاد السائق يدور فى ميدان العتبة نصف دورة ، حتى وقف.. وقف أمام دكان بائع الســجائر.. وأزاح الركاب الذين يقفـون بجانبه بذراعه.. ثم مد عنقه وصاح :

– ادينى خمسة بلمونت يا عليش..

وأنا صابر..

إلى رتيبة.. رتيبة فى حالة خطرة يا حضرة القاضى..

ثم قلت للسائق بعد أن تناول السجائر :

– وحياتك دوس شوية يا أسطى..

وكأنى كفرت..

صرخ فى وجهى :

– يعنى عايزنى أدوس الناس ولا إيه.. ما هو إحنا اللى بنروح فى داهية.. مش أنتم..

وقلت فى هدوء يغطى نارى :

– ما احنا برضــه سواقـين يا أسطى.. أنا أسطى فهـمى.. سواق لورى..

قال :

– والله أنا مش شايل بضاعة.. أنا شايل أرواح ناس..

كل هذا وهو لم يتحرك..

وسكت حتى يتحرك..

وتحرك..

ورأى أمامـه سيارة أتوبيس أخـرى.. فجـرى يسابقهـا.. ولمحه السائق الآخر.. فقبل التحدى.. وسابقه..

وفرحت أنا بهذا السباق ، رغم أن قـوة الاندفاع كانت تعصف بى

وتكاد تشدنى إلى الأرض ، وأنا معلق على السلم بقدم واحدة..

ولحق سائقنا بالسائق الآخر.. والسيارتان تسدان الشارع.. ثم فجأة وقف.. ووقف السائق الآخر.. ومد سائقنا رأسه من بين زحام الركاب.. وصرخ :

- صباح الخير يا محمود.. ما تنساش النهاردة عند المعلم خميس.. وقوللى ، حاتفوت على حسنين ولا أفوت عليه أنا.. أصل إنت عارف.. لو ما حدش فات عليه.. مش حانشوفه.. و.. و..

إلى آخره يا سيادة القاضى..

وأنا واقف معلق بقدم واحدة..

ورتيبة فى حالة خطرة..

قد تموت..

يا خرابى لو ماتت.. ماذا أفعل.. أروح لمين.. وأولادى.. وحياتى.. وتحرك الأتوبيس.. وكانت قد فاتت خمس عشرة دقيقة، ونحن لا زلنا فى أول شارع ٢٦ يوليو.. لم يبق من الحسبة التى حسبتها سوى خمس دقائق.. وأنا أفكر فى موت رتيبة.. يخيل إلىّ أنى كنت أفكر فى موتها ، حتى أشغل نفسى عن هذا السائق.. حتى لا أثور وأرتكب جريمة.. حتى لا أطق من الغيظ.. وأموت أنا قبل أن تموت رتيبة..

ووصلنا إلى بولاق..

والنصف ساعة التى خدتها انتهت.. وانتهت معها عشر دقائق أخرى..

وفجأة وقف السائق مرة أخرى..

لم يكن أحد من الركاب يريد أن ينزل.. ولا أحد يريد أن يركب.. أبداً.. السائق الهمام وقف أمام محل فول..

وقام من على مقعده ، وأزاح الركاب المستسلمين المساكين من أمامه ، ونزل من الأتوبيس وذهب إلى محل الفول يشترى سندويتشاً..

ونظرت خلفه..

وفكرت فى قتله..

لو كان مجرد التفكير فى قتل إنسان يعتبر جريمة ، فحاكمونى على الشروع فى القتل.. فقد فكرت فعلاً فى قتله..

ورتيبة تموت..

ورغم ذلك لم أقتل السائق..

فقط أزحت الركاب من أمامى ، وجلست على مقعد القيادة ، وقدت الأتوبيس.. وتركت السائق أمام محل الفول..

وصفق الركاب..

لقد شهد الشهود بأن الركاب صفقوا لى..

ولا أدرى من أين عرفوا اسمى.. فقد هتفوا.. ينصر دينك يا أسطى فهمى.. عفارم عليك يا أسطى فهمى..

وحاول الكمسارى أن يصل إلىّ وأنا أقود الأتوبيس.. ولكن الركاب حالوا بينه وبينى ، فقفز إلى الشارع ليبلغ البوليس.. والركاب يضحكون... ويهللون.. ويهتفون باسمى..

ولم أقف فى أى محطة.. لأن الأتوبيس كان مزدحماً على آخره ، ولم يكن يتسع لأى راكب جديد.. لو كان فيه مكان ، لوقفت فى كل محطة... بل إنى وقفت فعلاً فى نهاية الزمالك عندما أراد أحد الركاب النزول.. لقد كنت أعرف مهمتى بالضبط.. لم أكن أشعر بأنى سرقت الأتوبيس.. بل كنت أشعر بأنى أقوم بمهمة كلفتنى بها الدولة.. كلفنى بها المجتمع.. إن المجتمع قد كلف هذا السائق الذى يأكل ساندويتش الفول بأن يوصل الركاب فى مدة محددة.. بأمانة.. فإذا عجز أن يقوم بهذه الأمانة.. فإن أى مواطن قادر على القيام بها ، يجب أن يتولاها.. تماماً كما يحدث فى الحرب.. إذا عجز جندى عن القيام بواجبه فيجب أن يحل محله جندى آخر.. حتى دون أن يتلقى

أمراً بذلك.. أليس هذا منطقاً أقرب إلى العقل من منطق تهمة السرقة التى توجهها إلىّ النيابة..

لقد كنت مقتنعاً بهذا المنطق..

أقسم لك يا حضرة القاضى أنى نسيت فى هذه اللحظات زوجتى رتيبة.. كل ما كنت أشعر به هو أنى أقوم بواجبى كمواطن صالح أمين على مصالح مواطنيه ، ويقوم بخدمتهم..

وفى خمس دقائق فقط وصلت إلى مستشفى العجوزة.. قطعت أكثر من ضعف المسافة التى قطعها السائق الآخر ، فى أقل من واحد على عشرة من الزمن الذى قضاه أمام عجلة القيادة.. ودون أن أرتكب أى مخالفة مرور..

وأمام مستشفى العجوزة تغير الحال..

أوقفت الأتوبيس ، والتفت إلى الركاب ، وصحت :

– اللى يعرف منكم يسوق ييجى يكمل..

وكان هذا هو منطقى يا سيادة القاضى.. أن يتولى واحد من الركاب قيادة الأتوبيس إلى أن يصل به إلى المحطة التى يريدها ، ثم يتولى راكب آخر القيادة..

ولكن كان فى هذا المنطق غلطة غير مقصودة.. سهوة.. فلأنى سائق سيارة لورى اعتقدت أن كل الركاب مثلى ، يستطيعون قيادة الأتوبيس..

وتبين أن ليس بينهم سائق غيرى..

وصرخوا فى وجهى..

الركاب الذين هتفوا لى منذ لحظات.. صرخوا فى وجهى.. بدأوا يلعنوننى.. ثم أمسكوا بى قبل أن أصل إلى باب المستشفى.. وبدأ صياحهم يشتد.. صوت يصيح.. وصلنا لغاية محطة الكوبرى.. وصوت آخر يصيح.. لأ.. أنا رايح الجيزة.. وثالث يصرخ.. إنت فاهم

إن الأتوبيس كـان بتاع أبوك.. وأنا أصـيح... يا اخواني.. رتيـبة في حالة خطرة.. رتيبة حاتموت... اعملوا معروف سيبوني..

ولكنهم لا يتـركونني.. وأعصـابي تثور.. وزغدنـي واحد منهم.. فاضطررت أن أصـفعه.. فانهـالوا عليّ ضرباً.. ضربوني يا حـضرة القاضي.. ضربوني.. لقـد كانوا يهتفون لي منذ خـمس دقائق فقط.. ولكنهم يـضـربونني.. وبكيت.. بكيت مـن الغـيظ ، لا من الضـرب.. وجاء العسكري وسحبني إلى القسم..

ورتيبة ماتت..

ماتت يا حضرة القاضي..

ماتت دون أن أراها.. دون أن أتزود منهـا بنظرة أخيرة.. بهمـسة تعيش في قلبي بقية حياتي..

بل ماتت دون أن أشيع جنازتها.. فلا زلت من يومها في السجن.. الله يخليه الأسطى عوض.. هو الذي تكفل بالدفنة..

هذا هو ما حدث يا حضرة القاضي..

بأمانة..

فهل أنا لص.. هل أنا مجرم.. بالله عـليك يا حضرة القاضـي ، إني أحتكم إلـى ضميـرك وإلى عقلك قـبل أن أحتكم إلى القـانون...ولقد مرت عليّ لحظات اعتـقدت فيها أن الحكومة ستـمنحني وساماً لأني قمـت بواجب المواطن الصالح في خـدمة المجـتمع.. ولكنني الـيوم لا أريد وساماً.. أريد فقط حكماً بالبراءة.. وأرجوك يا حضرة القاضي.. أرجـوك.. أتوسل إلـيك.. قـبل أن تحكم علـيّ ، حـاول أن تركب الأتوبيس..

لاعب الكرة .. يحب

أنا برعى محمد السيد..

لا تقولوا إنكم نسيتمونى..

برعى.. كـــابتن النادى الأهــلى عـــام ٥٣..
وجناح أيمن منتخب مـصـر.. لا يمكن أن تكونوا قد نسيتموه!

أين أنا الآن ؟..

أنا مـوظف فى الدرجـة الخامـسـة بوزارة الأشغـال.. تزوجت.. وعندى ولدان وبنت..

ولكن..

هل أنا موظف ؟..

أبداً..

إنى لا زلت أعيش فى الملعب.. عقلى وروحى وأعـصابى كلها فى الملعب.. ولو أنــى لا أذهب إلى الملاعب... فـقط أتتـبـع المبـاريات فى الإذاعـة، ثم أصبـحت أتتبـعهـا على شـاشة التليـفزيون.. وعـيناى مفتوحتان على آخرهمـا.. وأصرخ.. شوط يا مغفل.. اصح يا ريعو.. وقدمى تتحرك فى الهواء كأنى أشوط الكرة..

وأنفـاسى تلهث كـأنى أجـرى.. ومن حـولى أولادى يضـحكون علىّ.. وزوجتى تـبتسم لى فى إشـفاق.. وأسمع هـتاف الجمـاهير، فيخيل إلىّ أنهم يهتفون لى.. شوط يا برعى.. العب يا برعى.. ينصر دينك يا برعى.. برافو يا برعى.. لقد هتفت لى الجمـاهير كثيراً.. كنت أتغـذى بهتـافـها.. لم أكن أجـرى فى الملعب بأنـفاسى كنت أجـرى بأنفـاس هذه الألوف المتراصـة فوق المدرجـات.. وكنت أجرى نحـو هدف.. لم يكن الهـدف الأخـير هو أن أصـيب الجـول.. كان الهـدف الأخير هو أن أسمع هذه الصرخة القوية الحلوة التى تنطلق من أفواه الجمـاهير.. جـون.. جون.. وكـان من عادتى وأنا أجـرى أن أحادث

نفسى حاسب الفرود داخل عليك يا برعى.. انقل الكورة يا برعى.. اوعى الباك يا برعى.. خلى بالك يا برعى، الواد ده ناوى يكسرك. نط من فوق رجله يا برعى.. خلاص يا برعى.. قربت.. هانت.. عديت خط الباكات.. فاضل كمان خطوتين.. أيوه كده يا برعى.. وصلت خط البلنتى.. والكورة ملتصقة بقدمى، كأنها ملتصقة بقطعة مغناطيس.. وأشوط.. فى التمانيات.. وأسمع الصرخة القوية الحلوة.. جون جون.. كأن السماء تزغرد لى.. وقد زغردت لى السماء عشرات المرات.. لقد أصبت جول الزمالك ٣٢ مرة.. وأصبت جول الترسانة ١٧ مرة.. وأصبت جول الأولمبى ٤٣ مرة.. و.. و.. كانت كل طلعة من طلعاتى جول.. إذا التصقت الكرة بقدمى، فلا أمل.. قل يا رحمن يا رحيم.. وأخرج محمولاً على الأعناق.. لم تكن الدرجة الثالثة وحدها هى التى تجرى إلى داخل الملعب لتحملنى على أعناقها.. الدرجة الأولى أيضاً.. فكرى أباظة اندفع نحوى مرة ليقبلنى عقب مباراة الأهلى والزمالك.. ولم يستطع أن يصل إلىّ.. هصرته الجماهير.. وسقطت نظارته من فوق عينيه، وتحطمت تحت أقدام الناس.. أتذكرون الأسلاك الشائكة التى وضعت حول ملعب النادى الأهلى، لقد وضعت خصيصاً لتحمينى من الجمهور..

كانت أيام..

كنا نلعب كرة..

أما اليوم.. فاللاعبون يجرون، ولكنهم لايلعبون.. وإذا كانوا يلعبون، فهم يلعبون استغماية.. ضيعوا النادى الأهلى.. ضاع الدورى وضاع الكاس.. الله يكسفهم !..

وقلبى ينشق.. إنى أرى الأهلى يتمرمط أمام عينى، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً.. وأرى الجون فاضى.. يكفى أن تزيح الكرة بقدمك لتسجل هدفاً.. ولكن المغفل الذى يلعب للأهلى لا يستطيع أن يزيح

الكرة.. وأنا أمام شاشة التليفزيون لا أستطيع أن أفعل شيئاً.. فقط أصرخ.. وأشوح بذراعى.. وأشد شعرى.. فقد اعتزلت.. اعتزلت الكرة منذ عشر سنوات..

لم يبق لى سوى الذكريات.. ذكريات حلوة غالية..

ولا زلت أذكر آخر مباراة لعبتها.. كانت ضد الترسانة..

لقد نزلت الملعب.. وملأت أذنى بهتاف الجماهير.. ثم اتخذت مكانى.. سنتر فرود.. وشريفة جالسة فى مدرجات الدرجة الأولى مع أبيها.. إنى لا أراها.. ولم أرها.. والكرة بين قدمى.. ونفخ الحكم فى صفارته.. ومررت الكرة إلى زميلى.. لا بد أن شريفة جالسة فى المدرج كعادتها.. إنها لا تستطيع أن تغيب عن أى مباراة.. لقد كانت مريضة يوماً.. حرارتها تسعة وثلاثين.. ورغم ذلك جاءت لتشاهد المباراة.. وأعاد زميلى الكرة إلىّ.. وجريت بها.. انحرفت بها ناحية اليسار لأتفادى السنتر هاف الذى يهجم علىّ.. ولكن ماذا يهمنى من شريفة.. لقد انتهى كل شىء.. يجب أن ينتهى كل شىء.. وباصيت الكرة إلى الوينج لفت.. باصة طويلة.. ولكن قطعها الاينسيد لفت.. إنى لم أره قبل أن أشوط الباصة.. كيف سمحت شريفة لنفسها أن تلقى سماعة التليفون فى وجهى هذا الصباح.. كان كل ما أريده منها هو أن أقول لها إنى لا زلت أحبها.. ولكنها أقفلت السكة فى وجهى.. طظ.. ولا يهمنى.. الكرة الآن مع الترسانة.. مررها الأينسيد لفت إلى السنتر هاف.. السنتر هاف يجرى بها.. الحق يا برعى.. وجريت.. إن شريفة مغرورة.. ماذا تظن فى نفسها.. ابنة الامبراطور غليوم.. وإيه يعنى إذا كان أبوها مستشاراً.. وإذا كانت تملك سيارة حمراء تقودها بنفسها.. وتزغلل بها عيون الناس.. إن عيون الناس تنحنى على قدمى.. الحمد لله.. الباك قطع الكرة من بين قدمى السنتر هاف وشاطها إلىّ.. وقعت بين قدمى.. ولففت بها.. وجريت بها وهى

ملتصــقة بقدمــى.. الكرة لا يمكن أن تخوننى .. إنهـا دائما ملتصــقة بقدمى .. شــريفة هى التى خــانتنى.. لقد رأيــتها بعــينى رأسى منذ أسبــوعين.. كانت واقــفة بسيــارتها فى شــارع الجبلاية، قــريباً من عوامة الكحلاوى.. نفس المكان الذى تعودت أن تقف فــيه وأنا معها.. وكان مــعها هذه المرة مــحسن.. هذا الشاب المخنث الذى يتـمرقع كل يوم فى النادى.. والكرة تجرى معى.. كأنها كلب مخلص.. والجمهور يهلل.. حــاســب يا برعى.. شــوط يا برعى.. وشطت لــلوينج رايت.. دب... ولكن الشــوطة طاشت.. ذهبت إلى باك التــرسانة.. يا نهـارك أســود يا برعى.. يظهــر إن الهوا يعــاكسنى.. وسمــعت الجـمهـور يصيح.. يى.. ى.. يى.. يى.. ولكنى لم أقل «يى» لشريفة عندما رأيتها مع مــحسن.. لقد أمــسكتــه من عنقــه وجــذبتــه خارج الســيــارة.. وضربتــه.. لا أدرى أين ضربته. ولكنى عندما رفــعت رأسى لم أجد شريفــة ولا سيــارتها.. ووجــدت يدى ملوثة بدم محــسن.. هل كنت أستطيع أن أتــركه دون أن أضربه.. أبداً.. لا أســتطيع أن أترك الكرة بين قدمى باك الترسانة.. عــيب عليك يا برعى.. وجريت وراءه وقبل أن أصل إليــه كان قــد قذف بهــا إلى السنتــر فرود.. وجــريت وراء السنتــر فرود.. جالك الموت يا سنــتر يا فرود.. ولكنــى قبل أن أصل إليه كان قد مررها إلى الوينج.. يــا نهار أسود يا برعى.. يا خبر زى بعضــه.. جون.. جون فى الأهلى.. فــينا.. ولا يهمك. تتعــوض.. وقد حاولت أن أقنع نفسى بألا يهــمنى ما فعلته شريفة.. إنهــا صغيرة.. وطائشة.. فاتصلت بها فى التليفون.. وكنت أريد أن أفــهمها غلطتها.. ولكنهــا مــا كادت تســمع صــوتى، حــتى صرخت.. من فــضلك مــا تتكلمش هــنا تانى.. ثم رمت الســمــاعــة فى وجــهى.. وقــحــة.. إن الجمــهور وقح.. صــوت حاد يــرتفع من بينه ويصرخ.. مــا تلعب يا نيلة.. هل يقصدنى، أنا.. لا أظن..

وأنا واقف فى السنتر، والكرة بين قدمى.. والأينسيد يقول لى.. خد بالك يا برعى.. ورددت عليه فى حدة.. العب كويس.. والعب بسرعة... الطلعة دى فيها جون..

وانطلقت صفارة الحكم.. ومررت الكرة إلى الأينسيد.. رايت.. ثم جريت إلى الأمام.. وأعاد الأينسيد الكرة إلىّ، ودرت بها بسرعة.. وشطتها إلى الوينج رايت.. ثم جريت إلى الأمام إلى خط الباكات.. ووقفت أتتبع الكرة بعينين جاحظتين.. إنى لم أحاول أبداً أن أتتبع شريفة... كنت أعتقد أن بنات العائلات الكبيرة، لسن كبنات شبرا.. لا يكلفن الرجل تتبعهن ومراقبتهن.. كنت أراها دائماً كالملاك.. طاهرة.. بريئة.. أرق من الياسمين.. بل لم أكن أصدق أنى سألمسها يوماً.. كنت أراها فى النادى من بعيد.. وكنت أعتقد أنها ستظل دائماً بعيدة.. ولكن الكرة تقترب منى.. لقد نقلها الوينح إلى الأينسيد.. الأينسيد يغازل.. إنى لم أغازل أبداً شريفة.. كنت أتصور أن هذا الصنف من البنات لا يغازل.. الكلمة الجريئة تجرح أذنه.. والله الاينسيد واد جرىء.. لقد زاغ بالكرة.. وشاطها.. شوطة حلوة.. وجاءت الكرة تتهادى إلى قدمى كالعروس.. يا حلاوتك.. والتقطتها ببوز حذائى.. كتمتها.. ثم لم أكد أرفع قدمى لأشوطها، حتى دوت صفارة الحكم..

إيه اللى حصل..

أوفسيد..

تسلل..

يخرب بيتك.. أنا لا أحب التسلل.. إن تهمة التسلل تشعرنى بأنى حرامى.. ولم تعرف الملاعب عنى أنى حرامى.. متسلل.. أبداً.. شريفة هى التى تسللت إلىّ.. لقد جاءت إلىّ عقب إحدى مباريات العام الماضى.. كنا فى المساء.. وكنت قد غيرت ملابسى وجلست أشرب كوب الشاى الذى تعودت أن أشربه بعد اللعب.. وقالت لى :

- كنت هايل يا برعى..

وانتفضت أمامها واقفاً، وأنا لا أصدق أنها هى التى تحادثنى.. وقلت..

- ربنا يخليكى يا أفندم..

وابتسمت لى ابتسامة لم أر فى حياتى أجمل منها.. ابتسامة دقَّ لها قلبى.. جرى إيه يا برعى قلبك بيدق ليه.. إحنا لسه فى الأول.. شد حيلك أمال.. وجريت.. الكرة مع الترسانة.. شاطها السنتر هاف إلى الوينج لفت.. وشاطها الوينج إلى السنتر فرود.. وهجمت على السنتر فرود.. وأخذتها منه.. ثم فرملت الكرة.. وتلفت لحظة.. وهتاف الجماهير.. أيوه يا برعى.. العب بأه أمال.. وطلعت بالكرة.. ثم شطتها إلى الهاف باك شمال.. وصلت إليه.. تحت أقدامه.. وبدأ يغازل بها الباك.. وجريت لآخذ مكاناً جديداً.. إنى لا أتعب أبداً من الجرى.. إنى أستطيع أن ألف الملعب ثلاثين مرة.. وكان من عادتى أن أحضر التمرين فى الصباح وألعب بعد الظهر.. ولا أتعب.. وشريفة أيضاً كانت تحضر التمرين.. كل تمرين.. كانت لا تتعب من مشاهدتى وأنا ألعب.. حتى وأنا ألعب بالحذاء الكاوتش.. ثم كانت تنتظرنى إلى أن أغير ملابسى، ونتناول معاً كوب الشاى.. ثم دعتنى مرة لتوصلنى إلى البيت بسيارتها.. وخجلت أن أقول لها إنى أسكن فى روض الفرج.. واكتفيت من يومها أن توصلنى إلى ميدان التحرير لأركب الترام نمرة ٧.. وقد وصلت إلىّ الكرة.. كرة عالية.. شاطها الهاف باك.. وتلقيتها على صدرى.. ولكنها كانت قوية اصطدمت بصدرى وارتدت إلى أقدام باك الترسانة.. إن شريفة كانت دائماً قوية.. كانت دائماً تنفذ رأيها.. وجريت إلى الباك.. كأنى أهم بأن أفترسه.. والجمهور يصيح.. يى.. يى.. يى.. ووصلت إلى الباك، وأخذت منه الكرة.. ورفعتها بقدمى.. بكل قواى..

و.. وانطلقت صفارة الحكم..

خير...

حصل إيه ؟..

فاول..

بأه ده اسمه كلام.. ما تسيبنا نلعب يا عم.. ما تسيبنا فى حالنا.. ولكن شريفة لم تتركنى فى حالى أبداً.. كانت تحاصرنى طول النهار، وطول الليل.. وكانت تحتم علىّ أن أصل إلى النادى فى الساعة الثامنة صباحاً، لأنتظر حتى تدق جرس التليفون.. لا.. ليس جرس التليفون.. إنها صفارة الحكم..

إيه تانى ؟..

هاف تايم..وخرجت إلى حجرة اللبس، والجمهور كله صامت صمتاً حزيناً.. وأنا أيضاً حزين.. لا أدرى لماذا.. والتف حولى الإداريون.. إنى أكره هؤلاء الإداريين.. إنى أحس بهم يركبون اللاعبين كما يركب الجوكية ظهور الخيل.. وجرى لك إيه يا برعى ؟.. إنت عمرك ما كنت كده.. ما تلعب يا أخى.. أنت ما بتشوفش الكرة ولا إيه.. و.. و.. وأنا أريد أن أستريح.. إنى أعلم ما بى.. إنى أفكر فى شريفة وأنا ألعب.. يجب أن أطردها من رأسى... سأضغط على أعصابى كلها حتى لا أفكر فيها.. فقط أريد أن أستريح.. ولكن شريفة لم تتركنى أبداً أستريح... كانت تنتظرنى عقب التمرين.. وتأخذنى فى سيارتها.. وتركن أمام عوامة الكحلاوى وتحكى لى قصتها.. لقد كنت أشفق عليها.. كانت وحيدة.. تعيسة.. زوجوها رجلاً لا تحبه.. وطلقت منه بعد أربعة أشهر.. مسكينة... لقد بكت يومها على صدرى.. لم أصدق أنها وضعت رأسها على صدرى.. وشعرها يهف على وجهى.. ورائحتها العطرة تملأ أنفى.. لقد قبلتها يومها.. ولا أدرى كيف تجرأت.. ولكنى قبلتها.. وقلت لها لأول مرة.. شوشو..

ملعون أبو شوشو..

يجب أن ألعب..

يجب أن أضع جول التعادل حالاً..

ووقفت في وسط الملعب متمالكاً كل عقلي.. كل انتباهي. أحاول أن أكون إنساناً آخر.. وقد جعلتني شوشو إنساناً آخر.. اشترت لي كرافتات، وبدلاً.. وأخذتني إلى مطعم التورنج في الهرم.. وهي تأكلني بعينيها.. سآكل الكرة أكلاً.. سآكل كل لاعبي الترسانة.. ومررت الكرة إليّ الأينسيد، وجريت لأتخذ مكاناً استراتيجياً.. ولكن الأينسيد لم يرد الكرة إلى، مررها إلى الونج.. والوينج مررها إلى الأينسيد باك.. خد، وهات.. ون، تو.. بلغة الكرة.. باصيلي يا حسنين.. هات الكرة يا جدع.. إنهم يغيرون طريقة لعبهم دون أن يتفقوا معي.. كأني لست الكابتن.. إن شوشو لم تغير طريقتها معي إلا بعد عام.. عام كالعسل.. كانت تأخذني إلى بيت في شارع قصر النيل.. إلى الجنة.. وتعطيني.. تعطيني أكثر.. وأكثر.. ولا أحد يريد أن يعطيني الكرة.. الكرة في رجل هاف باك الترسانة.. واللي خالقك ما أنت متهني بيها.. وجريت.. أكلته.. وأخذت الكرة.. وجريت بها.. والجماهير تهتف.. وأذناي مملوءتان بالهتاف.. أذناي ساخنتان.. لقد كانت شوشو تضحك كلما أحست بأذني ساخنتين.. وتنفخ فيهما بأنفاسها حتى يزدادا سخونة.. كلي سخونة.. أحس باللهب وأنا أجري والكرة بين قدمي.. وشطت.. ولكن.. صفارة الحكم..

آوت..

والجمهور يصيح.. يي.. يي.. يي..

إن الجمهور يتغير بسرعة.. وشوشو تغيرت بعد سنة.. أصبحت تلطعني في النادي بالساعات.. ثم بالأيام.. ولكن لن يلطعني أحد.. لا أستطيع أن أقف هكذا كاللوح في وسط الملعب.. وهجمت على الهاف

باك.. هاف باك الأهلـى.. هجـمت على زمـيلى.. وأخـــذت منه الكرة بالقوة.. وجريت بها.. شد حيلك يا برعى.. حاسب من السنتر هاف.. خـد الباك قطـة.. هانت يا برعى.. تعـديت خط البـاكات.. نفـدت من البـاك.. أنت أسـرع منهم جـمـيعـاً يا برعى.. وصـلت خط البلنت .. الجون فاضى يا برعى .. شوط .. كمان خطوة يا برعى غازل الجون يا برعى.. والجمهور يهتف.. يجن هتافاً.. وشطت.. الجمهور يصرخ.. حصل إيه.. آوت. وأنا لا زلت مندفـعاً، واصطدمت بخشبـة الجون.. وصرخت بأعلى صوتى شوشو.. شوشو.. شوشو..

وسقطت على الأرض..

ولا أدرى ما حصل لى بعد ذلك..

وجدت نفسى فى بيتى..

وقـالوا عنى إنى أصـبت بانهيـار عـصبى.. والبـعض قـالوا إنى مجنون.. وأمى بجانبى..

إن أمى كانت تعلم حكايتى مع شوشـو، وكانت دائماً تقول لى.. يا بنى دول ناس لا من صنفنا ولا من دمنا..

واعتزلت الكرة..

وزوجتنى أمى، فتاة من صنفنا..

إمبراطورية «ميم» !

أنا رجل ناجح..

بدأت حياتي موظفاً صغيراً بعد أن نلت بكالوريوس التجارة.. وسرت بخطوات ثابتة منتظمة، إلى أن وصلت إلى منصب مدير عام إحدى المؤسسات (لا داعي لذكر اسم المؤسسة حتى لا تكون القصة واقعية أكثر من اللازم).. ووصل مرتبي إلى ٢٤٠٠ جنيه في العام، وأقوم ببعض الاستثمارات الخارجية التي تدر عليّ دخلاً يصل إلى ألف جنيه في العام، وأحياناً إلى ألف وخمسمائة.. وأنا أذكر هذه الأرقام بصراحة لأني لم أحاول يوماً أن أخفي شيئاً عن مصلحة الضرائب..

وأنا أيضاً رجل طيب.. طيب بلا افتعال.. ربما لأن الرجل الناجح أقل حاجة إلى الشر.. وإلى إطلاق حقده، من الرجل الفاشل.. وقد نجحت بطيبتي.. الطريق الطويل الذي سرت فيه كان دائماً طريقاً نظيفاً.. لا أذكر يوماً اضطررت فيه إلى إيذاء أحد.. أو الاشتراك في دسيسة.. أو اضطررت إلى نفاق رئيسي، أو مداهنة مرءوس.. أبداً.. نجحت بعملي فقط.. والناس تقول عني إني حمار شغل.. ولكني لست حماراً.. إني أهوى العمل.. إني أعمل كأني أستمع إلى أم كلثوم، أو أرسم لوحة فنية.. وليس لي هواية أخرى.. لا أسكر.. ولا ألعب طاولة.. ولا أمارس الرياضة.. ولا.. ولا.. فقط أعمل..

وليس معنى هذا أني رجل « مقفول »..

بالعكس..

إني متحرر في كل اتجاهاتي، وفي كل تصرفاتي وفي كل آرائي..

وأبدو أكثر تحرراً في حياتي العائلية..

وأعتقد أني يجب أن أتحدث بتفصيل أكثر عن عائلتي.. فالقصة ليست قصتي وحدي.. إنها قصتي مع عائلتي..

لقد تزوجت منذ خمسة وعشرين عاماً.. وكنت موفقاً في اختيار

زوجتى.. إنها تمثل الخطوة الأولى والأساسية فى طريق النجاح الذى سرت فيه.. زوجة مثالية.. ذكية.. مدبرة.. مطيعة.. تحبنى.. وتؤمن بى.. لا أذكر طوال الخمسة والعشرين عاماً، أنها أثارت مشكلة، أو أخذت من عقلى ما يشغلنى عن عملى.. ولا أذكر أنى رفضت لها يوماً طلباً، أو حاسبتها على شىء.. لا مجاملة لها، ولكنى لأنى دائماً مقتنع بكل ما تطلبه وكل ما تفعله..

وقد أنجبنا ستة أولاد.. كلهم أولاد.. مصطفى، ومجدى، ومدحت، وماهر، ومحمود، ومنير.. وأنا اسمى محمد مرسى.. كل أسمائنا تبدأ بحرف الميم.. من أول أبى حتى آخر أولادى.. إنى أتفاءل بحرف الميم.. ولكن.. بجانب التفاؤل كان هناك إحساس آخر يضطرم فى داخلى.. إحساس يملؤنى زهواً وغروراً.. كنت أحس كأنى أقيم إمبراطورية شعارها حرف الميم.. وكنت أفرح كلما زاد عدد أفراد إمبراطوريتى.. ورغم أنى كنت أحس أحياناً بحاجتى إلى إنجاب بنت، إلا أن اعتزازى بإمبراطوريتى كان يغلبنى، فأتمنى أن أنجب ولداً.. وأسرح فى الخيال، وأتصور أولادى الستة وقد تزوج كل منهم، وأنجب بدوره ستة أولاد، أطلق على كل منهم حرف الميم.. ويتزوج الأحفاد، ويرفعون الشعار.. شعار الميم.. و.. و.. إلى أن تصبح مصر كلها.. ميم.

أحلام كانت تراودنى كلما رفعت رأسى عن عملى.. أحلام ساذجة.. ولكنها جميلة..

وأكبر أولادى.. مصطفى.. فى الثانية والعشرين من عمره الآن، طالب متفوق فى كلية الهندسة..

ولكنه ليس ألمع أولادى..

المهم هو ابنى الثانى.. مجدى.. رغم أنه طالب فى كلية الآداب، قسم الفلسفة..

إنه دائماً الشخصية التى تثير الانتباه فى البيت.. وأكثر الأولاد

كلامــاً.. وأشدهم تأثيـراً على إخوتـه.. حتى أخوه الأكـبر يتـأثر به، وينقاد له.. وهو صــاحب مشــاريع عائلية كـثيرة.. أدخـل فى البيت نظام المكتبة الجماعيــة، بعد أن أصدرت أمراً ألا يمس أحد من الأولاد مكتــبــتى، لا بخــلاً منى، ولكن لأنهــا مكتــبة فنيــة.. كلهــا كـتب فى الاقتصاد والإحصاء، لا يفهم منهــا الأولاد شيئاً.. وقد نجح مشروع المكتــبة الجــمــاعيــة.. دفع كل واحـد من الأولاد عـشرة قـروش من مصروفــهم، وأقنعوا أمهم بأن تشــترك معهم بجنيــه.. وأنشأوا نواة المكتبة.. وكـانت المناقشة التى دارت بين مجدى وأمه، ليـقنعها بدفع الجنيه مناقـشة عجـيبة.. فقـد حاول أن يقنعهــا بأنها يجب أن تدفع جنيــهاً - لا عــشرة قــروش - لأنهــا لا تقرأ الكتب.. ولا تحــاول أن تقرأها.. والذى يقرأ يبــذل مجهوداً أكبــر من الذى لا يقرأ، ويجب أن تدفع تعويضــاً أو غرامة، عن هذا المجهود الذى لا تبـذله.. وقطعاً لم تقتنع أمه بهذا المنطق، ولكنها دفــعت الجنيه مرضاة له... أما أنا، فلم يعــرض علىّ مــجدى الاشــتــراك فى المشــروع، ربما لأنه لا يريد أن أتدخل بسلطانى كأب، فى إدارته..

ولم يكن مجدى لامعاً فقط فى هذه الناحـية.. كان لامعاً أيضاً فى علاقته مع البنات.. معظم التليفونات التى تدق فى البيت، ينطلق منها أصــوات بنات يطلبن مــجدى.. وكــان هو الوحــيد بين أولادى الذى أجهل الكثيــر عن حياته الخاصة.. فهو - رغم أنــه كثير الكلام - إلا أنه لا يتكلم أبداً عن حياته الخاصة.. لا يتحدث عن أصدقائه، ولا عن البنات، ولا حتى عن حياته الجامعية.

ولا أريد أن أقــول إن مجـدى هو أقــرب أولادى إلى قلبى.. فــأنا حــريص دائمــاً على أن أضع أولادى كلهم فى مــسـتـوى واحـد من قلبى... وحــريص على أن أعاملهم كلهم مــعاملة واحــدة.. وربما كان فى مــعاملــتى لهم بعض الضــعف.. لا.. ليس ضـعـفــاً.. إنه نوع من التوفـيق بين العقل والــعاطفة.. وأنا لا أســتطيع أن أتصرف بعــقلى

تصرفاً لا تحتمله عواطفى.. وربما كان هناك من يؤمن أن من واجب الأب أن يصل فى تهذيب أولاده إلى حد الضرب.. ولكنى لا أطيق أن أضرب واحداً من أولادى، مهما أخطأ.. غاية ما وصلت إليه هو أن أخصم من المخطىء بعض مصروفه الخاص، ثم لا ألبث بعد أيام أن أعيد له ما خصمته منه... بل إنى فى حالات كثيرة كنت لا أطيق أن أؤنب واحدا منهم، فأوصى زوجتى بتأنيبه.. وكنت أترك لهم دائماً حرية التصرف فى الحدود التى وضعتها لهم.. وأترك لهم حرية مناقشتى، بكل صراحة.. ودون تقيد بالهيبة التى يشعر بها بعض الأبناء نحو آبائهم.. كل ما كنت أحرص عليه هو الاحترام المتبادل بيننا.. احترام أساسه الحب لا الخوف.. والاقتناع لا الاستسلام..

و..

أظن أنى تحدثت بما فيه الكفاية عن عائلتى.. تحدثت بما يكفى لتصوير الحادث الكبير الذى وقع لنا..

لقد كان البيت هادئاً.. لم يكن هناك ما ينبئ بأى شىء جديد.. وكنت جالساً فى الصالة على المقعد العريض، وقدماى ممدودتان أمامى، وعيناى نصف مغلقتين.. أستريح بعد الغداء... ولمحت مجدى خارجاً وقد ارتدى أزهى حلله.. البنطلون الأسود، والبلوفر المخطط الذى اشتريته له من ألمانيا عندما كنت هناك فى العام الماضى فى بعض أعمال المؤسسة..

وقلت له فى هدوء ودون أى قصد :

– إلى أين ؟

قال :

– سأخرج..

قلت :

– إنى أراك خارجاً بالفعل.. ولكن.. إلى أين ؟

قال :

- أليس لى حق أن أخرج وقتما أشاء ؟..
قلت :
- ولى حق عليك أن تطمئنى إلى أين تخرج..
قال :
- لا.. ليس هذا من حـقك.. إن من حقـك فقط أن تسـألنى.. ومن حقى ألا أجيب..
قلت وقد اتسعت عيناى دهشة لجرأته :
- أنا أبوك..
قال :
- ماذا يعنى هذا ؟
قلت :
- يعنى أننى مسئول عنك.. ومن حقى أن أعرف أين تذهب..
قال :
- معنى هذا أن من حقك أن تمنعنى من الخروج.
قلت :
- نعم..
قال :
- هذه ديكتاتورية..
وعدت أردد فى دهشة :
- ولكنى أبوك..
قال :
- لا فضل لـك فى هذا.. أى إنسان يسـتطيع أن يكون أباً.. ونحن لا نناقـش إذا كنت أبى أم لا.. ولكنـنا نناقش سلـطة إدارة العــائلة، وسلطة إعطاء الأوامر..
قلت وقد بدأت أحتد من الغيظ :
- أنا رب هذه العائلة.. أنا الذى أنفق عليهـا.. أكد وأشقى لأحصل

على المال الذى أنفقه عليها.. و..

وقاطعنى :

– ليس هذا سبباً كافياً لتنفرد بإصدار الأوامر.. لو اتبعنا منطق « كل من يصرف يتولى الإدارة » فمعنى هذا أن من حقى أن أبحث عن أب آخر أغنى منك، يصرف علىّ أكثر، ويتولى إدارة حياتى..

قلت وأعصابى ترتعش :

– إذن.. فمن حقى إذا لم أتول إدارة العائلة، ألاّ أصرف عليها..

قال :

– هذا منطق مغلوط.. إنك لا تنفق علينا بإرادتك.. ولا تستطيع أن تقرر عدم الإنفاق علينا.. القانون، والنظام الاجتماعى يحتم عليك الإنفاق علينا.. وهناك مجتمعات أعفت الآباء من مسئولية الإنفاق على الأولاد، كمجتمع السويد.. ونحن لم نصل إلى ما وصلت إليه السويد.. ولكن الدولة هنا فى مصر تساهم معك فى الإنفاق علينا.. إن مجانية التعليم، وتخفيض الأسعار.. و.. و.. كل ذلك هو مساهمة من الدولة فى الإنفاق على الأولاد..

قلت وأنا أخبط بيدى على مسند المقعد :

– والحب.. إنى لم أشعر بالدولة ولا بالمجتمع، وأنا أشترى لك هذا البلوفر.. كل ما شعرت به هو أنى أحبك..

وأجاب وهو بارد كلوح الثلج :

– هذه عاطفة رأسمالية.. ومنطق الديكتاتورية.. إنك لا تستطيع أن تستعبدنى لأنك تحبنى.. ولا تستطيع أن تتحكم فى حياتى لأنك اشتريت لى بلوفر.. أنا أيضاً أحبك ورغم ذلك لا أطالب بالتحكم فى حياتك..

قلت :

– إنك لا تحبنى.. إنك تنسى أنى أنا الذى أعمل.. أنا الذى أشقى..

قال محتفظاً ببروده :

– كلنا نعمل.. وحاجة المجتمع إلى عملك، لا تقل عن حاجة المجتمع إلى عملي.. أنت تنجح فى المؤسسة، وأنا أنجح فى الجامعة.. والمجتمع عندما يدفع لك مرتبك يكلفك ضمناً بأن تدفع لنا مرتباتنا..

قلت :

– إذن أنتم تستفيدون منى.. وأنا لا أستفيد منكم..

قال دون أن يهتز :

– ليس المفروض أن يستفيد فرد، المهم أن يستفيد المجتمع... ثم إنك تستفيد أيضاً.. فإنك بعد أن تحال إلى المعاش، ستدفع لك الدولة معاشاً.. من أين تدفع لك.. من عملك ؟ لا.. لأنك تكون قد توقفت عن العمل.. ولكنها تدفع لك من عملنا نحن.. الجيل الذى يتولى العمل بعدك.. وقبل أن تحال إلى المعاش.. تستفيد أيضاً.. فائدة معنوية كبيرة.. إننا ندخل السعادة والزهو على قلبك.. إنك تتباهى بنا.. وقد اخترت حرف الميم شعاراً لمباهاتك بنا..

وصرخت :

– ماذا تريد.. قل لى ماذا تريد.. سأجن..

واقترب منى، وجلس على مقعد بجانبى، وقرب وجهه من وجهى، وقال وعلى شفتيه ابتسامته التى تفتح قلبى :

– اسمع يا بابا.. الواقع أن الأسرة هى الخلية الأساسية فى المجتمع... وكل النظم التى تطبق على المجتمع ، تطبق بالتالى فى داخل الأسرة.. والأسرة بحكم تكوينها الطبيعى هى خلية اشتراكية.. فكل ما تملكه أنت، أو تعتقد أنك تملكه، هو فى الواقع ملك للأسرة كلها... ودخلك هو دخل الأسرة كلها، وهو يوزع على أفرادها كل بحسب عمله.. فأخى الأصغر تعطيه الأسرة أقل منى.. لأنى أعمل أكثر منه.. وأخى الأكبر يأخذ أكثر منى لأنه يعمل أكثر منى.. وكذلك بقية إخوتى.. وكذلك أنت وأمى.. ولا أقصد المصروف الشخصى لكل منا، ولكنى أقصد حجم الإنفاق على كل منا.. هذا من ناحية

الاشتراكيـة.. تبقى ناحية الديمقـراطية.. والاشتراكية تتطلب حـتماً ديمقراطية الإدارة.. فمن يتولى الإدارة..

قلت بسرعة وبحدة صارمة :

– أنا..

قال مبتسماً :

– لا..

قلت ساخطاً :

– أظن أنت ؟!

قال :

– ولا أنا.. القاعدة الشعبية.. أى كل أفراد العائلة..

قلت :

– أنت مجنون..

قال كأنه لم يسمعنى :

– بالانتـخاب.. تنتـخب العائلة الشـخص الذى تثق فيـه ليتـولى إدارتها.. ويتجدد انتخابه كل عامين.. ونضع لائحة لسلطات الإدارة.. ولا مانع من أن نكون مجلس إدارة من ثلاثة مثلاً.. و..

قلت صارخاً :

– هذا كلام مجـانين.. الفلسفة لخبطت مـخك.. ابعد عنى.. وقمت ثائراً ودخلت غرفتى.. ودمائى تغلى..

ولكن مجدى لم ييأس.. لقد جمع إخوته وأخذ يلح عليهم بأفكاره حتى أقنعهم.. بل إنه أقنع زوجتى أيضاً، وفـوجئت بها تقول لى قبل أن تنام وهى تلف ذراعها حول كتفى :

– يا أخويا.. طاوع الأولاد.. دعهم يفرحوا بشبابهم..

وانقلب البيت..

كلهم يتحـدثون عن الاشتراكيـة والديمقراطية.. حـتى ابنى منير الذى لم يتجـاوز التاسعة من عـمره.. يسير فى البـيت وهو يهتف..

تحيا الديموقراطية.. لا ديكتاتورية بعد اليوم..

والواقع أن بيني وبين نفسي كنت أشعر بأني عجزت عن الرد على منطق مجدى.. وكنت فى محاولة لإقناع نفسي بأن أقبل أفكار أولادى..

وأخيراً..

قبلت..

وبدأ الاستعداد للانتخابات.. انتخاب الأب.. وضعنا كشفاً بأسماء الناخبين.. واشترطنا ألا يقل سن الناخب عن تسع سنوات، حتى ندخل معنا منير..

وقررنا فى الوقت نفسه أن تشترك فى الانتخابات خادمتنا سنية (١١ سنة) والخادم شكرى (١٨ سنة)...

ثم فتحنا باب الترشيح..

وترددت كثيراً قبل أن أرشح نفسي. (خفت أن أبهدل نفسي بين أولادى.. ولكني خفت أكثر من ألا أرشح نفسي. ثم يسير المشروع سيراً جدياً وأنا بعيد عنه.. بعيد عن أولادى.. وأخيراً استطعت أن أقنع نفسي بأن المسألة كلها لا تعدو مجرد لهو برئ وأن من الأفضل أن أشترك مع الأولاد فى لهوهم..

ورشحت نفسي..

ولم يرشح نفسه أمامى إلا مجدى..

وبدأ مجدى يقوم بدعاية انتخابية ضخمة لنفسه. إنه لا يكف عن التحدث مع إخوته عن مشروعاته العائلية.. وملأ جدران البيت باللافتات الانتخابية.. انتخبوا المكافح الاشتراكى.. انتخبوا المجاهد فى سبيل مطالبكم.. انتخبوا أخاكم الفالح.. و.. و..

أما أنا فقد احتفظت باحترامى لنفسي.. لم أقم بأى دعاية انتخابية.. ولكنى لا أنكر أننى ازددت رقة فى معاملة أولادى.. وكنت أسرع من العادة فى إجابة مطالبهم.. بل إنى ازددت تودداً لزوجتى

خوفاً من أن تعطى صوتها لابنها.. نعم.. كنت خائفاً. خفت من نشاط مجدى الانتخابى.. وخفت على مركزى كأب.. وكنت أنام وأحلم أنى سقطت فى الانتخابات.. وأنى عدت إلى البيت فى أول الشهر وسلمت مرتبى لمجدى ليتولى إدارته.. وأن أولادى أصبحوا يلجأون إلى مجدى بدلاً عنى فى كل ما يريدونه.. وزوجتى... و.. و..

ورغم ذلك سرنا فى التجربة..

وجاء يوم الانتخابات..

وأنا أشد خوفاً..

وكنا قد صنعنا صندوقاً صغيراً لتلقى أصوات الناخبين.. وكونا لجنة للإشراف على الانتخابات، أنا رئيسها (بحكم السن).. واجتمعت العائلة بما فيها سنية وشكرى، وكل فرد يدخل ويكتب اسم مرشحه فى ورقة ويطويها ويلقى بها فى الصندوق..

ثم بدأنا فرز الأصوات..

وقلبى فى قدمى.. وعيناى مخنوقتان..

الورقة الأولى.. محمد مرسى.. أنا..

والثانية. محمد مرسى.. أنا..

والثالثة.. والرابعة.. والخامسة.. والسادسة.. أغلبية الأصوات.. كلها محمد مرسى.. أنا.. لقد فزت.. انتخبت..

ودق قلبى..

فرحت..

لم أفرح فى حياتى قدر هذه الفرحة..

والورقة السابعة.. محمد مرسى.. أنا..

والثامنة.. محمد مرسى.. أنا..

والتاسعة.. محمد مرسى.. أنا..

لم تبق إلا ورقة واحدة..

لا بد أنها ورقة مجدى..

وفتحنا الورقة الأخيرة.. محمد مرسى.. أنا..

واغرورقت عيناى بالدموع.. شكراً يا رب... كل هذا الحب.. وكل هذا الإيمان.. لقد انتخبونى بالإجماع... حتى مجدى..

وتلقيت مجدى بين ذراعى.. أقبله... واجتمع الأولاد كلهم بين ذراعى.. يقبلوننى.. وزوجتى.. تضحك فى مرح... وسنية تطلق زغرودة..

وقلت فى صوت جاد وقلبى يخفق بالسعادة :

– عيب يا أولاد.. ممنوع تقبيل الرئيس.. المهم أن نضع الآن، اللائحة..

ووضعنا اللائحة.. لائحة مؤقتة إلى حين تكوين مجلس الإدارة..

وبعد أسبوع..

أجرينا انتخاب عضوين لمجلس الإدارة..

أتدرون من فاز.. زوجتى.. ومصطفى، ابنى الأكبر..

لم ننتخب مجدى..

خفنا من تطرفه..

ولكنه لا يزال ألمع إخوته..

و....

وزوجتى تطرز حرف «الميم» على كل شىء فى البيت.. على المفارش.. والوسائد.. والبيجامات.. و.... و،...

لقد أصبحت إمبراطويرة «ميم» جمهورية اشتراكية ديمقراطية.

والعمارة كلها تتحدث عن تجربتنا..

الشيخ فى بطن القطة

لم أسمع باسمـه ، ولكنى قرأته.. وكان ذلك عندما سكنت حديثاً فى العـمارة الكبيرة الكائنة عند مدخل شارع المنيـل.. ووقفت أمام صناديق البريد الخاصة ، أقرأ أسـماء جيرانى.. وتوقفت عينى عند اسم «عبـدالبارى محمد - مسـتشار بمجلس الدولة».. وأحسست ساعتها أن صاحب هذا الاسم لابد أن يكون رجـلاً مقلوباً.. يسـير على يديه.. أو يسـير بقفاه.. لو كان الاسم «محمد عـبدالبارى» لكان اسماً لرجل معدول.. ولكن «عـبدالبارى مـحمـد».. اسم عجـيب.. وابتسمت وأنـا أتصور جـارى يسيـر بالمقلوب.. ثم حـمـدت الله أنه مسـتـشار فى مـجلس الدولة.. ويسكن فى الشـقة التى تقع فـوق شقـتى تماماً.. ربمـا كان إنسانـاً ذكياً ومـحدثاً لبـقاً.. ولا ذنب له فى اسـمه.. ومنيت نـفسى بصداقة جديدة ممتعة..

وعشت أيامـاً طويلة أنتظر لقاء الصدفة الذى يجـمع عادة سكان العـمارة بعـضـهم ببعض.. فى المـصعـد.. على السلم.. على مـحطة الأتوبيس.. وقد التقـيت بالكثيرين من سكان العمـارة بهذه الطريقة.. يبتـسم أحدنا للآخـر.. ثم نتصـافح.. ثم.. نتفق على مـوعد لتـبادل الزيارة.. لم يكن مـن بين السكان إلا شـخص واحـد نفـور.. لا يرد ابتسامتى.. ولا يشجعنى على مصافحته.. إذا التقينا فى المصعد أدار وجهـه عنى. وإذا التـقينا فى الشـارع سبـقنى فى خطوات سريـعة مهرولـة ، دون أن يلتفت إلىّ.. ولم أهتم به فى أول الأمر.. فقـد كان مظهره لا يريح.. كان رجلاً نحيفـاً معروقاً ، ممصوص الوجه.. عيناه واسعتـان ينطلق منهما بريق قلق.. وأنف دقيـق.. وشفتاه رفيـعتان مزمومـتان دائماً.. وثيابه واسعـة عليه.. كأنه اشتـراها نصف عمر.. ودائماً يعود وهو يحمل فى يده كيساً من الورق منتفخاً.. وقدرت أنه

كان أخاً مريضاً مهزوزاً لأحد السكان ، يقيم معه.. وقررت ألا أحاول أن أتقرب إليه ، أو أن أعرفه..

والواقع أن العمارة وسكانها كانت رائعة.. خير ألف مرة من العمارة التى كنت أقيم فيها والتى تقع فى حى شبرا.. وقد سعدت زوجتى بالعمارة ، وسعدت بجاراتها الجديدات.. كلهن زوجات لموظفين كبار.. أقلهم فى الدرجة الرابعة..

الشىء الوحيد الذى كان يضايق زوجتى هو كثرة القطط.. لا تكاد تفتح باب المطبخ حتى تتسلل إلى البيت قطة.. وتطردها.. ولكنها لا تكاد تفتح الباب مرة ثانية ، حتى تدخل قطة أخرى.. وتصرخ زوجتى.. أنا عارفة القطط دى بتترمى علينا منين..

وأصبحت هذه القطط مشكلة حقيقية فى البيت.. كانت مشكلتنا فى شبرا هى الفيران ، وهنا أصبحت مشكلتنا القطط..

إلى أن قالت لى زوجتى يوماً :

– تعرف القطط دى بتاعة مين ؟

قلت :

– مين ؟

قالت وهى تنظر إلىّ كأنها تكتشف سراً خطيراً :

– بتاعة الراجل المستشار اللى ساكن فوقنا.. مربى عنده اتناشر قطة.. وكل قطة يلاقيها فى الشارع يجيبها معاه..

قلت وأنا أفتح عينى مدعياً الدهشة حتى أرضى زوجتى :

– شكله إيه الراجل ده.. أنا عمرى ما شفته..

وانطلقت زوجتى كالصاروخ..

– ده راجل ممصوص ، وشكله عرة.. أنا عارفة عملوه مستشار إزاى..

وتذكرت على الفور الرجل النفور الذي ألتقي به في المصعد..

هل يمكن أن يكون هذا الرجل هو عبدالبارى محمد المستشار بمجلس الدولة؟!

مستحيل..

والتقيت به مرة ثانية فى المصعد.. ونظرت إليه باهتمام أكبر.. وخيل إلىّ أنى اكتشفت فيه شيئاً وقوراً ذكياً رغم نظراته القلقة.. وعدت أحاول أن أبتسم له.. ولكنه لا يرد علىّ.. لا يزال نفوراً..

واشتد فضولى..

إنى أريد أن أعرفه..

وقبل أن أعرفه ، كنت دائماً أسأل زوجتى عن أخباره.. وأحياناً أتسلل من باب المطبخ وأرقب باب شقته.. إنه يضع عند الباب طبقين كبيرين يملؤهما بالطعام ، وتلتف حولهما القطط.. أكثر من اثنتى عشرة قطة..

وفى إحدى الليالى نادتنى زوجتى وقالت هامسة وهى تطل من شباك المطبخ المفتوح على المنور :

– شوف الراجل المجنون بيعمل إيه..

ورأيت جارى ينزل على درجات سلم المطبخ مرتدياً جلبابه.. حافى القدمين.. وهو يردد.. بسبس.. بسبس.. بسبس.. بسبس.. ويتلفت حواليه كأنه يخشى أن يراه أحد.. ثم عاد وصعد الدرجات وهو يحمل بين يديه قطة صغيرة..

وفى يوم التقينا فى المصعد ، وكان معنا جار ثالث.. ما كاد ينضم إلينا ، حتى مد يده وصافح السيد عبدالبارى قائلاً :

– أهلاً سيادة المستشار.. إزاى الصحة..

وانتهزتها فرصة ومددت يدى أنا الآخر قائلاً :

– دى فرصة سعيدة يا سيادة المستشار.. أنا حسن علوان.. الساكن الجديد فى الشقة اللى تحت سيادتك..

وأجاب فــى فتــور وهو يصافــحنى ، وكيس الورق الذى يحــمله يتأرجح فى يده الأخرى :

– تشرفنا..

قلت فى إلحاح :

– والله عندى موضــوع خاص عايز أكلم ســيادتك فيــه.. إذا كان ممكن تسمح لى بزيارتك و...

وقاطعنى قائلا بلا اهتمام :

– عارف الموضوع الخاص.. اتفضل فى أى وقت.. وزرته..

واستقــبلنى مرتدياً جلبابه.. وعلى شفــتيه ابتسامــة.. وفى عينيه نظراته القلقة.. ثم بدأ يحدثنى فوراً فى مواضيع كثيرة.. آخر ما قرأه من أخبــار الصحف .. والنواحى القــانونية .. ذكرياته فى القــضاء.. حديثــاً ممتعاً حــقاً.. صدقــونى إذا قلت إنى لم أتمتع بحديث قــدر ما تمتعت بحديث السيد عبد البارى.. وأنا صامت.. أستزيده من حديثه..

وقبل أن تنتهى الزيارة بدقــائق قال لى بصوت ثابت ، وإن كانت عيناه ازدادتا لمعاناً :

– أنا عــارف الموضوع اللى كــنت عايز تكلمنــى فيــه.. موضــوع القطط.. مش كــده.. الواقع أنها مــســألة خاصــة بى.. لها أســبابهــا عندى.. وأى إزعاج تسببه القطط للجيران أنا مسئول عنه..

وقلت تملقاً :

– أبداً.. لا إزعاج.. ولا حاجة.. بالعكس.. أنا باحب القطط..

وتركته وأنا سعيد بمعرفته..

ولكن زوجتى لا تحــتمل القطط.. فى كل يوم تثير مــشكلة بسبب القطط التى تتسلل إلى بيتها..

ثم استقبلتنى يوماً مهللة وهى تقول كأنها تزغرد :

– بس.. أنا جــبت لك كل حكاية الــقطط.. النهــاردة طلعت أزور

الست أخت المستشار وحكت لى كل حاجة..

وقد نسـيت أن أقول لكم إن سيادة المسـتشار ليس متـزوجاً ولم يسبق له الزواج رغم أنه فى الرابعة والخمسين من عمره.. ويقيم مع شقيقته التى تصغره بثلاثة أعوام..

وبدأت زوجتى تروى القصة التى سمعتها..

عبدالبارى لم يكن فى شبـابه يحب القطط أو يهتم بها.. وكان من أوائل خريجى كليـة الحقوق.. وعين وكـيلاً للنيابة فى القـاهرة عقب تخرجه.. وخطب ابنة عـمه... وكان فى البيت قطة صغيـرة تلهو بها شقيقته.. وفى يوم عاد إلى البيت.. وبلا قصد.. داس على بطن القطة بقدمه.. فماتت.. وقـالت له أمه إن القطط مشايخ.. فى كل قطة يسكن شيخ.. وأن هريرها ما هو إلا تلاوة لآى الذكـر الحكيم.. وأن عليه ما دام قد قتل قطة أن يقـيم خاتمة فى ضريح الحسـين، ويتصدق على الفقراء ، ويستغفر ربه..

ولم يقتنع عبـد البارى بكلام أمه.. هز كتفيـه.. وضحك... وحمل جثة القطة وألقاها فى صفيحة الزبالة..

وبعد أسبوع..

أسبوع واحد..

ماتت خطيـبته.. وأصـيبت أمـه التى يحبهـا بالشلل.. ثم نقل من القاهرة إلى أسيـوط نتيجة غضب رئيسه علـيه.. ثم مرض هو الآخر بالصفراء..

وتذكر عبد البارى كلام أمه..

وخاف.. خاف من انتقام الشيخ الذى يسكن جسد القطة.. واشتد به الخوف إلى حد أن اعتقد أنه سيـموت... وقد ظل فى الفراش أكثر من ثمانيـة شهـور معتـقداً أنه سيـموت فى أى لحظة ، رغم تأكـيد الأطباء له بأنه قد شفى من المرارة..

وعندما عاد إلى عمله ظل خائفاً.. خائفاً لدرجة أنه لم يكن يخرج لتحقيق الجرائم التى يستدعى لتحقيقها.. فنقل من النيابة إلى وظيفة إدارية فى القضاء.. وترقى بحكم أقدميته ومساعى عمه..

ومن يوم هذه الحادثة ، وعبدالبارى يحاول أن يعتذر للقطط.. ويستغفرها.. ويرضيها.. ويجمع عدداً كبيراً منها ليطعمها.. ويذهب إلى المحكمة وفى جيبه كيس الورق ، حتى إذا وجد فى طريقه قطة صغيرة ضالة أخرج كيس الورق من جيبه ، ووضع فيه القطة وحملها إلى البيت.. ولكنه إلى اليوم لا يحب القطط... ولكنه يخافها.. بدليل أنه لا يسمح لأى قطة بأن تدخل البيت، ولكنه فقط يطعمها بجانب باب المطبخ..

واستمعت إلى ما ترويه لى زوجتى ، وأنا فى عجب.. وتذكرت عبد البارى عندما يعود حاملاً كيس الورق.. كان يحرص على أن يخفيه وراء ظهره.. وأكثر من مرة لاحظت كأن فى الكيس شيئاً يتحرك.. ولكن ملاحظتى كانت تمر دون أن أهتم بها..

وكانت صداقتى لعبد البارى قد توطدت فى هذه الأثناء.. كنت دائماً عطشاً إلى حديثه الممتع.. ولكننا لم نكن أبداً نتحدث عن القطط..

وتجرأت فى إحدى زياراتى له ، وقلت له ما سمعته من زوجتى.. ونظر إلىّ عبد البارى بعينيه الواسعتين القلقتين كأنه يهم بأن يخنقنى ، ثم هدأ بسرعة ، وأحنى رأسه وقال بصوت خفيض :

– هذا صحيح..

وانتظرت صامتاً لأسمع منه تعليلاً ، ولكنه اكتفى بأن قال :

– هناك أشياء كثيرة وراء العقل البشرى.. يجب أن نأخذها قضايا نسلم بها..

ثم أنهى الزيارة..

وتركته وأنا أتعـجب من أن تكون هذه عقلية مسـتشار.. لا يمكن أن تكون خرافة أن فى كل قطة شيخاً.. قضية مسلم بها..

إلى أن حدثت الأعجوبة الكبرى..

ابنى شاكر أمسك بقطة من قطط عـبدالبارى، وألقى بها من أعلى سلم المطبخ ، فوقعت ميتة..

ورآه عبد البارى فنظر إليه فى هلع ، وتمتم كأنه يترحم عليه :

- مسكين يا بنى..

وبعد أسبوع..

أسبوع واحد..

وقع ابنى فكسرت ساقه.. وأصيبت زوجـتى بنزيف حاد خطر.. وتخطانى زملائى فى الترقية و..

وأقمت خاتمة فى ضـريح الحسين.. وتصدقت على الـفقراء بربع مرتبى لمدة ثلاثة شهور..

وفى بيتى الآن اثنتا عشرة قطة..

زوجتى تطعمها بيديها..

حنان بنت السلطان

هوايتى الوحيدة هى إطلاق خيالى..

إنى أستطيع أن أقضى الساعات الطويلة ، وأنا سرحان.. أرقب خيالى وهو منطلق كأنى أرقب عصفوراً فى السماء.. يقفز من شجرة إلى شجرة ، ومن غصن إلى غصن.. ويزقزق.. دون سبب.. وبلا منطق.. إلا مجرد الانطلاق.. والزقزقة..

وخيالى كذلك ، ليس له منطق فى انطلاقه.. ولا حدود.. إنه خيال مشرد.. مجنون.. يضحك كالمجانين ، ويبكى كالمجانين.. ويبنى قصوراً ليهجرها ويعيش فى كوخ.... ويقف خطيباً كروبسبير يقود جموع الشعب إلى الثورة.. ثم فجأة يترك جموع الشعب ليلعب الكرة الشراب مع أطفال حى زينهم..

إنه خيال مجنون.. ولكنى سعيد به.. إنه صديقى الوحيد.. إنه دنياى التى لا يشاركنى فيها أحد.

وأحياناً.. وأنا سرحان ، أحس أن فى داخلى طفلاً صغيراً.. جميلاً.. وأحب هذا الطفل عندما أحس به.. أحبه جداً.. وأداعبه.. وأدلله.. وأغنى له.. وأستغل خيالى فى ابتداع قصص صغيرة أرويها له ، حتى ينام.. خصوصاً عندما يبكى هذا الطفل.. وهو يبكى بكاءً مزعجاً كلما وقعت فى مصيبة.. والمصائب كثيرة ، وقد تعودت على احتمالها.. مهما كانت المصيبة ، ترانى دائماً هادئاً ، مبتسماً ، قوياً.. ولكن هذا الطفل الذى يعيش فى داخلى ، لا يحتمل المصائب.. لا تكاد مصيبة تقع لى ، حتى يرتفع صراخه ، حاداً، مزعجاً ، يشق صدرى.. وأضطر أن أحمله وأجلس به وحدى فى غرفتى.. أدلله.. وأتحايل عليه.. ثم أطلق خيالى ليروى له بعض هذه القصص الصغيرة التى أبتدعها.. حتى يهدأ.. وينام..

هل تريدون أن تسمعوا قصة من القصص التى أرويها لطفلى..
اسمعوا..

■ ■ ■

كان يا ما كان ، ما يحلى الكلام إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام.

كان فى زمن من الأزمان ، سلطان اسمه السلطان حمدان ، يحكم كل بلاد همدان.. له بنت واحدة.. جميلة.. رقيقة.. اسمها حنان..

وكان السلطان يحب ابنته حنان ، حب عبادة.. كانت أغلى عنده من كل مملكته.. لا يفتح عينيه فى الصباح إلا إذا قبلتهما له حنان.. ولا يغمضهما فى المساء إلا إذا قبلتهما له حنان.. ولا يأكل إلا إذا أكلت حنان.. ولا يضحك إلا إذا ضحكت حنان..

السعادة تغمر القصر كله..

والشعب سعيد ، يحب حنان كما يحبها أبوها السلطان..

وحنان تلعب.. وتضحك.. وتمرح فى عز أبيها.. وكل رغبة من رغباتها أمر مطاع..

إلى أن بلغت حنان السادسة عشرة من عمرها... وبدأت تنتابها حالات غريبة.. كانت تبدو أحياناً ساهمة... وأحياناً تعتكف فى غرفتها ساعات طويلة ، فإذا استدعاها أبوها ، خرجت إليه فى استرخاء ، وعيناها مطفأتان..

وسألها أبوها السلطان ، وقلبه ملهوف عليها :

– ما بك يا حنان..؟

وأجابت حنان وهى تزفر أنفاسها :

– لا أدرى يا أبى.. ولكنى زهقانة..

وضحك السلطان ضحكة عريضة اهتز لها كرشه الضخم ، وقال :

– ابنة السلطان حمدان ، زهقانة.. هذا مستحيل.. مستحيل..

وصفق بيديه ، وأمر باستدعاء جـميع الفنانين فى مملكته للترفيه عن حنان ، وطرد الزهق عنها..

وفى ساعات اجتمع فى القصر كل المـوسيقيين ، وأشـهر المطربين والمطربات ، والراقصات ، والممثلين ، والمضـحكين ، والحـواة.. وأخذوا يعرضـون فنونهم وألعابهم أمام حنان...

وابتسمت حنان ابتسامة ضعيـفة باهتة.. ثم ما لبثت بعد دقائق ، أن تركتـهم جميعاً ، ودخلت إلى غرفتها ، وأغلقت بابها عليها..

وازدادت حالة حنان سوءاً..

ووجهها النضر أخذ يذبل.. بشرتهـا البيضاء يزحف عليها ضباب أصفـر.. شفـتاهـا الضاحكتـان ، لا تقويان على الابتـسـام.. عـيناها النشطتان ، مرخاتان ، كسولتان ، كأنهـا لا تجد حولها شيئاً يستحق أن تراه..

واشتد جزع السلطان على ابنته.. واستدعى كبار الأطباء فى مملكته والممالك المجـاورة.. وقضى الأطبـاء أياماً يفحـصون حنان، ويعـيدون فحصـها.. ثم هزوا رءوسـهم فى حيرة.. إنهم لا يعرفون مرضـها..

وتمزق قلب السلطان.. وجـمع حوله فلاسـفة عصـره وحكماءه.. استدعاهم من جمـيع الأقطار.. وسألهم رأيهم فى حالة ابنته حنان.. وتشاور الفلاسفة والحكماء طويلاً ثم قال أحدهم :

– يا جـلالة السلطان أدام الله عـزك وأيدك بنصـره.. إن شـفـاء الأميـرة حنان ، فى رحلة تقوم بهـا إلى بلاد سندان.. لترى الجـبال الخضــراء.. وبحـيرات شفـافة كـالمرآة.. وشلالات كـذوب الفـضة.. وبلاداً حباها الله بخصائص الجنة.. فتـسترد روحها الضائعة.. وتملأ عينيهـا بالجمال.. وتعود بالعـافية.. وفى الأسفـار خمس فوائد والله أعلم..

وأقر الفلاسفة والحكماء قول زمـيلهم ، ومشطوا لحاهم البيضاء

بأصابعهم دليل استحسان الفكرة..

وفى الحال ، أمر السلطان بإعداد الركاب..

وسـافـرت حنان إلى بلاد سندان ، يحـوطهـا ألف من العـبـيـد والفرسان.

ثم عادت بعد ستة شهـور.. واستقبلها أبوها السلطان عند مدخل المدينة ، وشوقـه يكاد يطير به من على الأرض.. ولكنه مـا كاد ينظر إلى وجهها حتى ذابت فرحـته ، وتلاشت ضحكته ، وغاص قلبه فى قدمـيه.. رأى عـينيهـا ملؤهما الملـل.. وشفتـيهـا يكسوهمـا الزهق.. وبشرتها صفراء.. وجسدها هزيل.. وصوتها ضعيف..

ورقدت حنان فى فراشهـا لا تستطيع أن تقوم من عليه.. وأبوها السلطان بجـانبـهـا يبكى آنـاء الليل وأطراف النهـار.. يناديهـا فـلا تسمعه.. ويقبلها فلا تحس بقبلته..

وهمست خازندارة القصر فى أذن السلطان :

– يا مولاى السلطان ، أدام الله عزك وأيدك بنصره.. اسمح لى أن أتطاول على مقامكم العالى وأذكـركم بأن الأميرة حنان أصبحت فى عـمر الـزواج.. ولو وجدت الزوج الـذى يروى شبـابهـا ، لازدهرت حياتها..

ورفع السلطان حاجبيه دهشة :

صـحيح.. إن حنان أصبحت فى عمر الزواج..

وابتأس السلطان برهة.. إنه لا يريد أن يزوج حنان ويتنازل عنها لرجل آخـــر.. ليس الآن... ليس الآن.. ولكن.. ربما كـــان فى الزواج الشفاء..

وأعلن السلطان أنه قرر تزويج ابنته الأميرة حنان..

وجاء الأمراء الشـبان من جميع أنحاء المعمـورة يخطبونها.. وكل منهم فى أزهى ثيـابه ، وكامـل سلاحـه ، يمتطى صـهوة جـواده..

ووقفت حنان فى ضعفها وهزالها.. تستـعرض صفوفهم.. وبجانبها خازندارة القصر تقص عليها مـحاسن كل منهم ، وتغريها بكل واحد فيهم لعلها ترضى وتختار.. ولكن حنان لم يهتز لها رمش ، ولا خفق لهـا قلب.. طافت عليـهم جمـيـعاً بعـينيـها الملولـتين ثم عـادت إلى فراشـها... وأعلنت أنها لا تريد الزواج..

وجلس بجانبها السلطان والأسى يشق صدره ، وقال فى توسل:

- ألا تقولين ما بك يا ابنتى ؟!

وقالت حنان وهى تزفر أنفاسها :

- لا أدرى يا أبى.. ولكنى زهقانة..

والحزن يخيم على القصر ، وعلى الناس.. والسلطان أهمل شئون مملكته.. والحياة كلها واقفة لا تتحرك..

إلى أن كان يوم..

وجـاء إلى القصـر شيخ مـضىء الوجه باسم الثـغر ، وقـال إنه يحمل الدواء الذى يشفى الأميرة حنان ، وطلب مقابلة السلطان..

واستقبله السلطان فى لهفة..

وقال الشيخ فى صوت كنغم الناى ، وثغره باسم :

- خذ هذا الكيس واملأه... وعندما يمتلىء تشفى الأميرة حنان.

ثم رفع عن كتفه كيساً فى حجم أكياس القمح ، وقدمه للسلطان..

وقال السلطان :

- أملأه بماذا ؟

ولكن الشـيـخ لم يرد.. تراجع فى خطوات.. وقـبل أن يصل إلى الباب ، كان قد اختفى..

وابتسم السلطان ابتسـامة ساخرة يائسة.. إن هذا الشـيخ ساحر.. وهذه حيلة ساحر.. وقد جرب من قبل كل السحرة ، وكل حيلهم ، ولم تشف حنان.. ولكن.. لن يضيره شىء لو جرب هذه الحيلة أيضاً..

وأمر السلطان عبيده بأن يملأوا الكيس الذى أتى به الشيخ..

وسأل العبيد :

- نملأه بماذا يا مولانا ؟

وفكر السلطان قليلاً ثم قال :

- بالجواهر واللآلئ..

وجمع العبيد كل ما فى القصر من جواهر ولآلىء ولكن الكيس لا يمتلئ.. إن كل ما يضعونه فيه يصغر حجمه ويرسب فى القاع..

وصاح السلطان :

- املأوه بالذهب والفضة..

وجمع العبيد كل ما فى القصر من ذهب وفضة.. ولكن الكيس لا يمتلىء.. كل شىء يضعونه فيه يصغر حجمه ، ويرسب فى القاع..

وصرخ السلطان :

- أملأوه بما فى مخازنى من حبوب..

ولكن الحبوب يصغر حجمها وتتضاءل كمياتها. وترسب فى القاع..

وجن السلطان.. وصرخ بأعلى صوته :

- املأوه بالرجال..

واستدعى العبيد كل الرجال.. وكل رجل يضعونه فى الكيس يصغر حجمه ، ويتضاءل ويرسب فى القاع..

وبئس السلطان..

وحنان تزداد سوءاً..

وفى ليلة من ذات الليالى ، كانت حنان نائمة فى هزالها وضعفها.. وفتحت عينيها فجأة ، فرأت أمامها الشيخ المضىء الوجه الباسم الثغر.... واتسعت عيناها دهشة وكادت تصرخ.. ولكن الشيخ ابتسم لها وقال :

– لا تنزعجى يا ابنتى.. وخذى هذه الحبة الصغيرة.. وعندما تسمعين المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ، قومى من فراشك ، وضعى الحبة فى الكيس. وسيمتلئ بإذن الله..

وقالت الأميرة حنان فى دهشة :

– ولكنها حبة صغيرة.. كيف يمتلىء بها الكيس..

قال الشيخ باسم الثغر :

– بإذن الله.. لا تنسى.. عندما يؤذن لصلاة الفجر..

واختفى الشيخ..

وظلت حنان ساهرة.. تتقلب على فراش الحيرة.. إلى أن سمعت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر.. فقامت من فراشها ، وسارت على أطراف أصابعها فى أبهاء القصر ، إلى أن وصلت إلى البهو الذى وضعوا فيه الكيس.. وألقت فيه بالحبة الصغيرة.

ورفعت رأسها فالتقت عيناها بالفارس حسان بن عبد ربه المكلف بحراسة البهو..

وابتسمت..

وكانت المرة الأولى التى تبتسم فيها منذ سنين..

وعادت إلى غرفتها. وهى تحس بشىء غريب يسرى فى كيانها.. وتتساءل عن سر هذه الحبة التى أعطاها لها الشيخ ، وعن سر هذه النظرة التى رأتها فى عينى الفارس حسان بن عبد ربه..

وقامت فى اليوم التالى نشطة على غير عادتها.. وذهبت إلى حيث وضعوا الكيس.. فرأت الحبة الصغيرة قد كبرت.. ورفعت رأسها فالتقت مرة ثانية بوجه الفارس حسان بن عبد ربه.. فابتسمت ابتسامة أكبر من ابتسامة الأمس.. وجرت إلى غرفتها فى خفة كأنها تطير.. وهى تحس بالحياة تعود إليها.. تحس بالعصافير وقد عادت تغنى.. والورد يتفتح.. والياسمين يضحك.. والشمس تشرق..

وفى كل يوم تذهب إلى حيث وضعوا الكيس..
وفى كل يوم تلتقى بالفارس حسان بن عبد ربه..
وفى كل يوم يزداد تدفق الحياة فى القصر..
وحنان تضحك..
والسلطان يضحك..
وحسان بن عبد ربه يضحك..
والناس كلهم يضحكون..
إلى أن كبرت الحبة حتى امتلأ بها الكيس إلى آخره..
وجاء الشيخ الباسم الثغر يزور حنان فى أحلامها ، وقال لها :
– مبارك يا ابنتى.. لقد شفيت بفضل الله..
قالت فى خفر العروس :
– ولكن.. أيها الشيخ الجليل.. ما اسم الحبة التى ملأت الكيس؟
وابتسم الشيخ المضىء الوجه وقال :
– اسمها.. الحب..
و....
وتزوجت حنان من الفارس حسان بن عبد ربه ، وعاشا فى التبات والنبات ، وخلفا صبيان وبنات.. وتوتة ، توتة ، فرغت الحدوتة..
حلوة ولا ملتوتة..

■ ■ ■

هذه هى إحدى القصص التى أرويها للطفل العنيد الذى يعيش فى صدرى.. فيبتسم.. ويهدأ.. وينام.

إنهم يصفقون لى

في عام ١٩٤٩ كنت طالباً فى كليـة الحقوق، وكانت كل أمنيـتى أن أصبح بطلاً.. أى نوع من الأبطال.. بطل والسلام.. وكـان إيمانى بالبطولة إيمـاناً مـجرداً، غـيـر مرتبط بمبـدأ، ولا بعـمل معين.. كانت البطولة فى نظرى، هى الـشـخصية القوية.. وهـى الحركة المسـتمرة.. وهـى الشـهرة.. وأن تكتب عنى الصحف..

ولم أكن أدرى بالضبط، كيف أصـبح بطلاً.. ولكنى كنت أقرأ فى الصـحف عن اجتماعات يعقدها طلبـة الجامعة الحزبيون، فبحثت عن هذه الاجتماعـات وبدأت أحشر نفسى فيها.. كـنت أحشر نفسـى فى اجتماعات الطلبة الوفديين، واجتماعات الإخوان المسلمين، واجتماعات الاشتراكيين.. وكنت أحرص دائمـاً على أن أبدو فى هذه الاجتماعات أشد الطلبـة حماسـاً، وأعلاهم صوتـاً.. وأكثرهم جـرأة.. كنت أشتم الملك.. وأشـتم رئيس الوزراء.. وأقف أمام رجـال الحرس الجـامعى، وأصرخ.. يسقط الظلم.. و.. وأضع نفسـى فى حالة حـماس مستمر.. وفى صورة ثابتة للشاب الوطنى الفدائى..

وكنت أتدرب على هذه الصـورة أمـام المرآة.. كنت أقف أمـامهـا طويلاً، وأرسم نظرات عـينى.. نظرات قوية تشع بـبريق الحـماس.. وأرسم التواءة شـفتى.. التواءة فـيها مـعنى السخط.. والسـخرية.. واللامـبالاة.. ثم أضع طربوشـاً فوق رأسى وأعـوجه على الجـانب الأيسر، كما كان يفعل الزعـيم مصطفى كامل.. ثم أقرر أن مصطفى كامل أصبح موضة قديمة.. وأعدل الطربوش فوق رأسى على طريقة النحاس باشا.. ثم أقرر فـجأة أن أستغنى عن الطربوش.. إنه أثر من آثار العـهد التركى.. عـهد الظلم والطـغيان.. ويجب أن أتحـرر منه.. فرميت الطربوش.. وأصـبحت أذهب إلى الجامعـة وشعرى منكوش

ولكنى اكتشفت في مرآتى أن شعرى المنكوش يضفى على صورة ممثل سينمائى، أو منولوجست، أكثر مما يعطينى هيئة الزعيم الوطنى.. فحلقته.. نمرة اتنين.. إننى هكذا أبدو أكثر خشونة، وأقرب إلى هيئة البطل..

وكنت أقضى ليالى كثيرة أعد الخطب السياسية.. خطباً جريئة.. لا أرحم فيها أحداً.. ولا أبالى فيها بقانون ولا بعرف.. لا أخاف السجن، ولا الاضطهاد.. كلمات كبيرة.. كلمات رنانة.. كلمات أقتطعها من قلبى، ومن كتب الإنشاء.. كلمات.. وكلمات.. وأقف أمام المرآة لأتدرب على إلقائها.. كل كلمة تصحبها نظرة خاصة من عينى.. والتواءة معينة من شفتى.. وإشارة قوية من ذراعى.. ويدى اليمنى فى جيب سترتى، بحيث يبقى الأصبع الأكبر خارج الجيب، على طريقة الأستاذ مكرم عبيد الخطيب المفوه.. ثم أذهب فى الصباح لألقى خطابى على سلم الجامعة.. ويصفق لى الزملاء.. ثم أتقدم المظاهرة.. وأقفز على أكتاف اثنين من زملائى - بلا استئذان، فالعمل الوطنى لا يحتاج إلى استئذان - وأهتف... ويهتف الزملاء ورائى.. أحس أنهم يهتفون لى لا للوطن.. فأجن بالحماس.. إنى فداؤكم يا إخوانى..

ولكن..

رغم كل ذلك..

لست بطلاً..

لم يقبض علىّ البوليس ولا مرة.. تصوروا.. رغم أن البوليس يقبض على عشرات الطلبة، كل يوم..

وأخذت أراجع نفسى فى هدوء..

لماذا..

لماذا لا أستطيع أن أكون بطلاً كهؤلاء الطلبة الزعماء، الذين لا

يبذلون نصف ما أبذله من جهد.. إنى أعلى منهم صوتاً.. وأكثر منهم اندفاعاً.. و..

واكتشفت أنى كنت حتى هذه الأيام لا أنتمى لحزب معين.. إنى فى كل اجتماع.. وفى كل مظاهرة.. حماسى، وجهدى، على المشاع.. يتقاسمه الجميع، ولا يملكنى أحد..

وقررت أن أختار حزباً..

هذا هو الطريق..

واخترت حزب الوفد.. لماذا.. لست أدرى.. ولكنى اخترته والسلام.. ربما لأن زعيم الطلبة الوفديين كان أكثر زعماء الطلبة اهتماماً بى.. وكان يدعونى دائماً إلى فنجال سحلب كلما التقى بى فى بوفيه الكلية..

و..

إنى لا زلت فى آخر الصفوف.. مجرد هتاف.. رغم أنه مر على عام كامل وأنا طالب وفدى..

إن هؤلاء الوفديين لهم اجتماعات خاصة ضيقة.. لهم قيادة أخرى لا أستطيع أن أصل إليها.. وكنت أذهب إلى بيت الأمة... وأذهب إلى بيت النحاس باشا... بل إن النحاس باشا أصبح يعرفنى باسمى.. ورغم ذلك فأنا واقف دائماً على الباب.. لا أدخل.. لا أدخل إلى منطقة الزعامة والبطولة..

وقررت أن أهاجر من الوفد..

خصوصاً أن الوفد كان قد بدأ يتهلهل.. معارضوه أقوى منه.. وكان الحزب الذى بدأ يقفز إلى الأمام هو الحزب الوطنى.. سمعته نظيفة.. وشبانه أطهار.. وقد قال لى أبى إن جدى كان منضماً إلى الحزب الوطنى أيام محمد فريد، كما أن ابن عمى من أشد أنصار الحزب تحمساً..

لماذا لم أفكر فى الحزب الوطنى من مبدأ الأمر ؟

خسارة!!

ضيعت سنة من عمرى..

ولكن لا بأس..

والتحقت بالحزب الوطنى..

ورحب بى الحزب.. وقد كان من ضمن ميزاته أن أعضاءه قليلون، وكان من السهل أن أبرز بينهم.. ويقبض علىّ.. وأصبح بطلاً..

وارتفع صوتى أكثر.. ووضعت فى عينى نظرات أقوى وأشد لمعاناً، تليق بتاريخ الحزب الوطنى.. والتوت شفتى التواءة أكبر، تعبيراً عن السخط والازدراء الذى يحمله شباب الحزب الوطنى، لشباب بقية الأحزاب.. ثم.. وضعت على رأسى طربوشاً، وعوجته على طريقة مصطفى كامل..

ولكن..

بدأت أشعر أنى لا زلت فى آخر الصفوف.. واكتشفت أن قيادة الحزب الحقيقية فى يد خلايا صغيرة.. خلايا إرهابية..

ولم أكن قد فكرت من قبل فى الإرهاب..

لم أكن قد فكرت فى أن أمسك بمسدس وأقتل أحداً.. ولا حتى عصفورة.. وأنا الآن مضطر.. مضطر أن أكون إرهابياً.. إن الإرهابيين كانوا الأبطال الحقيقيين لهذه المرحلة..

وارتعشت..

ارتعشت لمجرد الفكرة..

ورغم ذلك خاطبت زملائى فى الحزب ليشركونى معهم فى عمليات الإرهاب.. وابتسموا.. هذه الابتسامات المغرورة التى كنا نتميز بها.. والتى بدأت أرسمها على شفتى، منذ التحقت بالحزب..

ولكنهم لم يعهدوا إلىّ بأى مهمة فدائية..

وأقول الحق.. كنت مرتاحاً لهذا.. كنت أذهب كل يوم إلى اجتماع الحزب، ويدى على بطنى.. معدتى تكركر، وترتعش. فإذا انتهى الاجتماع دون أن يعهدوا إلىّ بشىء.. حمدت الله.. ونمت فى هدوء..

ولكن..

هل الإرهابى هو الذى يقتل.. لا.. إن الذين يقتلون ويلقون بالقنابل هم فقط المنفذون.. الدرجة الثانية أو الثالثة من أعضاء الحزب.. إنما المهم هو التفكير الإرهابى.. القيادة تفكير وخطط.. و.. وبدأت أضع خططاً إرهابية.. خططاً جريئة.. دقيقة.. تشيب الولدان.. ولكن.. هؤلاء المغرورون إنهم يستمعون إلى خططى ويبتسمون.. إنهم يحتكرون القيادة والبطولة لأنفسهم.. كل منهم يعتقد نفسه إلهاً.. وإما أن يفسحوا لى مكاناً بين الآلهة.. أو أثور على الآلهة..

وثُرت..

وقررت أن أكون شيوعياً..

لماذا.. ماذا نقلنى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، مرة واحدة.. لا أدرى.. ربما إغاظة فى زملائى أعضاء الحزب الوطنى..

وكنت أعرف الكثيرين من الطلبة الشيوعيين.. ولكنى عندما بدأت أختار المنظمة الشيوعية التى أنضم إليها.. وجدت عددها بعدد من أعرفهم.. كل منهم له منظمة خاصة به..

وقررت أن تكون لى منظمة شيوعية خاصة بى.. أطلقت عليها اسم « م.ش.ح».. «مشح».. أى « منظمة الشعب الحرة »..

هكذا أستطيع أن أبرز شخصيتى..

هكذا أستطيع أن أكون زعيماً وقائداً..

هكذا أستطيع أن أكون بطلاً..

ورميت بالطربوش.. وأطلقت شعر رأسى.. وأظافرى.. واستطعت

فعلاً أن أضـم اثنين من زملائى.. أحدهما ابن خـالتى.. وكنت أشفق على ابن خالتى من هذا العـمل العظيم، وهذه المسئولية الكبيـرة، فهو لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.. أكبر قليلاً من سن على بن أبى طالب عندما آمن بالإسلام..

وكانت هذه هى نواة « مشح ».

ولابد أن تكبر هذه النواة..

وقد بدأت فعـلاً أتصل بأوساط العمل.. ولكن المسـألة تحتاج إلى صبر.. صبر طويل !..

وكنت فى هذه الأثناء قد رسبت ثلاثة أعـوام فى سنة ثانية بكلية الحقـوق.. وطردت من الجامـعة.. ورفض والدى - الله يرحـمه - أن يدفع لى أى نفقات دراسية.. لم يكن يؤمن بى، ولا بوطنيتى..

لا يهم..

إن مـسـتـقبل الفـرد لا يحسب حـسابه عند مناقشـة مسـتقـبل المجتمع.. الجماهير.. الملايين..

وقررت أن أخاطب الملايين..

قررت أن أكون صحفياً.. إن الصـحافة هى المهنة الراقية الوحيدة التى لا تحـتـاج إلى مـؤهل دراسـى.. إنى أعرف عـشرات من الطلبـة الذين لم تحتمل الجامعة عبقريتهم، أصبحوا عباقرة الصحافة..

وكتبت..

مقالات من نار..

مقالات تدعو الملايين إلى الثورة.. إلى الحرية.. إلى.. إلى..

ولكن هذه الصـحف الكبيرة المغرورة .. إنها لا تنشر شيئا .. إنها كلهـا صحف عـمـيلة .. صحف فـي خدمـة الاستـعـمار .. صـحف رأسمالية .. أتدرون ماذا عرض علىّ سكرتير تحرير إحدى الصحف .. أن أكون مندوبا في الجـامعة .. أجمع أخـبار الطلبة .. أنا .. أنا عـبد

اللطيف عـبدربه .. الـذى يجب أن تتناقل الصـحف أخبـاره أنقل إلي الصـحف أخبـار الطلبة .. يا أخـى ده إيه ده .. استـيقظوا يانيـام .. حطموا الأبواب ..

وذهبت إلى مجلة صدرت حديثاً.. صـغيرة فـعلاً.. غير مـقروءة فعلاً.. ولكنها طاهرة...

ونشرت مقالاتى..

رأيت كلامى مطبوعاً.. واسمى مكتوباً بحروف المطبعة..

هذا هو الطريق..

وقد وصلت..

ولكن الناس لا يقرأون..

إنهم معذورون فى غبائهم.. سأفيقهم. سأوقظهم..

وكـتـبت.. كل الكلمـات الكبـيـرة.. كل الكلمـات النارية.. لا أحـد يهمنى.. ولا الملك..

وقبض علىّ..

نعم..

قبض علىّ..

ووقفت أمام وكيل الـنيابة، وأنا لا أبالى.. الأبطال لا يبالون.. إنهم أطول من الأسوار العالية..

وقال لى وكيل النيابة المحقق :

– ألا تعلم أن ما كتبته يدخلك السجن ؟

قلت بلا مبالاة وأنا أنظر إليه بابتسامـة الاحتقار التى تعلمتها فى الحزب الوطنى :

– أعلم..

قال :

– وتريد أن تدخل السجن ؟

قلت :

- فى سبيل تحرير الملايين لا تهم حرية الفرد.

وصرخ وكيل النيابة :

- طيب وشرف أمى ما أنا مدخلك السجن.. اتفضل.. براءة!!

ووقفت مبهوتاً..

خيل إلىّ أنى سأركع تحت قدمى وكيل النيابة وأتوسل إليه أن يدخلنى السجن.. إنه لا يعلم أنى بطل.. وأن الأبطال كلهم مصيرهم السجن.. وإنى فى شوق لألاقى مصيرى..

وخرجت كأنى انتهيت..

وعدت إلى المجلة التى أكتب فيها.. فوجدتها قد توقفت عن الصدور.. وقرر صاحبها أن يفتح محلاً لعصير القصب!.

ولكن..

لن أيأس..

إن «مشح» يجب أن تكبر.. يجب أن تضم الملايين لأقودهم إلى النور.. إلى الحرية..ولم تكبر مشح.. لا يزال عددها اثنين.. وابن خالتى أصبح لاعب كرة فى فريق الترسانة.. الصبر. الصبر.

وفجأة..

فى ٢٣ يوليو..

قامت الثورة..

ولا أدرى كيف قامت.. ولا متى قامت.. ولا من قام بها.. قامت وليس لى مكان فيها..

وأبى طردنى من البيت..

وأنا ضائع.. عاطل.. أمى تعطينى فى الخفاء ما تستطيع أن توفره من مصروف البيت..

وبدأت أيأس..

والابتسامة الساخر المغرورة تموت على شفتى.. والبريق اللامع لم أعد أستطيع أن أطلقه من عينى..

وأهملت «مشح»..

وكنت أجلس على مقهى فى شبرا الخيمة، عندما قال لى صديقى إبراهيم عبد الله :

– ما تشوف لك شغلة يا أخى..

قالها ببساطة..

ولكنها لسعتنى..

وقاومت عدة أسابيع.. قاومت إحساسى بأنى يجب أن أفيق.. يجب أن أصحو.. يجب أن أعمل..

وبمساعدة صديقى إبراهيم وجدت عملاً..

عامل..

فى مصنع حلويات فى الجيزة..

مجرد عامل.. لا أسطى.. ولا حاجة..

وعملت.. لم يكن أمامى شىء آخر أعمله، غير العمل !!

وأحسست بنفسى أتطور.. أحسست بنفسى أقترب من عالم فسيح، واسع.. ملىء بأشياء صغيرة.. صغيرة، ولكنها جميلة.. هادئة.. ووجد زملائى أجمل وأطيب وأنا بينهم، منهم وأنا أحاول أن أرتفع فوقهم وأتزعمهم..

ولكنى ربما كنت زعيماً..

إنهم يسألوننى دائماً.. ويلجأون إلىّ فى كثير من مشاكلهم.. وثقافتى القانونية الناقصة تعيننى على أن أناقش معهم حقوقهم. وحقوقى..

ثم..

أمم المصنع..

وارتقيت..

أصبحت أسطى..

وكنت أعمل فى وردية الليل، عندما تعطلت ماكينة لف الورق.. وجاء رئيس القسم، وطلب منى أن أتوقف عن العمل حتى الصباح، إلى أن يأتى رئيس القسم الميكانيكى ويكشف على الآلة..

وكنت أعلم أن إصلاح الآلة سيستغرق أكثر من يوم.. ربما شهراً.. يكشف الميكانيكى على الآلة.. ثم يكتب تقريراً.. ويرسل التقرير إلى الإدارة.. والإدارة ترسل تقريراً إلى المخازن لإعداد قطع الغيار.. والمخازن لا تجد قطعاً للغيار.. فترسل تقريراً إلى الإدارة لاستيراد قطع الغيار.. و.. و.. شهر.. سنة..

وأنا أعرف هذه الآلة..

أعرف كل قطعة فيها، كما أعرف ما فى جيبى..

وانحنيت تحت الآلة أحاول إصلاحها.. وقال زميلى برعى :

– ما تتعبش نفسك يا عبداللطيف.. دى مكنة قديمة وبنت صرمة..

وقال زميل آخر :

– يا أخى ما تحشرش نفسك فى اللى مالكش فيه.. بعدين يتهموك إنك أنت اللى خسرتها.. ويوقعوا عليك جزاء..

وقال ثالث :

– يا أسطى ريح نفسك.. وروح نام..

ولكننى صممت..

وجاء رئيس القسم وصرخ :

– ده مش اختصاصك يا أسطى. إذا ما طلعتش من تحت المكنة حا أكتب فيك تقرير..

قلت :

– اكتب..

وانهمكت فى إصلاح الآلة.. وزملائى يحيطون بى كأنهم يتتبعون معركة بينى وبين الآلة.. أو بينى وبين رئيس القسم..

وصحت :

– ناولنى المفك نمرة خمسة يا برعى..

وجاء برعى لى بالمفك..

وعدت أصيح :

– واحد فيكم يناولنى المزيتة..

ووضعت المزيتة فى يدى..

و....

واشترك معى أسطوات القسم فى إصلاح الماكينة..

وفى ساعتين..

ساعتين فقط..

تم إصلاحها..

وعدت أقف أمام الآلة وهى تدور كالســاعة.. أنا سيدها.. أنا الذى يصدر إليها الأوامر.. أنا الذى ينتصر عليها إذا حاولت أن تتمرد.. أنا الذى يعينها على ضعفها إذا ضعفت..

أنا بطل..

صدقونى كانت هذه هى اللحظة الحقيقية التى أحسست فيها أنى بطل..

وزملائى صفقوا لى..

وأصبحت رئيس وردية..

وعلاوة..

نسالة أم

تزوجت عن حب..
كل قطعة منى كانت تحبه..
ولم يحدث خلال خمس سنوات أن داخلنى الشك فى حبى.. كنت أعلم أنى أحبه.. وكان يعلم أنى أحبه.. ولم يخدش حبنا أننا لم ننجب أولادا..

وبعد خمس سنوات توفى أخو زوجى الكبير.. وتولى زوجى رعاية أولاده.. وأصبحت أرى محمد كل يوم تقريباً.. ومحمد هو الابن الأكبر لأخى زوجى.. فى التاسعة عشرة من عمره.. أصغر منى بخمس سنوات..

وكنت أرى محمد منذ تزوجت.. وكنت أحس نحوه بنوع غريب من العطف.. ربما لأن أمه كانت قد ماتت قبل أبيه بعدة سنوات.. وربما لأنه منطو.. خجول.. مهذب.. رقيق.. يبدو دائماً وكأنه يجرى وراء خياله.. وكأن فى قلبه جرحاً يؤلمه.. وكنت أرحب به دائماً كلما زارنا.. وأشعره بعطفى عليه ، وأحاول أن أكتشف حياته، وأصل إلى جرح قلبه.. وكان محمد يستريح إلىّ.. كنت ألحظ انكماشه كلما جلس مع زوجى ، وانطلاقه كلما جلسنا على انفراد..

وبعد أن توفى أبوه ، أصبحت زياراته لنا متتالية.. كان يتناول معنا الغداء أحياناً... وأحياناً العشاء.. أصبح كأنه يقيم معنا فى البيت.. وكبر عطفى عليه.. وأصبحت أتمادى فى التعبير عن هذا العطف.. أصبحت أحس كأن كل أمومتى المحرومة تتجه نحوه ، وتنسكب عليه..

واكتشفت جرح قلبه.. إن المسكين يكره أباه.. يكرهه حتى بعد أن مات.. ويعتقد أن أباه كان يعذب أمه ، وأنه السبب فى موتها.. وحاولت جهدى أن أضمد هذا الجرح ، وأن أمسح عن قلبه هذه

الكراهيـة التى تعـذبه ، هذه العقـدة التى تنغـزه فى صدره.. وكـان مـحـمد يحـاول أن ينفس عـن عذابه بكـتابة الشـعـر والقـصص.. فشجعته.. كنت أجلس إليـه طويلاً ، يقرأ لى شعره.. وأنا لا أفهم فى الشعر.. ولكنى كنت أحس فى كلام محمد رقة وصدقاً.. لدرجة أننى أحببت شعره وحفظته عن ظهـر قلب.. ولم أكن أفهم قصصه أيضاً.. إنها معـان وحوادث مرتبكة من الصعب أن تتبـين أولها من آخرها.. ولكنى كنت أفسرها بمنطق عذابه.. بحالتـه النفسية المرتبكة.. فأعجب بها.. وأحـفظها أيضاً.. بل إنى كنت آخـذ منه كل ما يكتبـه ، وأحفظه عندى ، وأعـده بأن أسـاعـده يوماً فى إصـدار ديوان من الشـعـر ، ومجموعة من القصص..

وازداد تعلق مـحمـد بى.. لم يعـد له فى حيـاته سواى وسـوى عطفى عليه.. ليـس له أصدقاء.. وليـست له بنت يحبهـا.... فقط أنا.. وكنت كثيراً ما أنصحه بأن يجمع لنفسه بعض الأصدقاء.. وكثيراً ما أغريه بحب إحدى البنات.. ولكنه كان يبتسم فى ضعف حزين.. كأنه يبكى على نفسه.. ويقول :

- لن أجد أحداً يفهمنى.. أنت فقط التى تفهميننى !

وكنت أشعر بالزهو عندما يقول لى ذلك.. نفس الزهو الذى تشعر به الأم عندما يرفض ابنها الزواج ، لأنه لن يجد أبداً زوجة فيها مزايا أمه ، وتستطيع أن تعوضه عنها..

وكنت ألاحظ أن محمد يتعمد أن يأتى إلى البيت فى الأوقات التى يكون زوجى غـائبـاً فى عـمله.. ولم أهتم.. إنـى أعرف أن مـحـمـد يستـريح إلىّ أكثـر مما يستريح إلى زوجى.. ويحـتاج إلى أكـثر مما يحتاج إلى عمه..

و...

ولم يحدث شىء خـلال عامين مـضيا بعـد وفاة والد مـحـمد.. لا

أذكر أنه حدث شيء إلا أن محمد سألنى مرة :

– هل تحبين عمى ؟

وأجبته فى صدق :

– نعم..

قال فى غيظ مكتوم :

– لماذا.. ماذا تحبين فيه ؟

قلت باسمة أحاول أن أطفيء غيظه بابتسامتى :

– عندما تحب.. لا تسأل نفسك أبداً لماذا أحببت.. كل ما حدث أنى وجدت نفسى أحب عمك..

قال وقد انطلق غضبه :

– إنه يضطهدك.. إنه يعذبك.. إنه يعاملك كجارية له !

وقلت وأنا أشفق عليه :

– لا يا محمد .. لا يكفى أن تتخيل أنه يعذبنى .. يجب أن أحس أنا بهذا العذاب .. وأنا لا أحس بعذاب.. بالعكس أحس بسعادة إنه يسعدنى !!

وحنى محمد رأسه ، وتعقد وجهه كأنه يعتصر دموعاً من عينيه.. دموع تنسكب فوق قلبه المعذب..

واعتقدت أنا أن عقدة كراهيته لأبيه هى التى صورت له أن زوجى يضطهدنى كما كان أبوه يضطهد أمه.. فأصبح يكره زوجى كما كان يكره أباه..

وحاولت كثيراً أن أتغلب على هذه العقدة قبل أن تتمكن منه كراهيته لزوجى.. لعمه.. فكنت أصحبه معنا كثيراً كلما خرجت أنا وزوجى.. كنا نأخذه معنا إلى السينما.. وإلى الرحلات الخلوية التى نقوم بها.. وكنت أتعمد دائماً أن أبدو أمامه سعيدة.. سعيدة بزوجى.. بل كنت ألوم زوجى إذا قصر فى الاهتمام به ، أو إبداء عطفه عليه..

وكان مقدرا أن تمر حياتى هادئة ، إلى أن أتم رسالتى فأجعل من محـمد إنساناً سعـيداً سليمـاً.. أحل عقدته.. وأخـرجه عن انطوائه.. وأدفعه إلى الحياة ليبحث عن الحب والنجاح..

ولكن..

عثـر زوجى يوماً على مجـموعة أشعـار وقصص محـفوظة فى دولابى.. وسألنى.. وفى سؤاله رنة عجيبة :

– ما هذا ؟

وقلت له إن مـحمـد يكتب الشـعـر والقصص ، وإنى وعـدته أن أساعده على نشرها فى كتاب..

ونظر إلىّ نظرة غريـبة.. كأنه يبـحث عن شىء وراء كلامى.. ثم جلس صامتاً يقـرأ فى مجموعة الأشعار والـقصص.. ثم فجأة ألقى بها على الأرض ، وقال فى حدة :

– كلام فاضى.. ولد خايب ؟!

قلت فى لوعة كأنه قذف بكبدى :

– حرام عليك يا حسين..

وقام ووقف أمامى ورفع صوته فى وجهى :

– أنت تفسدينه.. إنه مدلل.. سخيف.. لا يصلح لشىء.. لا يصلح حتى لكتابة الشعر والقصص..

قلت فى لهفة :

– إنه محروم من الحنان..

قال وفى عينية نظرة خبيثة :

– إنه رجل الآن.. إنه فى الحـادية والعـشرين.. ولا أظنه يبـحث الآن عن الحنان.. إنه يبحث عن شىء آخر..

قلت وأنا على وشك أن أصرخ :

– يا حسين ده..

وقاطعني صارخاً :

– من هنا ورايح.. أنا المسئول عن تربيته.. لا أريدك أن تتدخلي في شأنه.. لا أريدك أن تهتمي به.. فاهمة ؟

وبدأت معاملة زوجي لمحمد تتغير..

أصبح قاسياً عليه..

كلما رآه انهال عليه يسأله عن دروسه ، وعن مذاكرته ، وعن نمره.. وانهال عليه بالنصائح.. نصائح أقرب إلى الشتائم..

ومحمد يرتعد أمامه.. المسكين !

وأنا أحاول أن أهدئ زوجي.. ثم بعد أن ينصرف أحاول أن أهدئ محمد.. ووجهه محتقن ، وعيناه مغرورقتان بظلال دموع..

وفي يوم ، عاد زوجي من الجامعة ، فوجد محمد في البيت ، وقبل أن يصافحه صرخ فيه :

– أنت بتعمل إيه هنا.. اسمع.. لا أريد أن أراك هنا إلا إذا أردت شيئاً مني.. عد إلى بيتكم ، واستفد من وقتك في استذكار دروسك.. تذكر أنك رجل الآن.. شحط.. ومن واجبك أن تبقى مع إخوتك لترعاهم.. اتفضل !

وارتعش محمد.. ارتعش كله..

وحاولت أن أتكلم ، فصرخ في وجهي :

– اسكتي..

وسكت.. سكت وأنا عاجزة ، والغيظ يأكلني !

وخرج محمد..

خرج من جنة حناني !

ولم يعد في اليوم التالي.. ولم يتصل بي بالتليفون.. وأحسست أن كل يومي فراغ.. كأنه لم يعد شيء في حياتي.. كنت قد تعودت على محمد.. تعودت عطفي عليه.. وتعودت حناني عليه واهتمامي

به.. وتعودت الأمل فى أن أحقق رسالتى. وأشفيه من عقدته لأجعل منه رجلاً سعيداً

وهممت أن أحدثه فى التليفون. ولكنى تراجعت.. ربما أغضبت زوجى لو علم أنى حادثته فى التليفون.. وأنا لا أريد أن أغضب زوجى.. لم أغضبه أبداً.. إنى أحبه..

وعندما عاد زوجى حاولت أن أقنعه بالصفح عنه.. حاولت أن أقنعه بأنه شاب معقد يحتاج إلى رعاية خاصة.. ويحتاج إلى حنانه ليعوضه عن حنان أبيه.. وإلى حنانى لأعوضه عن حنان الأم.

ولكن زوجى كان قاسياً..

إنه لا يريد أن يراه فى البيت..

وتبينت شيئاً لم أكن متأكدة منه إلى هذا الحين.. إن زوجى يغار من محمد.. ولا أدرى لماذا أحسست بأن زوجى أصبح صغيراً عندما أحسست بغيرته من محمد.. صغير.. قزم.. هذا الرجل القوى.. القوى بحبى له.. يصغر أمام عينى..

ونظرت إليه فى دهشة..

ولم أتكلم..

وفى اليوم التالى هممت أن أحادث محمد فى التليفون.. ولكنى تراجعت أيضاً.. إنى لا زلت مصرة على ألا أغضب زوجى.. رغم أنه صغر فى عينى.. ولكن الفراغ يتكاثف من حولى.. ويزيد كثافته إنى لم أعد أستطيع أن أطلع زوجى على خواطرى.. ولا أستطيع أن أحدثه عن قلقى على محمد ، وخوفى عليه.. خوفى من أن يحطم نفسه!

وقاومت.. وقاومت.. ثم خيل إلىّ أنى أكون مجرمة لو تخليت عن محمد ، من أجل أوهام زوج ، أنا أعلم..ومتأكدة.. إنها أوهام كاذبة !

وفى إصرار وعناد أمسكت بسماعة التليفون ، وحادثت محمد..

وسمعت صوته باكياً ، حزيناً ، هفتاناً كأنه يلفظ آخر أنفاسه..

وبدأت أعالجه من جديد.. أعالج روحه.. أبث فيه القوة.. قوة حنانى.. وأزيح السحاب من أمام مستقبله.. وأستمع إلى أشعاره..

وبدأ حديثنا فى التليفون يطول..

كل يوم نتحدث..

بعد أن يخرج زوجى..

وكنت أشعر ببعض تأنيب الضمير بعد أن أحادث محمد.. كان ضميرى يثور لزوجى.. ولكن مع الوقت ، سكتت ثورة ضميرى.. بالعكس.. ازداد إيمانى بأنى أؤدى رسالة كبرى.. رسالة أم تأخذ بيد ابنها ، وتمده بحنانها..

ولكن..

محمد يريد أن يرانى..

إنه يصر إصرار الطفل العنيد على أن يرانى..

وفكرت أن أحاول إقناع زوجى ، بأن يصفح عن محمد ويدعوه إلى البيت حتى يرانى..

ولكنى لم أجرؤ..

كنت أعلم مدى عناد زوجى ، وكنت أعلم مدى ثورته كلما سمع عن لسانى اسم محمد.. ثورة مكتومة.. تنطلق فى كلمات ساخرة يعذبنى بها..

وأخيراً لم أستطع أن أقاوم..

كان يجب أن أرى محمد..

ليس من حقى أن أحرمه من رؤيتى.. من رؤية أمه.. من تلمس حنانى بعينيه.. لا يكفى أن يلمس حنانى بأذنيه أثناء حديثنا فى التليفون..

وذهبت إلى لقائه..

أين ؟

فى سيارته الصغيرة التى ورثها عن أبيه..

وقد كنت فعلاً فى شوق إليه.. كنت فى لهفة إلى وجهه الحزين.. حتى إنى قبلته فوق وجنتيه بمجرد أن جلست بجانبه فى السيارة.. قبلة سريعة.. بريئة.. قبلة أم..

وشىء بيننا يتغير..

إن عينيه الحزينتين فيهما شىء يريده أكثر مما تعودته..

ولمسة يده فيها رعشة دافئة ، لم أتعودها منه.

وكنت أعلم أنه من المستحيل عقلاً أن تلتقى أم بابنها هذا اللقاء الخطر.. وفى سيارة.. وكنت أعلم أن هناك شيئاً خطراً يقف بينى وبين محمد ، وهو تقارب السن بيننا.. إنى لا أكبره سوى بخمس سنوات.. بل إنه لا ينادينى أبداً بـ «طنط» ولكنه ينادينى باسمى.. اسم الدلع الذى اشتهرت به بين أفراد العائلة..

ورغم ذلك لم أكن أستطيع أن أبتعد عن الخطر.

لم أكن أستطيع أن أتخلى عن محمد..

استسلمت لما تريده عيناه..

واستسلمت للرعشة الدافئة فى يده..

وتكرر لقاؤنا.

أين ؟

ليس فى السيارة..

إننا نلتقى فى البيت.. بيتى.. بعد أن يخرج زوجى.. ودون أن يدرى !!

و.....

صدقونى.. إنى لا زلت أحب زوجى.. لا أستطيع أبداً أن أستغنى بمحمد عنه.. ولا أستطيع أيضاً أن أتخلى عن محمد..

كل ما زاد على حبى لزوجى ، أنى أصبحت ألومه على خطيئتى.. إنه هو السبب.. هو الذى جعل من رسالة أم.. خطيئة !!

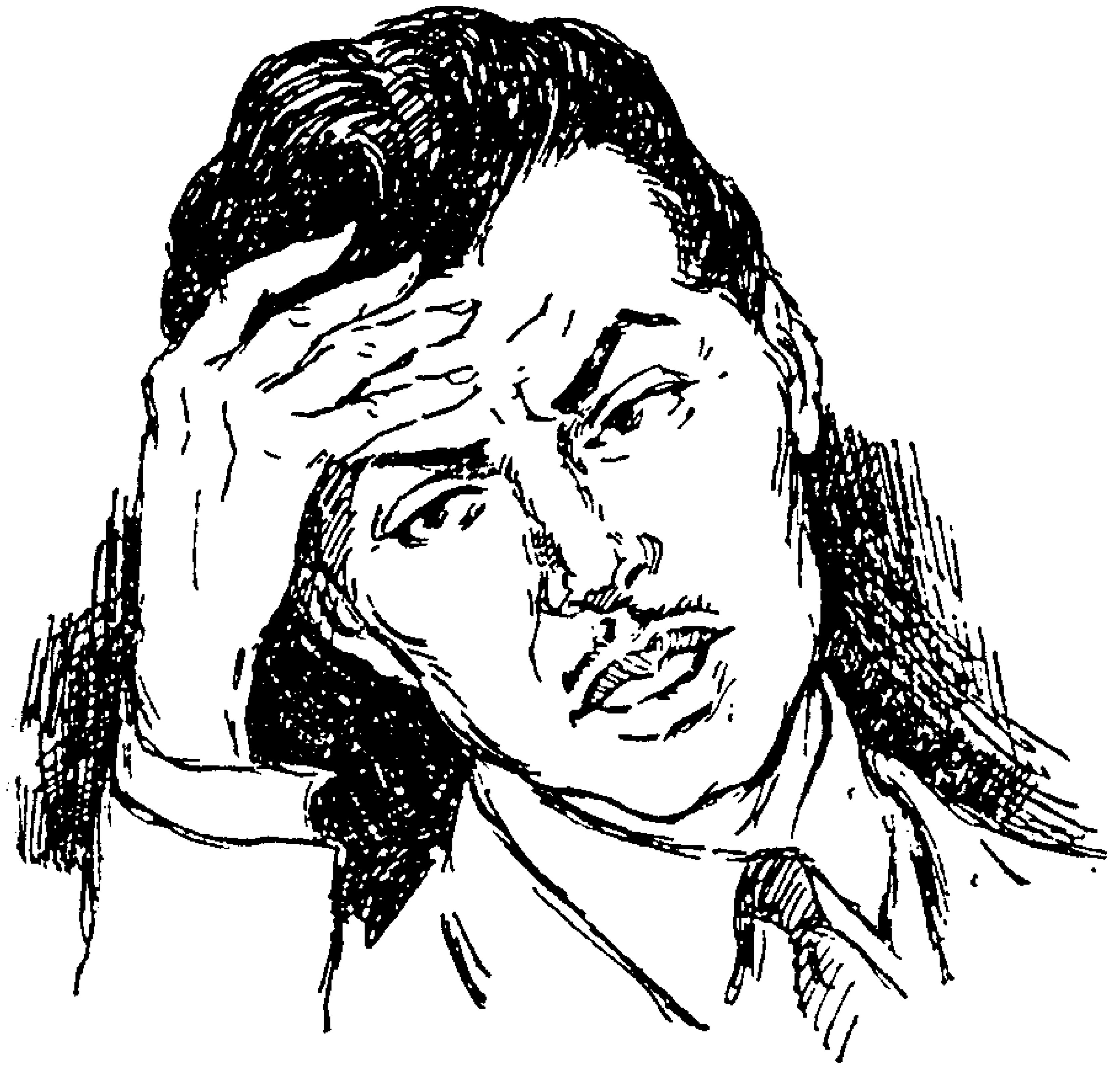

لماذا أعيش ؟

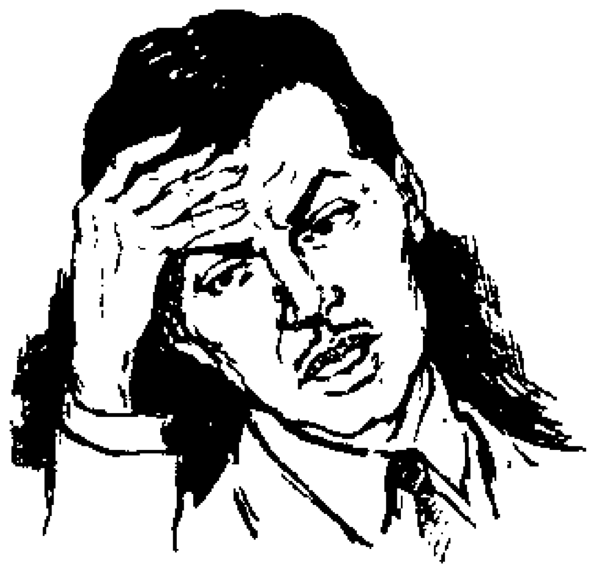

هل تعرفون نجم السينما ، محمود ؟!

طبعاً.. كلكم تعرفونه.. ولكنى أعرفه أكثر منكم.. أنتم تعرفونه إنساناً ساخراً ، سواء فى الأفلام التى يمثلها ، أو فى حياته العامة.. ولكنى أعرفه إنساناً حزيناً قاتماً.. أنتم ترون منه ضحكاته ونجاحه ، وأنا أرى منه دموعه وفشله.. فشله فى نفسه..

إنى بالنسبة لمحمود أكثر من صديق.. لقد عشت فى كل أيامه.. أكثر.. لقد عشت فيه.

وكنت أعتقد دائماً أن نجاح محمود فى تمثيل الأدوار الساخرة الهازلة ، هو رد فعل عكسى لحالة الحزن النفسى القاتم التى لازمته طول عمره.. إنه يهرب من حزنه ، ومن الضباب الأسود الكثيف المتجمع فى صدره ، ليندمج فى دور الفتى اللاهى المنحل.. يندمج بكل كيانه.. بكل خياله.. بكل قواه التى تدفعه إلى الهرب من نفسه..

ولكنى لم أعرف أبداً سر حالة الحزن التى يعانيها.. ولا أعتقد أنه هو نفسه يعرف سرها.. وكنت أنسب هذه الحالة إلى عدة احتمالات..

ربما لأن أمه ماتت منذ كان فى الثانية من عمره.. وعاش مع أبيه الكاتب الكبير الأستاذ عبد العزيز رفعت.. عاش بلا أم.. يتنقل فوق صدر مربيات كثيرات ، كل منهن تبقى شهراً أو شهرين ثم تسرق شيئاً ، وتهرب.. فقد كان أبوه الأستاذ عبد العزيز فوضوياً فى تدبير شئون بيته إلى حد يغرى أى إنسان بسرقته..

وربما كان حزن محمود يرجع إلى خوفه الدائم من الفشل.. كان يخاف لدرجة أنه لم يكن يتكلم كثيراً حتى لا يفشل فى الكلام.. وهذا الخوف من الفشل سببه - فى نظرى - أنه لم يكن يتعمد النجاح.. لقد نجح فى كل خطواته بلا تعمد.. نجح ببساطة.. هو نفسه كان

يذهل بنجاحه ، ويتعجب له ، أكثر من الناس.. ووصل أجره عن الفيلم الواحد إلى أربعة آلاف جنيه ، وهو مذهول.. إنه لم يطالب أبداً بزيادة أجره ، كل ما هنالك أنه أسلم نفسه لتنافس المنتجين عليه.. ولو اتفق عليه المنتجون وأبقوا أجره فى حدود المائة جنيه - كما بدأ - لما أحس أنه غبن..

وربما كان هذا لنجاح الذى حققه محمود ، هو أحد أسباب حالة الحزن القاتم التى يعانيها.. فقد كان نجاحه يحرجه.. إنه إنسان حساس لدرجة أنه يخشى أن يجرح بنجاحه بقية زملائه.. يخشى أن يثير فى عيونهم نظرات الحسد.. ويثير فى نفوسهم الغيرة والكراهية.. وهو يشفق عليهم وعلى نفسه من الحسد ، والغيرة ، والمقت.. فيحاول أن يهون من قيمة نجاحه.. ويتواضع.. ويتمادى فى التواضع إلى حد الانطواء.. إلى حد الهروب من الناس.. كأن هذا النجاح يشوه وجهه إلى درجة أن يخفى نفسه حتى لا يتقزز الناس من شكله !!

وبعد هذا لا أدرى سبباً لحالة الحزن الدائم المصحوب بالملل والتشاؤم التى يعانيها محمود.. ليس هناك شىء ينقصه.. ولا ينقصه الحب.. كلكم تعرفون أن النساء من سن السادسة عشرة حتى سن الأربعين ، يذبن فى ابتسامة محمود ، ويتعلقن بخصلة شعره المدلاة بلا تعمد فوق جبينه.. وكلهن حاولن أن يصلن إليه.. وكانت مشكلته أن يهرب منهن ، لا أن يصل إليهن.. لم يكن هروبه من النساء غروراً منه أو تعاليا عليهن ، ولكنه كان يعتقد أنهن مخدوعات فيه.. وأنهن يجرين وراء وهم تثيره فى رءوسهن الشخصية المرحة اللاهية التى يمثلها على الشاشة.. وكانت المرأة أو الفتاة التى تستطيع أن تصل إليه ، تستطيع أن تأخذ منه كل شىء.. كل ما تريد... قد كان من الطيبة ، والضعف إلى حد أنه لا يستطيع

أن يقول : لا.. لا يستطيع أن يرفض.. كل ما يستطيعه هو أن يهرب..

وقد استطاعت واحدة أن تتزوجه.. لم يحبها.. وأنا واثق أنه لم يحبها.. ولكنها لاحقته ، وسدت في وجهه كل أبواب الهرب منها.. فتزوجها.. وأنجب منها ولده طارق.. وكان ذلك منذ سبعة عشر عاماً ، عند أول ظهوره في السينما.. ولم يدم هذا الزواج أكثر من عام ونصف.. ثم طلقها.. لم يطلقها.. ولكنها خرجت من البيت يوماً ولم تعد، ثم أرسلت له تطلب الطلاق.. ولم يناقشها.. طلقها بلا مناقشة..

ومحمود يعيش الآن مع أبيه الأستاذ عبد العزيز ، وابنه طارق.. ومجموعة من الخدم ، على رأسهم الأسطى سيد الطباخ ، الذى مضى عليه فى خدمة محمود أكثر من عشر سنوات ، وأصبح بمثابة مدير المنزل.

والثلاثة يعيشون عيشة غريبة..

يعيشون كثلاثة من الغرباء.. كل منهم منزو فى غرفته.. والثلاثة يربطهم هذا الخيط من الحزن القاتم ، والملل.. الذى لا أدرى سببه..

الأب.. أصبح الآن فى الثانية والسبعين من عمره.. وقد انقطع عن الكتابة والنشر منذ أكثر من سبع سنوات.. ونظم أوقاته بحيث أصبح كبندول الساعة.. ويهوى جمع قطع الفخار القديمة..

ومحمود.. يعود من الاستديو ، ويشرب ثلاثة كؤوس من الويسكى.. ويسرح.. إنه يستطيع أن يقضى العمر كله سارحاً.. وأحياناً يقف أمام المرآة ، ويحادث نفسه.. لقد ضبطته يوماً يضرب نفسه المنعكسة فى المرآة..

وطارق.. رغم صغر سنه... فهو فى السادسة عشرة.. منزو هو الآخر فى غرفته.. لا يلعب كبقية الصبيان.. ويقرأ كثيراً.. ولا يتكلم كثيراً..

والثلاثة لا يلتقون فى البيت إلا لقاء عابراً.. لكل منهم مزاجه الخاص.. ولكل منهم نظامه الخاص.. وكل منهم حدد موعداً لوجبات

طعامه.. ولأصناف الطعام التى يفضلها..

وليس معنى هذا أنهم يتعمدون الابتعاد بعضهم عن بعض ، أو أن كلاً منهم لا يطيق الآخر.. أبداً.. إنى لم أشعر بعائلة تحب بعضها بعضاً قدر عائلة محمود.. بل إنك تستطيع أن تشم رائحة الحب ، والطيبة ، ونظافة القلب بمجرد أن تدخل البيت.. بل إنى أعتقد أن انزواء كل منهم عن الآخر ، هو نوع من الحب المتجرد من الأنانية.. كل منهم لا يريد أن يفرض نفسه على الآخر ، فيتركه لطبيعته ، ومزاجه..

وأنا أحب محمود.. وأحب عائلته.. وأحب بيته.. إنى هناك كل يوم ، كواحد منهم.. ومن حقى أن أحاسب الأسطى سيد ، وأطمئن إلى حسن إدارته للبيت.. ثم أدخل إلى غرفة محمود ، وأجلس معه ساعات.. أو إلى غرفة عمى عبد العزيز - كما أناديه - أو أجلس مع ابنه طارق ، لأطمئن على مواظبته على الدروس.. وإن لم يكن فى حاجة إلى اطمئنانى ، لأنه كأبيه ، ينجح بلا تعمد.. ببساطة..

وفى يوم.. دخلت إلى محمود فى غرفته.. وكان جالساً فى المقعد الكبير المريح ، وكأس الويسكى أمامه.. وقد شمر أكمامه عن ساعديه.. ووجهه يائس حزين.. وعيناه مكفهرتان ينظر بهما إلى رسغه..

وقلت وأنا أبتسم فى حنان :

- فيم تفكر ؟

وأجاب بصوت خفيض دون أن يرفع رأسه :

- فى الانتحار..

وأخفيت جزعى ، وقلت ببساطة كما تعودت أن أناقش نزوات محمود :

- لماذا ؟

قال كأنه يخاطب نفسه :

– عشت ما فيه الكفاية..

قلت :

– ليس هناك كفاية من الحياة..

قال :

– إننا لا نعيش لمجرد الحياة ، إننا نعيش لهدف.. ولم يعد لى هدف..

قلت :

– إنك فنان ناجح ، وهدفك أن تستمر فى النجاح..

قال :

– إنك تقيس ناجى بما وصلت إليه.. والاستمرار فى النجاح كما تعتقده ، هو أن أستمر كما أنا.. والاستمرار ، هو تكرار.. والتكرار لا يمكن أن يكون هدفاً.. التكرار هو بمثابة أسطوانة مشروخة ، وتقع الإبرة فى الشرخ ، فتردد الأسطوانة نفس النغمة.. نغمة مملة.. مزعجة.. وأنت تريدنى أن أكون أسطوانة مشروخة.

قلت :

– إنك تستطيع أن تدفع الإبرة فوق الشرخ ، فتعود الأسطوانة تطلق أنغامها الحلوة..

قال فى حدة :

– نفس الأنغام التى مللتها.. اسمع.. إن الفن عبارة عن عامود أملس منتصب فى الهواء ، ونحن نحتضنه بذراعينا ونتشبث به بساقينا.. ونرتفع وكل سنتيمتر نرتفعه نخشى أن نتزحلق فوق العامود ونهوى.. وننظر إلى أعلى.. فنجد العامود طويلاً.. لا نرى قمته.. ولكن بعضنا يراها.. ثم يمد بصره فوق القمة ، فماذا يجد وراءها... يجد فراغاً.. وأنا أخشى فى كل سنتيمتر أن أتزحلق وأسقط.. وأخشى أن أستمر فى الصعود لأنى لا أريد أن أصل إلى

الفراغ.. ثم لا أستطيع أن أقف حيث أنا ، لأنى بذلك أفقد الهدف.. خير لى أن أنتحر..

قلت :

- ولكن...

وقاطعنى :

- ناقشنى بعقلك لا بعاطفتك.. واقتنع معى أن خير وقت كى أموت هو الآن.. إن كل يوم أعيشه بعد ذلك هو عالة على الماضى.. كأنى أستجدى الناس أن يشفقوا على فنان لا يقدم لهم جديداً.. كأنى أفرض عليهم ضريبة.. أو معاشاً لى.. لأنى كنت يوماً فناناً..

قلت :

- ولكن الناس تحبك..

قال :

- الناس لا تحب الفنان ، ولكنها تتفرج عليه.. وتدفع ثمن تذكرة الفرجة.. وهى تتفرج عليه يوماً بيوم.. ليس من حق الفنان أن يتعاقد مع الناس على أن يتفرجوا عليه ، ويعجبوا به لمدة عشر سنوات أو عشرين سنة.. أبداً.. يوماً بيوم.. وفى كل يوم يخشى أن يطل الملل من عيونهم.. وفى كل يوم يرهف سمعه للأكف التى تصفق ليتأكد أنها ليست أقل حماساً من الأمس.. وفجأة يختفى الناس.. ويختفى التصفيق.. فجأة كالسكتة القلبية.. لأن الفنان وصل إلى مرحلة تكرار نفسه.. لم يعد شيئاً جديداً.. ولم يعد يستطيع أن يتسلق العامود الأملس.. لا يا أخى.. إن الناس لا تحب الفنان.. إنهم أقسى على الفنان منهم على الحلاق مثلاً.. لأنهم يسمحون للحلاق أن يكرر نفسه طول حياته.. ولا يسمحون للفنان بأن يكرر نفسه..

و.......

ولم تنته مناقشتنا إلى شىء.. لم أستطع أن أخفف من تشاؤم

محمود.. والواقع أنى لم أكن أخشى على محمود من أن يقتل نفسه.. فإن الذى يقتل نفسه، لا يفكر فى قتل نفسه .. ومادام محمود يفكر فهو لن يقتل نفسه.. ولكن التفكير فى الانتحار.. مجرد التفكير.. هو علامة الانسحاب من الحياة.. علامة تغلب السلبية على الإنسان.. حتى لو لم يقتل الإنسان نفسه.. وأنا لا أريد لمحمود أن ينسحب من الحياة.. ولا أن يكون سلبياً ، على الأقل بالنسبة لنفسه.

واحترت ماذا أفعل..

ومرت أيام طويلة ، لم أفعل فيها شيئاً لأساعد محمود فى أزمته.. وكان تعودى على مظهره الحزين القاتم كلما انفرد بنفسه سبباً فى تخففى من إحساسى بأزمته..

ثم كان يوم آخر..

ودخلت إلى حجرة عمى عبد العزيز ، والد محمود.. وجلست معه وقطع الفخار القديم المكسر تملأ الأرفف ، والأرض ، وتصل أكوام منها إلى السقف... وتحدثنا طويلاً.. وحديث عمى عبد العزيز ، حديث حلو فكه ، دائماً.. ولكن.. فجأة.. قطع عمى عبد العزيز حديثه الفكه.. وقال لى وهو يتنهد ، وابتسامته لا تزال بين شفتيه :

– أتدرى ماذا يحيرنى منذ مدة ؟

قلت :

– ماذا ؟

قال :

– إنى حائر.. لماذا أعيش ؟

وانخلع قلبى ، وقلت :

– هناك ألف سبب للحياة.. الطبيعة الحلوة.. انتظارك مشهد الشروق والغروب.. الموسيقى.. الأدب.. ابنك محمود.. حفيدك طارق.. كل هذه أسباب تكفى لتعيش ، وأن تنعم بحياتك..

قال فى يأس :

- هذه كلها أشـياء قد أكون فى حـاجة إليها ، ولكنهـا ليست فى حاجة إلىّ.. لا الشروق ولا الغروب رغم جمالهما فى حاجة إلى.. ولا محمـود ولا طارق فى حاجة إلى.. ونحن نحيـا لأن هناك من يحتاج إلى حيـاتنا.. فإذا لم يكن هـناك من يحتاج إليـنا فلماذا نعـيش.. لقد انتهت مهمتنا فى الحياة.. والدبور يمـوت بمجرد أن تنتهى مهمته فى الحياة.. والفيل عندما يشـيخ ينسحب من الحياة ، وينزوى فى كهف إلى أن يموت من الجـوع ، لأنه يعلم أنه لم يعد هناك سبب للحـياة ، وأنه لم يعد يستحق أن يزاحم الشبان.. وبـعض القبائل البدائية تقتل شيوخـها عندما يصلون إلى سن العجـز.. تقتلهم دون أن تكرهـهم.. ولكن فقط تطبـيقاً لمنطق الحيـاة.. وأنا الآن عجوز.. لا أعطى شـيئاً.. وليس هناك من ينتظر منى أن أعطى شيئاً..

قلت :

- لقد أعطيت الكثير ، وأصبح من حقك أن تستريح..

قال :

- أنا لا أشعر بالراحـة ، ولكنى أشعر بالعجـز.. وأشعر بنظرات الإشـفـاق والرثاء فى عـيـون الناس.. لقـد دفـع لى الناس ثمن مـا أعطيتهم.. دفـعوا ثمن مقالاتى وقصـصى.. ولكنهم الآن يدفعون لى رثاء وشفقة.. ولا يمكن أن نعيش من أجل رثاء الناس..

قلت :

- ولكن..

قال :

- أتدرى لماذا أجمع قـطع الفخار المكسـور.. لأنى أشفق عليـها.. لأنها تذكرنى بنفسى.. لقد كانـت كل قطعة تؤدى يوماً خدمة.. كانت قلة.. أو زيراً.. أو وعاء.. أو تحفة.. ثم أصبحت قطعاً من الطوب ملقاة

فى الجبل.. بلا ثمن.. بلا قيمة.. وأمسك بكل قطعة وأكاد أبكى.. لقد كانت هذه القطعة يوماً شيئاً هاماً فى حياة الناس.. مثلى..

و.......

وأيضاً لم أصل من مناقشتى مع عمى عبد العزيز إلى شىء.. وازددت هلعاً.. لا يمكن أن يكون الابن وأبوه يفكران فى الموت ، فى نفس الوقت.. ثم كدت أجن ، عندما جلست مع طارق.. لقد رفع إلىّ عينين تحملان هماً أكبر من سنه ، وقال لى :

– قل يا عمى.. لماذا يحرم الله الانتحار ؟..

وشهقت ، وبلعت شهقتى بسرعة ، وقلت :

– لأن الله منح الحياة ، ومن حقه وحده أن يستردها..

قال :

– إذا كان الله قد منح الحياة ، فلماذا لا يتمم جميله ، ويتولاها..

قلت :

– ماذا تقصد ؟

قال :

– أقصد.. والله قادر على كل شىء ، فلماذا يترك بعض الناس أقوياء ، وبعضهم ضعفاء ، ولماذا ينجح البعض ، ويفشل البعض ، ولماذا بعضنا أغنياء ، وبعضنا فقراء.. لماذا لا يولد كل منا وفى رقبته لوحة مكتوب عليها ما قرره له الله.. هذا المولود سيكون وزيراً.. وسينجح.. وينعم.. وهذا سيكون كاتباً مشهوراً.. و.. و.. ثم يتولى الله وضع كل منا فى مكانه الذى قرره له..

قلت :

– إن الله منح كل فرد عقلاً وإرادة ، وتركه حراً فى استعمال إرادته وعقله.. فإما أن ينجح وإما أن يفشل..

قال :

- لماذا.. ماذا يعود على الله من اختبارنا.. ثم هو الذى يحدد لكل منا مدى قوة إرادته ، ومدى قوة ذكائه.. فلماذا يحاسبنا بعد ذلك.. ولماذا يترك الضعيف ضعيفاً..

قلت :

- ألا تؤمن بالحرية..

قال :

- نعم..

قلت :

- إن الله يؤمن أيضاً بالحرية.. وقد منحنا الحرية حتى يحدد كل منا مصيره.. ولا أعتقد أننا نولد وهناك فرق بيننا فى الذكاء والإرادة، ولكننا نحن باستعمالنا لهذا الذكاء وهذه الإرادة ، الذين نحدد تصرفاتنا..

قال فى يأس :

- لست مقتنعاً.. لا أريد أن أعيش حياة لا ذنب لى فيها..

ولا أريد أن أسير فى طريق لا أعرف نهايته.. إنى أتعذب.. وأخاف.. أتعذب لأنى أحس بعجزى عن مخالطة الناس.. وأخاف أن أفشل فى أن أكون إنساناً ناجحاً كأبى أو كجدى.. إنى أريد أن أموت..

و.......

وانخلع قلبى.. لم أكن أدرى أن الثلاثة يعانون كل هذا العذاب.. وكان يجب أن أفعل شيئاً.. كان يجب أن أنشلهم من هذه المناشير التى تنشر فى نفوسهم وفى أعصابهم..

ومضت أيام وأنا لا أدرى ماذا أفعل.. أيام طويلة.. وقد أصبحت أرى الثلاثة خلالها ، أشد حزناً وأكثر انطواء.. وأصبحت أجرى إليهم كل صباح وأنا خائف من مصيبة..

ثم اتخذت قراراً..

ذهبت إلى الأب ، وقلت له فى لهجة جادة خطيرة :

- اسمع يا عمى.. هناك موضوع هام يجب أن أحدثك فيه.. إن محمود يفكر فى الانتحار..

وانفتحت عينا الأب على سعتهما ، وقال فى هلع :

- ماذا تقول ؟

وكررت :

- محمود يفكر فى الانتحار.. وليس المفروض أن أقول لك هذا النبأ.. ولكنى لا أدرى ماذا أفعل..

وصرخ الأب :

- إنه مجنون.. إنه لا يزال فى الأربعين من عمره ، وقد كنت فى هذه السن أشرب من الحياة ولا أرتوى.. بل إنى الآن ، وقد جاوزت السبعين ، أستطيع أن أجد ألف سبب للحياة.. إنى أستطيع أن أقنعه وأنا فى السبعين بأنى أستطيع أن أنتج شيئاً جديداً ، أمنحه للناس.. أستطيع أن أتقدم.. أن أبنى.. إن البناء لا نهاية له.. هذا المجنون.. إن تفكيره فى الانتحار ، معناه اليأس.. وسأعلمه أن لا يأس مع الحياة..

وذهب الأب إلى ابنه ، وقال له فى لهجة قوية ، كلها إصرار وثقة:

- اسمع.. إنى سأكتب قصة جديدة.. سأقول لك موضوعها لأنى أريدك أن تجمعنى ببعض المنتجين.. إنها قصة سينمائية..

وبدأ الأب وابنه يجتمعان لمناقشة القصة..

وبعد أيام ذهبت إلى محمود ، وقلت له :

- اسمع يا محمود.. أريدك أن تنسى كل شىء لنتفاهم فى موضوع خطير..

قال فى بساطة :

- ما هو ؟

قلت :

– طارق يفكر فى الانتحار.. ولم يكن مفروضاً أن أقول لك.. ولكنى لا أدرى ماذا أفعل..

وصرخ محمود :

ينتحر.. طارق ينتحر.. إنه مجنون ولا شك.. إنه لم يجرب بعد لذة الحياة.. لذة العمل.. لذة النجاح.. إن أيامى كلها لذيذة ، لأنها كلها أيام عمل.. إن مجرد العمل كاف للتمسك بالحياة.. هذا المجنون.. يجب أن يجرب العمل.. إن المدرسة لا تكفيه ، لأنه أكبر طموحاً وهو فى هذه السن من أن يكون مجرد تلميذ.. إنه موهوب ، وقد قرأت له قصة تصلح للإذاعة.. سآخذها منه وأمثلها بنفسى ، ليعرف لذة العمل.. لذة الحياة..

واندفع محمود نحو ابنه طارق ، وأخذ يناقشه فى قصته..

وانقلب جو البيت كله..

أصبح البيت عملاً.. وحماساً.. واجتمع الثلاثة يناقشون عملهم.. ويعرقون.. ويضحكون.. وينجحون..

والفيلم الأخير الذى مثله محمود ، وضع قصته والده ، الكاتب الكبير الأستاذ عبد العزيز رفعت ، واشترك فى وضع السيناريو ابنه طارق..

وكل ما فعلته أنا ، هو أنى جعلت كلاً منهم يعيش للآخر..

كل جيل يمسك بيد الجيل الثانى.. ويعيش له..

وهم يحبوننى..

وأنا أحبهم..

أريد أن أقتل

هذه ليست قصة.. إنها قطعة من ذكريات صديق..

■ ■ ■

عام ١٩٥٣..

وكنت ضابطاً فى الجيش ، برتبة «يوزباشى».. أحد الضباط الأحرار..

وعينت بعد عام من الثورة ، ضابط اتصال لدى القوات البريطانية التى كانت تحتل منطقة القنال.. ومقر عملى : السويس..

وكانت هذه هى مهمتى الرسمية..

ولكن..

كانت لى مهمة أخرى أهم.. مهمة سرية.. هى تدريب الفدائيين على أعمال التخريب داخل معسكرات الجيش البريطانى..

كنت فى الصباح أذهب إلى مقر قيادة الجيش البريطانى.. مبتسماً.. هادئاً.. مهذباً.. وأناقشهم فى المسائل المعلقة بينهم وبين القوات المصرية.. حريصاً على إبداء روح التعاون ، والتفاهم !!

وفى المساء ، أذهب إلى الجبل ، وأدرب الفدائيين.. أدربهم على التسلل.. وعلى تخطى الأسلاك الشائكة.. وعلى مقاومة الكلاب البوليسية.. وعلى التخفى.. وعلى توزيع المنشورات.. و.. وعلى القتل.. القتل بالخنجر.. والقتل بالمدفع.. والقتل بالمسدس.. القتل بلا صوت.. والقتل بصوت..

ومرت أيام..

واكتسبت صداقة ضباط القيادة البريطانية ، وثقتهم !!

واستطعت أن أدرب قوة من الفدائيين أشاعت الرعب فى معسكرات الإنجليز كلها.. وكانت الأوامر قد صدرت إلينا بالتركيز على سرقة سيارات اللورى التابعة للجيش البريطانى ، فاستطعنا أن

نسرق ثمانى وعشرين سيارة فى شهر واحد ، دون أن يكتشف الإنجليز منظمتنا ، ودون أن يقع منا أحد..

وكانت الخطة التى نتبعها فى سرقة السيارات.. بسيطة.. سهلة.. كنا نضع عائقاً فى طريق الإسماعيلية ، البرميل... ثم نعد كميناً على جانب الطريق.. وتأتى سيارة الجيش البريطانى ، ويضطر السائق إلى تهدئة السرعة ، وفى لمحة خاطفة يخرج الفدائيون من الكمين ، ويقفزون داخل السيارة ، ويقتلون السائق.. بالخنجر.. بلا صوت.. ثم يقودون السيارة إلى ورشة سرية ، فيتغير لونها فى الحال.. ونعلق فيها نمرة من نمر الجيش المصرى ، ويتولى قيادتها جندى مصرى بثيابه الرسمية ، ويقودها مطمئناً إلى القاهرة..

وأتلقى أخبار كل عملية ناجحة فى فرح.. ويقص على الفدائيون تفاصيل كل عملية.. كيف وضعوا العوائق.. وكيف قفزوا داخل السيارة.. وكيف طعنوا السائق.. هل كانت الطعنة فى قلبه أم فى جنبه.. أم فى عنقه.. و...

وفجأة اكتشفت شيئاً فى نفسى..

اكتشفت أنى إلى الآن لم أقتل أبداً..

لم أجرب القتل..

إنى أدرب الفدائيين على القتل.. وأعرف جيداً كيف أسدد الطعنة.. وكيف أطلق المسدس ، والمدفع.. ولكنى لم أقتل.. لم أجرب القتل..

هل أستطيع أن أقتل ؟

إنى أعلم أنى ضابط ممتاز.. كل تقارير رؤسائى تشهد بذلك.. وكل ضباط القيادة يعهدون إلىّ دائماً بمهام تتطلب جرأة خاصة..

ولكن هل أستطيع أن أقتل ؟!

من يدرى.. ربما ارتعشت يدى إذا هممت يوماً بقتل عدو.. ربما خفت.. أو ارتبكت.. وطاشت الرصاصة.. أو سقطت الطعنة ضعيفة

هزيلة.. لا تصل إلى القلب.. كيف أعرف أنى أستطيع أن أقتل ، إذا كنت لم أجرب القتل ؟!!

وبدأت ثقتى فى نفسى تهتز..

موجات من القلق تغرقنى..

ولا أنام..

وكنت عادة لا أنام إلا بعد الساعة الخامسة صباحاً ، فى انتظار انتهاء عمليات الفدائيين ، وترحيل السيارات المسروقة إلى القاهرة.. ولكنى أصبحت لا أنام ، من القلق.. قلق نفسى مريع.. لقد فقدت ثقتى بنفسى كضابط ممتاز.. إن الضابط لا يكتمل إلا إذا خاض معركة.. وإذا خاض معركة فلابد أن يقتل عدواً له.. وأنا لم أخض معركة.. ولم أقتل.. كيف أثق أنى ضابط ممتاز !!

وكان الحل الوحيد هو أن أشترك بنفسى فى «طلعة» من «طلعات» الفدائيين كى أقتل..

ولكن..

كانت الأوامر المشددة الصادرة إلينا ، تقضى ألا يشترك الضباط فى عمليات الفدائيين تجنباً لاحتمال أن يقع واحد منهم فى يد الإنجليز ، فيكون دليلاً على أن تنظيم الفدائيين هو تنظيم تابع لمجلس الثورة. وتثار أزمة سياسية ، كان من الأفضل ألا تثار فى هذا الوقت.

ولأول مرة أتململ من أوامر القيادة..

والقلق يأكل من صدرى..

وأنظر إلى الفدائيين وهم فى طريقهم إلى المعركة.. وأحسدهم.. أشعر - رغم أنى مدربهم - بأنهم أكبر منى.. وأنى أصغر منهم..

وفى هذا الوقت بالذات توطدت الصداقة بينى وبين الكابتن بيللى.. ضابط شاب من ضباط القيادة البريطانية.. وأصبحت صداقة

خارج دائرة العمل.. كنا نتقابل فى بار الفندق.. ونتحدث كصديقين.. كان يحدثنى عن الفتاة التى يحبها.. وعن بيته فى ضواحى لندن.. وعن أمه وأبيه.. وعن مستقبله .. كان حديثه حلوا .. رقيقا .. ضاحكا .. ولم أعد أشعر به كضابط من ضباط الأعداء.. كنت أحس به كإنسان ، يفيض بالأمل.. والحب.. إن له عائلة مثل عائلتى.. وأباً وأماً... وفتاة يحبها كما أحب فتاتى.. و..

ومن خلال نوبات القلق التى أعانيها ، قفز إلى رأسى تساؤل :

هل أستطيع أن أقتل بيللى ؟

وتطور السؤال إلى أبعد..

ما سر هذا الحب الذى أشعر به نحو بيللى.. ألا يمكن أن يكون هذا نوعاً من الضعف.. نوعاً من الاستعداد الداخلى للتهاون.. للتخفف من حماسى..

بل ما سر نجاحى كضابط اتصال ، واكتساب ثقة الضباط الإنجليز.. هل السبب هو ذكائى وقوة أعصابى.. أم هو استعدادى للتخفف عن حماسى الوطنى ، وإحساسى بثقل الكراهية التى أحملها لأعدائى..

وبدأ كل شىء فىّ يختل..

وأصبحت أجلس مع الكابتن بيللى وأنظر إلى عنقه لأحدد موضع الطعنة ، التى قد أطعنه بها.. وأنظر إلى صدره لأحدد مكان قلبه.. ثم أفيق من هذا الجنون لألتقى بابتسامة بيللى المرحة ، وحديثه عن الحب يملأ أذنى..

ولم أعد أطيق..

أكاد أجن فعلاً..

وكنت أعلم أن السبب هو أنى على وشك أن أفقد ثقتى فى نفسى كضابط ممتاز..

إنى لن أستطيع أن أؤدى واجبى ، إذا فقدت ثقتى بنفسى..

يجب أن أسترد ثقتى بنفسى..

يجب..

وفى لحظة.. قررت - لأول مرة - أن أخالف أوامر القيادة.. وليحدث بعد ذلك ما يحدث..

وهرعت إلى مكان تجمع الفدائيين.. وأنا فى ثيابى المدنية ، وخنجرى معى.. وذهبت معهم..

ووضعنا البرميل فى منتصف الطريق..

واختفينا على حافة الحقل المجاور..

ولمحت السيارة الإنجليزية قادمة من بعيد.. لم أرتجف.. ولم تزد ضربات قلبى ضربة واحدة.. كان عقلى يعمل فى هدوء.. ويتجمع ليحدد كل حركة.. ليصدر الأوامر إلى قدمى كى تقفز.. وإلى يدى كى ترتفع.. وكى تهوى.. و.. إن مركز أعصابى كله مجند الآن تحت أوامرى.. ليس فىّ عصب واحد متمرد علىّ..

واقتربت السيارة..

وهدأ السائق من سرعته أمام البرميل..

وانطلقت من عند حافة الحقل.. إنى أحس تماماً بكل خطوة.. بل إنى أستطيع أن أحدد مدى سرعتى... وقفزت.. فى نفس اللحظة التى قررت أن أقفز فيها.. وأصبحت فوق السائق ، وخنجرى مشهر فى يدى.. وطعنته فى عنقه.. فى المكان الذى اخترته أنا وحددته لأطعنه فيه.. لم تكن طعنة عشواء.. وكنت أعلم أن الطعنة الأولى كافية للقضاء عليه.. ولكنى طعنته طعنة ثانية لأريحه من آلامه.. إنى لم أفقد إنسانيتى وأنا أطعن.. لم أتوحش.. لم أفقد سيطرتى على مركز أعصابى.. إنى أقوم بواجب أؤمن به.. بعملية لابد منها.. والطعنة الثانية لأريح الإنسان الذى قتلته من عذابه..

وانتهت العملية..

بلا ضجة..

وقدت السيارة بنفسى إلى الورشة السرية..

ونمت..

ألذ ليلة نمتها فى حياتى.. لم أنم أبداً بمثل هذا العمق اللذيذ..

وصحوت وأنا واثق أنى ضابط ممتاز..

استرددت كل ثقتى بنفسى..

وذهبت إلى مقر القيادة البريطانية ، مستجمعاً كل ذكائى.. وكل إرادتى.. وكل إيمانى بواجبى..

وبعد الظهر التقيت بالكابتن بيللى فى بار الفندق.. ولم أعد أنظر إلى عنقه.. ولا إلى صدره... لقد أفقت من هذا الجنون.. إنى أحبه.. أحبه كإنسان.. وحبى له لا يمكن أن يؤثر فى واجبى نحو وطنى..

وقلت له فى ثقة :

– بيللى.. يجب أن تجلو القوات البريطانية عن أرضنا حالاً..

قال مبتسماً ، وروح النكتة الإنجليزية تغلبه :

– ولماذا هذه السرعة :

– قلت :

– لأنى أخشى أن أقتلك يوماً ما..

قال مبتسماً :

– هذا صحيح.. وقد أقتلك أنا قبل أن تقتلنى..

قلت :

– هذا صحيح أيضاً.. ولكنى سأكون على حق.. أما أنت فلا أعتقد أنك ستكون على حق..

قال :

– هذه وجهة نظر..

وسكت قليلاً ثم قال :

– خسارة أن يقتل أحدنا الآخر..

قلت :

– خسارة كبيرة..

و........

وبعد شهر نقل الكابتن بيللى من مقر القيادة.. لأن رؤساءه اتهموه بالتدخل فى السياسة.. ومناقشة الأوامر..

المسئولية

ماتت أمي وأنا في التاسعة من عمري..

وأبي إنسان رقيق ، طيب ، مرهف الحس.. يعيش حياته كنسمة طرية.. كابتسامة طفل.. كعبير وردة.. لم يكن رجلاً مكافحاً ، أو مناضلاً.. كان مجرد موظف حكومي بسيط راض بنصيبه.. حتى في حياته الخاصة ، لم يكن يطالب بشيء ، أو يعترض على شيء.. كان يستسلم لأي شيء.. ويرضى بكل شيء.. وكان يشرب الخمر.. ولكننا - أمي وأنا - لم نكن نغضب منه عندما يشرب ، فقد كانت الخمر تزيده رقة ، وعذوبة ، وطيبة.. وكانت أمي تدلله كثيراً.. وترعاه وتخاف عليه كأنه طفل.. كأنه أصغر مني !

ووجدت نفسي بعد أن ماتت أمي ، مسئولاً عن أبي... لا أدري كيف أحسست بمسئوليتي عنه.. ربما كانت النظرة المسكينة الحائرة التي أطلت من عينيه يوم وفاة أمي.. نظرة الطفل التائه.. هي التي أشعرتني بمسئوليتي نحوه..

وقد حملت هذه المسئولية كاملة.. كنت أقوم من النوم مبكراً ، لأوقظه ، وأقف معه حتى يرتدي ثيابه ، وأطمئن إلى أنه تناول إفطاره ، ثم أودعه وهو في طريقه إلى عمله.. ثم..

ثم أذهب إلى المدرسة..

وقد كنا نسكن - أبي وأنا - وحدنا ومعنا خادمة عجوز.. وعمتي تسكن في بيت مجاور ، وكانت تزورنا كل يوم تقريباً لتطمئن على حالنا ، وتدبر لنا حياتنا.. ولكن جهود عمتي ، لم تعفني من مسئوليتي نحو أبي.. بل كبر إحساسي بالمسئولية مع الأيام.. وأصبحت وأنا في الثانية عشرة من عمري ، رجل البيت.. أصبحت كأني أب لأبي.. أنا الذي أمسك بالمصروف .. وأنا الذي أحاسب ..

وأنا الذى أذكر أبى بأنه فى حاجة إلى قميص جديد.. ثم أجلس فى الصباح أمسح له حذاءه.. وانتظره فى الليل إلى أن يعود من الحانة.. وأحياناً يتأخر فى عودته.. فأجزع عليه.. أخاف أن أفقده.. فأخرج فى الليل ، وأذهب إليه فى الحانة التى تعود أن يجتمع فيها بأصدقائه.. وأجده سعيداً رقيقاً.. يغنى.. وينظر إلىّ ، ويفرح بى، ويقبلنى ، وأقول له وأنا حريص على ألا أغضبه :

– أصلك وحشتنى يا بابا.. جيت أشوفك!!

ويفهم أبى.. وينهى مجلسه.. ويقوم معى ، ويستند على كتفى ، ونحن عائدان إلى البيت..

وقد اعترفت لى عمتى بأنى ، رجل.. واعتمدت علىّ فى تدبير حياتنا.. حياتى وحياة أبى.. وكل من كان يعرفنى ، كان يعتبرنى رجلاً.. فى العاشرة من عمرى والناس تعتبرنى.. رجلاً.. وأنا أعتبر نفسى.. رجلاً..

لا أذكر أبداً أنى كنت طفلاً ، أو صبياً..

لا أذكر أنى لعبت كما يلعب الصبية.. أو أن أحداً دللنى كما يدلل الصبيان.. أو كانت لى نزوات وأخطاء كبقية الصبيان.. كان الإحساس بالمسئولية يصحبنى دائماً.. وكان عقلى الصغير مشغولاً بحساب مرتب أبى.. ماذا دفعنا منه وماذا بقى.. وكان هذا الإحساس ينطلق على وجهى.. فكنت أبدو دائماً جاداً.. لم أكن ابتسم إلا قليلاً.. وغالباً لأبى.. ولم أكن أضحك.. لا أذكر مرة أن انطلقت منى ضحكة رائقة ، لا يعكرها إحساس بالمسئولية...

وقد عودنى هذا الإحساس بالمسئولية على أن أقتر على نفسى.. كان كل مرتب أبى فى يدى.. أنا الذى أضعه فى الدرج.. وأنا الذى أدفع نفقات الأكل ، وأجرة الشقة.. وأنا الذى أعطى لأبى مصروفه اليومى.. تماماً كما كانت تفعل أمى.. ورغم ذلك لم أحاول أن أعطى

لنفسى شيئاً إلا الضرورى.. لم أفكر فى أن أشترى لعبة.. أو قطعة شيكولاتة.. أبداً.. كان كل ما أحرص عليه بشدة ، هو أن يأخذ أبى مصروفه اليومى ، حتى لا أعكر عليه سعادته ، وحتى لا أحرمه من كؤوس الخمر.. وفى سبيل هذا الحرص ، كنت أحرم نفسى من الكثير.. بل إنى عودت نفسى ألا أشترى الكتب المدرسية، بل أذاكر فى كتب زملائى.

وكنت أنجح فى المدرسة.. وكان النجاح جزءاً من إحساسى بالمسئولية.. واستمر نجاحى ، حتى نلت شهادة البكالوريا.. واشتغلت كاتباً فى مصنع نسيج صغير.. واستطعت أن أوفر لأبى مصروفاً أكبر ، وسعادة أكبر..

وإحساسى بالمسئولية لا يضعف ولا يخفت..

حياتى كلها مشحونة بهذا الإحساس.. لا لهو.. ولا انطلاق.. ولا شباب.. فقط المسئولية..

وقد أصبحت مسئولاً عن عملى ، فاكتسبت ثقة صاحب المصنع.. ثم بدأت أعمل مندوباً تجارياً للمصنع.. أطوف على التجار لأبيع لهم منتجاتنا ، نظير عمولة.. وكسبت كثيراً.. ولكن حياتى لم تتغير.. وكل ما يبقى من كسبى أدخره..

وكانت ابنة عمتى فتاة طيبة ، ولكنها ليست جميلة.. مسكينة.. أنفها كبير جداً.. وأسنانها بارزة ، مكسرة... وساقاها رفيعتان هزيلتان بهما أثر من كساح قديم.. وقد كبرت معى... إنها أكبر منى بعام واحد.. وكان يجب أن تتزوج.. ولكن لا أحد يريد أن يتزوجها.. لا أحد يريد أن يحمل مسئوليتها.. والتفتت إلىّ العائلة.. لم يطلب منى أحد أن أتزوجها.. ولكنى أحسست بمسئوليتى نحوها.. نحو ابنة عمتى.. فتزوجتها..

وأبى أحيل إلى المعاش ، وأصبح عجوزاً.. ولا يزال رقيقاً ، طيباً ،

مدللاً.. لا يزال ابني.. ولا زلت أحرص كل يوم على أن أوفر له نفقات الحانة.. وعندما أصبح عاجزاً عن أن يذهب إلى الحانة ، أصبحت أشترى له زجاجة الكونياك ، وأضعها أمامه فى البيت..

وإحساسى بالمسئولية لا يضعف ولا يخفت..

حياتى كلها عمل.. وجد.. إنى لا أبتسم.. ولا أضحك.. ولا أنطلق..

وأصبح لى أولاد.... ولكن ابنى البكر لا يزال هو أبى.. وعندما مات أبى ، أحسست أنى فقدت ابنى البكر.. بكيت عليه كأنى أبكى ابنى.. كنت أمسك حذاءه الذى تعودت أن أمسحه بيدى ، وأبكى.. وأمسك قميصه وأبكى.. وألمح زجاجة الكونياك ، فيخيل إلىّ أنها زجاجة اللبن الذى كنت أرضعه بها.. وأبكى !!

وأفقت من بكائى لأواجه من جديد إحساسى بالمسئولية..

واستطعت أن أجمع من عملى ثروة.. ثروة لا بأس بها.. شاركت بها صاحب المصنع.. ثم اختلفت معه ، فأقمت مصنعاً للنسيج أملكه وحدى..

أصبحت فى الخمسين من عمرى ، وصاحب مصنع... غنى.. وأقيم فى بيت يطل على النيل.. وعندى سيارتان.. ولكنى لا أبتسم.. ولا أضحك.. ولا أنطلق.. إحساسى بالمسئولية لا يزال يملأ حياتى.. ورأسى مشحون بالمشاريع والأرقام..

وقد تعودت كل صباح أن أنزل من بيتى وأسير على شاطىء النيل لمدة عشر دقائق ، ثم تلحقنى سيارتى لتحملنى إلى المصنع.. وفجأة – وبينما أنا سائر على قدمى – سقطت عيناى على حجر صغير.. ولا أدرى ماذا حدث لى.. لقد تملكتنى – فجأة أيضاً – رغبة عارمة فى أن أشوط هذا الحجر بقدمى.. وحاولت بكل قواى أن أقاوم هذه الرغبة.. وتعديت الحجر فى سيرى.. ولكنى لم أستطع أن

أستــمر فى مقاومــتى.. عدت إليه.. إلى الـحـجر.. وضربتــه بقدمى.. وبكل قوتى..

وأحسست براحة ، وخـيل إلىّ أنى ابتسمت.. وعندما وصلت إلى مكتبى كنت أشــعر بنوع من السعــادة لم أشعر به من قبل.. ســعادة تفور فى صدرى ، كأنهــا فقاقيع ترقص فوق كأس الشــمبانيا.. ولم أستطع لفرط ســعادتى ، أن أبقى فى مكتبى.. خرجت قــبل موعدى.. ولأول مــرة فى حــياتى.. خــرجت كــأنى ذاهب لأبحث عن الـحــجـر الصـغيـر لأشوطه مرة ثانية.. ووجدت نفــسى أنزل من السيارة عند شــاطئ النيل.. وأمشــى قليلاً ، ثم أدخل فى أحـد المقــاهى المقامــة هناك.. وأطلب واحد كازوزة !!

هذا حدث كبير..

تطور كبير.. حدث فجأة..

وعدت إلــى البيت ، ولأول مــرة ، اكتشــفت أن زوجتى أقــبح مما كنت أعتــقد.. وحاولت أن أبتسم لأولادى ، ولكنى لم أســتطع ، فإنى لم أعــودهم علــى أن أبتــسم لهم.. ولكنى أريــد أن أبتــسم.. أريد أن أنطلق.. أريد شيئاً جميلاً فى حياتى..

ولم أســتطع أن أقــاوم طويلاً.. خــرجت فى المســاء.. وذهبت إلى الملهى.. الملهى الذى تجــدنى فيــه الآن كل ليلة.. وقد دخلتــه أول مرة كــالعبــيط.. كــالأبله.. وعلى شــفتى ابتــســامة ظـمأى.. ظمــأى إلى الابتسامة.. وبعد دقائق وجدت نفســى جــالساً بجانب فتاة.. جميلة.. وأمامى زجاجة ويسكى.. ودستة من زجاجات الشمبانيا..

و..

إن الناس تقــول عنى الآن ، إنى شيــخ عاهر.. طائش.. مــتهــتك.. ولكنى لا أشعر بأنى عــاهر ، أو طائش ، أو متهتك ، كل مــا أشعر به أنى أبدأ حياتى.. وأضحك !

قلب المضيفة

أنا مضيفة جوية..

منذ متى ؟

ربما منذ فتحت عينى ونظرت بهما إلى السماء.. فلم تكن السماء إلا مكاناً تطير فيه الطائرات.. ولم تكن الطائرات إلا مكاناً فيه مضيفات..

لقد عشت بخيالى كمضيفة قبل أن أصبح مضيفة.. كنت أقف طويلاً أمام إعلانات شركات الطيران.. وكنت أصنع لحقيبتى حزاماً طويلاً من الجلد أعلقه فوق كتفى ، وأسند يدى على الحقيبة عندما أمشى ، كما تفعل المضيفات.. وكنت أصنع قبعات صغيرة أميلها على جانب رأسى ، كقبعات المضيفات.. وكل ثيابى « تاييرات » ضيقة ، كالمضيفات.. وأنام وأصحو وأنا أحلم بشارة المضيفات فوق صدرى..

وأصبحت مضيفة..

ولم يكن صعباً أن أصبح مضيفة.. فأنا جميلة ، أجمل مضيفات الشركة.. ومثقفة.. أكثرهن ثقافة.. أجيد ثلاث لغات..

وقضيت شهراً أتلقى محاضرات فى عمل المضيفات.. وكنت ممتازة.. أشرب كلمات المحاضرة بأذنى ، وبعقلى ، وبعينى.. وأعود إلى البيت وأصف الكراسى فى صفوف منتظمة ككراسى الطائرات.. وأطوف بينها كأن على كل مقعد راكباً.. وأبتسم.. لقد قالوا لنا فى المحاضرة إن أول واجبات المضيفة أن تبتسم.. دائماً !

وأخيراً..

طرت..

ركبت الطائرة لأول مرة وأنا أحس بأنى على وشك أن أغزو العالم.. أغزو بيروت.. وروما.. ودسلدورف.. ولندن... و...

وانقضت الشهور.. ومات إحساسى بغزو العالم.. كل ما أحس به هو أنى أجرى.. أجرى.. أجرى.. حياتى كلها جرى.. أجرى فى القاهرة ، لألحق موعد الطائرة.. وأجرى فى الطائرة نفسها وأنا أقوم بخدمة الركاب.. وأجرى فى بيروت وأنا أنزل من الطائرة ، وأعود إليها.. وحقيبتى دائماً معى.. فيها قميص نومى ، والروب ديشامبر ، والشبشب ، وفرشاة الأسنان.. إن هذه الحقيبة أصبحت بيتى.. ليس لى بيت فى القاهرة ، ولا فى بيروت ، ولا فى لندن.. بيتى فى حقيبتى!

وليس لى أهل ، أعيش معهم..

أهلى هم ركاب الطائرة.. هؤلاء هم الذين أعيش معهم.. وهم أهل عجاب تتغير وجوههم وسحنهم فى كل رحلة.. ولكن لا تتغير أخلاقهم ولا طبيعتهم.. إن كل من يركب الطائرة يتطبع خلال الرحلة بطابع خاص يجمع كل الركاب.. قد يختلفون فى تصرفاتهم.. ولكنهم لا يختلفون فى أحاسيسهم.. أحاسيس الإنسان الطائر.. قد ينظر إلىّ واحد فى حياء وأدب ، وقد ينظر إلىّ الآخر فى وقاحة وقلة أدب ، ولكن الاثنين يجمعهما إحساس واحد ، وتدور فى رأسيهما فكرة واحدة ، أستطيع أن أتبينها فى وضوح ، مهما بالغ الأول فى حيائه ، ومهما بالغ الآخر فى قلة أدبه.. وقد يبدو أحد الركاب عصبياً خائفاً ، وقد يبدو الآخر هادئاً.. ولكن كليهما يفكر فى نفس الشىء.. يفكر فى أن الطائرة قد تسقط..

وهناك جدول يقسم فيه رجال الطيران ، طبيعة الركاب ، حسب جنسياتهم.. فالأمريكى كثير الأسئلة.. يريد أن يعرف كل شىء.. ويطمئن على كل شىء.. ويصمم على استدعاء كابتن الطائرة إذا رأى على جناح الطائرة نقطة زيت ، أو رأى شرارة نار تنطلق من المحرك.. والإيطالى يحاول أن يأخذ دائماً بحق التذكرة أكثر ما يستطيع.. فهو يأكل الوجبة كلها ويطالب بوجبة ثانية ، وثالثة ، إلى

أن تعتذر له المضيفة بأن الأكل انتــهى.. ويشرب الشمبانيا إذا قدمت له مجاناً ويكرهها إذا قدمت له بالثمن... ويتكلـم كثيراً.. تصيبه أثناء الرحلة حالة كـلام هستيرية.. والإنجليـزى.. والسويدى.. والهندى.. و.. و..

ولكنى لا أعتـرف بهذا الجدول.. إنهم كلهـم سواء.. كلهم يريدون أن يسألوا أسئلة كثيرة ، ولكن بعـضـهم يسأل ، وبعضـهم لا يسأل.. وكلهم يريدون أن يســتفيـدوا بثمن التـذكرة إلى أقصــى حد.. ولكن بعضــهم يخجل ، وبعضــهم لا يخجل.. و.. إنهم عـائلة واحدة.. أبناء السماء المعلقون فى الهواء.. عائلتى الوحيدة..

وشاهدت البلاد وأنا أجرى.. أجرى فى الشوارع.. وعندما تجرى فى بلد لا تشاهده ، ولا تحس به.. لا تشاهد إلا نفسك وأنت تجرى.. ولا تحس إلا بأنفاسك اللاهثة..

وتعبت..

تعبت من الجرى.. إن مهنة المضيــفة أقسى مما كنت أتصور.. إنها ليست مهنة الجمال والرشاقـة.. والزى الرسمى الأنيق ، والابتسامة الدائمة.. إنها مــهنة الجرى دائماً.. مهنة عـداء يطوف العالم.. والبنات اللاتى يلتحـقن بالعمل كـمضيفـات لمجرد التظاهر بالأناقـة والرقة ، يخيب أملهن.. وقد التحق معى بالعـمل خمس مضيفات لم يبق منهن فى العمل بعد شهرين ، إلا اثنتان ..

أنا واحدة منهما..

بقيت أجرى.. وابتسامتى أصبحت قطعة من وجهى !

و...

وأحببت وأنا أجرى..

لم أحب مليونيراً من ركاب الطائرات.. إن المليونيرات أصبحوا قلة بين الركاب ، وكلهم ثقلاء.. بل إنى لم أحب أحد الركاب.. لم أحب فى

السماء.. ولكنى أحببت على الأرض.. أرض القاهرة..

كان عـادل مهندسـاً معـمارياً.. طويـلاً.. وسيمـاً.. ينطق وجـهه برجولة عارمة مثيرة ، فرضت نفسها علىّ ، وسلبتنى كل مقاومتى.. رأيتـه أول مرة ، ثم جـريت لألحق بالطائرة.. وعدت بعـد ثلاثة أيام وصافحته ، ثم جريت لألحق بالطائـرة.. وعدت بعد يومين ، وقبلته.. وجريت.. و.. و..

كان هذا هو حبى..

حب يجرى..

لم يكن من حقـنا أن نعيش معـاً فى الحب كما تعـيش كل البنات والأولاد.. ليس هناك وقت للحـيـاة.. ليس هناك وقت لحـديث طويل متـصل نقطع به الأيام والشـهور.. ليس هناك وقت لـلمقـدمات ولا للدلال.. ولا للغـيـرة.. ولا للخـصام.. لقـد قـبلتـه أول مرة بمجـرد إحساسى بأنى أريد قبلتـه.. لم أفكر فى كتم هذا الإحساس.. لم أفكر فى أن أنتظره إلى أن أعـرفه أكثـر.. لم أفكر فى أن أتقل وأتدلل كـما تفعل بقية البنات.. خفت أن أطير ، قبل أن أقبله.

وحديثنا كان بلغـة التلغرافات.. كلمات سريعة متـقطعة ككلمات التلغراف.. حـدثنى عن أمه بتلغـراف .. وحدثته عـن أمى بتلغراف .. وحدثنى عن متاعـبه بتلغراف.. وحدثته عن متـاعبى بتلغراف.. دائماً حديثـاً سريعاً كأننا واقـفان على المحطة يودع أحدنا الآخـر.. ودائماً فى حالة عصبية.. كل شـىء بيننا عصبى.. حتى قبلاتنا عصبية..

ورغم ذلك ، فقد كـانت هذه الساعات القليلة التى أقضيـها معه ، هى كل راحـتى.. كنت ألقى نفـسى على صـدره ، وأتنهد فى راحـة كأنى وصلت إلى آخـر السباق.. ثم أفتـح عينى بعد لحظات لأستـعد للجرى من جديد..

ثم..

لم تعد هذه الساعة تكفى.. بدأت أشعر بالوحدة كلما بعدت عنه.. كلما طرت.. وأشعر بالحرمان.. والضيق.. وأصبحت أكثر عصبية مع الركاب.. وابتسامتى تكاد تقع من بين شفتى.. وأصبحت كلما هبطت فى بلد لا أطيقه.. ولا أهدأ فيه.. وأضطر أن أكون أكثر عنفاً مع نفسى.. وأكثر إقبالاً على السهر مع زملائى بقية طاقم الطائرة..

و...

وفى بيروت ، شاب يعمل فى المطار.. يقف كالمبهوت كلما رآنى.. ويبتسم فى بلاهة.. كان شاباً صغيراً.. جميلاً.. لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره.. وأحسست عندما رأيته لأول مرة ، أنى أريد أن أقف لأتفرج عليه ، كما أتفرج على ثوب جميل معروض فى أحد الدكاكين.. ولكنى لم أقف.. وسعت خطاى وأنا أجرى ، واستغنيت عن الفرجة على الثوب الجميل..

ولكنى أراه فى كل مرة أهبط فيها إلى مطار بيروت.. دائماً ينظر إلى كالمبهوت.. ويبتسم.. واضطررت فى إحدى المرات أن أرد ابتسامته.. ابتسمت له من كل قلبى... ابتسامة فيها كثير من الحنان والشفقة.. كأنى أعطيه صدقة..

واضطررت فى مرة ثانية أن أرد تحيته بهزة من رأسى..

ثم أصبحت كلما رأيته ، ألقى له بكلمتين.. تلغراف.. ثم أعود إلى الجرى..

وفى مرة طرت على خط القاهرة بومباى.. الرحلة تستغرق أربعة أيام.. وكانت أثقل أربعة أيام فى حياتى.. وكنت أريدها فى كل لحظة أن تنتهى.. لأعود إلى القاهرة.. إلى عادل.. وألقى رأسى على صدره.. وأتنهد.. وأستريح.. فقط هذه اللحظة التى أستريح فيها..

وما كادت الطائرة تصل مطار القاهرة ، وأنزل منها ، وبيتى فى يدى.. أقصد حقيبى.. حتى تقدمت منى رئيسة المضيفات وقالت

بأسلوبها الناعم الرقيق ، وابتسامتها تشق وجهها ما بين أذنيها :

- هناء.. علشان خاطرى.. اطلعى على طائرة بيروت.. ما عنديش حد ، كل المضيفات مشغولين.. أعمل إيه.. علشان خاطرى..

ولم أستطع أن أقول لا..

إن الرئيسة.. رئيستنا.. تعلم أنى لا أستطيع أن أقول : لا.

وطلعت على طائرة بيروت.. وروحى تطلع من حلقى.. ودموعى متجمعة تحت أجفانى.. دموع التعب.. والوحدة.. والحرمان..

وفى مطار بيروت رأيت صلاح واقفاً ينظر إلى كالمبهوت.. ويبتسم.. وقلت له بسرعة ، ودون أن أفكر :

- عندك عربية..

وانطلقت عيناه تزغردان فوق وجهه.. ولحق بخطواتى السريعة إلى سيارته.. وكانت المرة الأولى فى حياتى التى أقدم فيها على مغامرة..

لا..

لم تكن مغامرة..

إنها أقل من مغامرة..

وأكثر من مغامرة..

أقل من مغامرة ، لأنى لم أكن أريد من صلاح شيئاً يمكن أن يسمى مغامرة..

وأكثر من مغامرة.. لأنى أحببت صلاح.. أحببته فى نفس الوقت الذى أحب فيه عادل..

وكان هناك فرق كبير بين صلاح وعادل.. وفرق كبير بين حبى لصلاح ، وحبى لعادل..

صلاح.. كالطفل الكبير.. فيه رقة الطفولة.. وسذاجة الطفولة.. وغرور الطفولة.. وشقاوة الطفولة.. وحبى له فيه حنان كبير.. شىء

أشبه بالأمومة.. وفـيه عقل متزن.. عقل الأم.. وفيه مـتعة السيطرة.. سيطرة الأم على ابنها.. ومتعة الامتلاك.. وراحتى معه هى راحة الأم وهى تضم ابنها إلى صـدرها.. وأقبله.. قبلتى ليست قـبلة أم.. لكنها هادئة.. رقيقة.. حلوة.. فيها شىء من الأمومة..

وعـادل شىء آخـر.. إنه رجل.. فـيـه روعـة الرجل.. وسـيطرة الرجل.. وخشونة الرجل.. وحـبى له فيه كثـير من الضـعف.. ضـعف المرأة.. وفيـه استـسلام عـقلى.. وقلبى.. وفيـه عنف القبـلة.. وقوة الضغطة..

ولم أستطع أن أستغنى عن الاثنين..

كل منهما محطة وصول ، أتنهد فيها هذه التنهيدة التى تريحنى..

ووقعت فى عذاب الارتباك..

ارتباك عواطفى..

لم أكن أعـرف أين أنا. هل أنـا فى بيـروت ، أم أنا فى القـاهرة.. وأبدأ حديثـاً مع عادل لأتمه مع صلاح.. ولا أكاد أقـول عادل ، حتى أجد نفسى أقول صلاح.. وأغمض عـينى بين شفتى صلاح ، فأتخيل عادل.. وأغمضـهما بين شفتى عادل ، فأتخيل صلاح..

ولم أعد أدرى من أخون..

هل أنا أخون عادل ؟

أم أنا أخون صلاح ؟

ولكنى خائـنة.. شىء فى صدرى يؤكد لى أنـى خائنة.. ولأنى لا أريد أن أخون صلاح ، ولا أريد أن أخون عادل.. حرمت نفسى منهما الاثنين.. لم يـنلنى واحـد منهـمـا.. ولا أسـتطيع أن أمنـح نفـسى لأحدهما.. لا أستطيع.. مجرد أنى لا أسـتطيع.. جسدى ينتفض كلما تخـيلت أنه لواحد منهـما وليـس للآخر.. وكلمـا تخيلت أنى أخـون أحدهما مع الآخر..

وأنا فى العذاب منذ شهور..
أطير أربع مرات فى الأسبوع إلى صلاح..
وأعود أربع مرات فى الأسبوع إلى عادل..
وصلاح يريد أن يتزوجنى..
ولا أستطيع.. من أجل عادل..
وعادل يريد أن يتزوجنى..
ولا أستطيع.. من أجل صلاح..
لماذا لا أستقيل من وظيفتى..

لا أستطيع.. لأنى لا أستطيع أن أستقر فى القاهرة ، ولا أستطيع أن أستقر فى بيروت.. وليس هناك ما يربط بين القاهرة وبيروت سوى خطوط شركة الطيران.. وليس من حقى أن أطير إلى عادل ، أو أعود إلى صلاح.. إلا إذا كنت مضيفة..

وأجرى.. وأجرى.. أجرى بين قلبى فى بيروت.. وقلبى فى القاهرة..

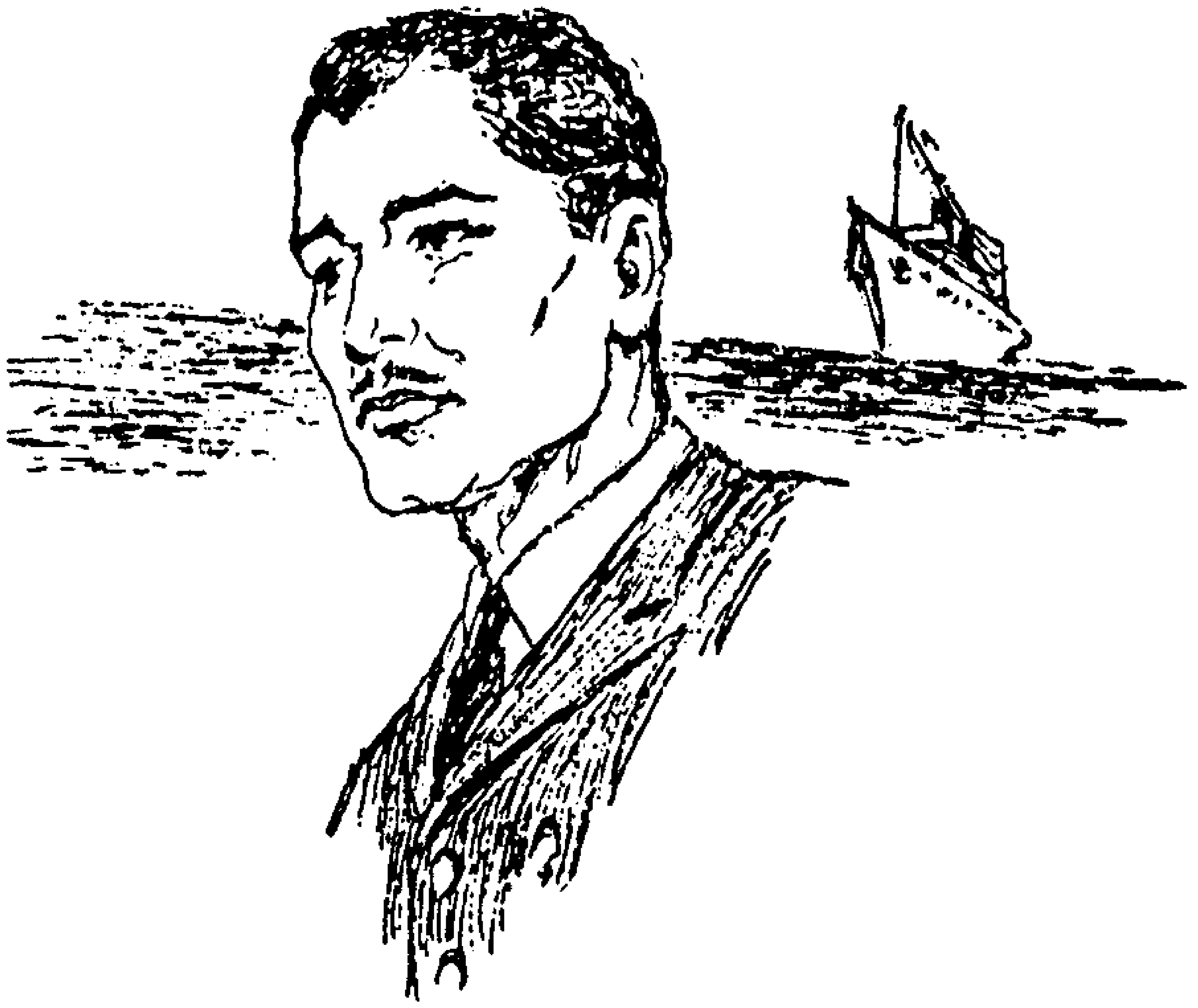

زواج البحار

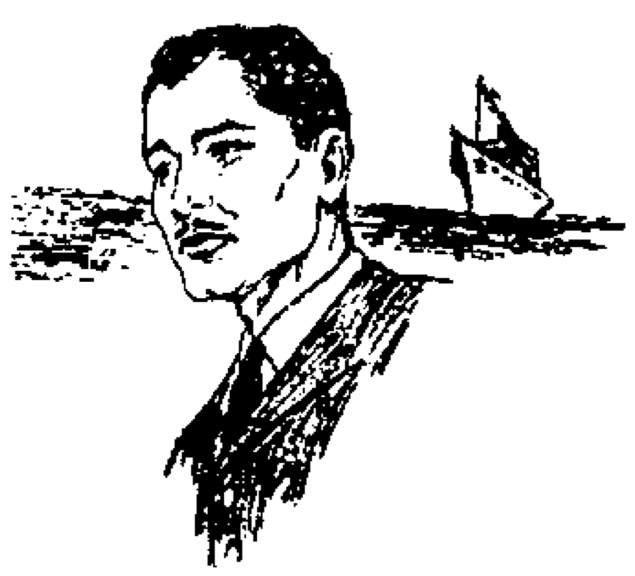

أنا ضابط فى البحرية التجارية..

هل ابتسمت ؟

لابد أنك ابتسمت.. ولابد أن خيالك قد انطلق منذ قرأت السطر الأول ، يرسم لك صورة شاب يرتدى البذلة الزرقاء ذات الأشرطة الذهبية.. ودماء الصحة والقوة تكتنز فى وجنتيه.. ويضحك. ويضحك دائماً.. ويطوف بمركبه بين الموانىء.. وله فى كل ميناء فتاة.. أو ربما زوجة.. وله فى كل يوم ليلة عربيدة !

إن هذا الخيال نفسه هو الذى دفعنى إلى أن أكون بحاراً.. منذ صباى وأنا أحلم بالبحر.. وأحلم بالبطولات.. سأصارع بمركبى الأمواج الهائلة.. سأكتشف جزيرة الكنز.. سأرفع كأسى فى الليل ، وأقول للقمر : فى صحتك.. وسأحتضن البنت السمراء التى سألقاها فى جنوة.. وأقبل البنت الشقراء فى برشلونة.. وأرقص الفالس فى لندن.. والسامبا فى ريو دى جانيرو..

وقد حققت لنفسى كل هذا الخيال.. ما عدا اكتشاف جزيرة الكنز!!

ثم فجأة.. بعد عامين من التحاقى بالبحرية.. اكتشفت أنى إنسان تعيس.. شقى.. محروم !

محروم من الحب..

وهذا الإحساس بالحرمان ، انتهى إلى إحساس كئيب بالوحدة.. والملل.. والفراغ.. أصبحت أحس كلما وصلت إلى ميناء ، أنى وصلت إلى حافة صحراء.. وأصبح زملائى على المركب يبدون لى كأنى لا أعرفهم.. وأصبحت أنظر إلى البحر كأنى أنظر إلى زوجة أكرهها.. وأصبحت أشرب الكأس لا لأضحك ، بل لأحاول البكاء..

وكنت أعرف ما أحتاج إليه..

إنى أحتاج إلى الحب..

وقد عرفت عشرات البنات.. من كل بلاد العالم.. وكان لى مع كل منهن مغامرة.. ولم يكن لى مع واحدة منهن لحظة حب..

واكتشفت شيئاً غريباً..

اكتشفت أنى أنا نفسى ، مع شدة حاجتى إلى الحب ، أقاوم الحب.. شىء فى نفسى يحذرنى من الحب.. ويلح علىّ ألا أحب.. فإذا التقيت بفتاة ، وبدأ قلبى يهفو إليها.. وبدأت أشعر بهذه الخفقة الحلوة المثيرة.. وبدأت أستريح وأهدأ بين عينيها.. سمعت صراخاً حاداً ينطلق من نفسى.. من صدرى.. لا تحب.. لا تحب.. وإذا بهذه الخفقة الحلوة المثيرة ، تنقلب إلى ضربات قوية عنيفة تشد أعصابى... وإذا بنظرتى الهادئة النظيفة ، تنقلب إلى نظرة شرهة نهمة متوحشة.. وإذا بقبلتى الناعمة التى تصل بين قلبى وقلبها ، تنقلب إلى عملية لعصر الشفاه تصل بين جسدى وجسدها..

وأقضى ليلة مغامرة..

بلا حب..

والفرق كبير بين المغامرة والحب..

إن المغامرة لقاء ..

والحب حياة..

وكان من حقى أن أمنح الفتاة لقاء ، وليس من حقى أن أمنحها حياة..

ليس لى حياة أمنحها لأحد.. حياتى فى البحر.. حياتى راقدة على ظهر مركب.. مبعثرة بين الموانىء.. كيف أمنح فتاة حياة ، وأنا أعلم أنى سأتركها بعد أيام.. ربما غداً.. ولن أعود إليها إلا بعد شهور.. وربما لا أعود.. لا.. ليس من حقى أن أمنح الحياة.. فقط اللقاء.. ليس من حقى أن أمنح الحب.. فقط المغامرة!!

ومرت الأيام والشهور وأنا أحس بنفسى أنقلب إلى حيوان.. عواطفى وأحاسيسى تموت ، وتسيطر على نزواتى وبهيميتى.. ربما

كان الطريق الوحيد للهرب من هذه الوحدة ، وهذا الفراغ.. عواطفى وأحاسيسى تموت ، وتسيطر علىّ نزواتى وبهيميتى.. أكلاً ، وأجساداً.. كأنى حيوان..

إلى أن قابلتها..

ولم أكن فى حاجة إلى أن أكون بحاراً لأقابلها ، بل لم أكن فى حاجة إلى بدلتى الزرقاء والأشرطة الذهبية.. قد قابلتها فى القاهرة ، وكنت أيامها أقضى إجازة طويلة ، ولم أتعود فى أيام إجازتى أن أرتدى بدلة البحر.. بدلة الشغل.. تعديت هذه المرحلة التى كنت أتعايق فيها ببدلة البحر !!

ولا أدرى ما حدث لى ساعة أن قابلتها.. إنى لم أسمع ساعتها هذا الصوت الذى يحذرنى ، من الحب.. بل إنى نسيت ساعتها أنى بحار فى إجازة.. نسيت أنى سأعود إلى البحر بعد شهرين.. نسيت أنه مقدر علىّ أن أكون حيواناً..

أحسست وأنا أطل فى عينيها ، أنى سأعيش بين هاتين العينين طول عمرى.. لن أفارقهما لحظة.. ولن تفارقنى هذه الخفقة الحلوة المثيرة.. ولا هذا الهدوء المريح.

وبسرعة.. تم كل شىء !

تزوجنا..

هل تسرعنا فى الزواج.. لا أظن.. لقد شعرت أنها زوجتى من أول نظرة.. وشعرت أنى زوجها.. لم نحس بأننا نتسرع أو نتباطأ.. كل ما أحسسنا به أنى عشت عمرى أبحث عنها ، وقضت عمرها تبحث عنى.

وبسرعة أيضاً.. أصبح لنا بيت فى الإسكندرية.. بيت صغير جميل ، لا يتأرجح كالمركب.. بل يقف ثابتاً قوياً يضمنا برفق وحنان..

واستطعت أن أمد إجازتى شهراً..

والشهر انتهى..

ووقفنا ساعة الوداع نبكى.. لقد حاولنا أن نبتسم.. حاولنا كثيراً.. قلت لها نكتة ولكنها كانت سخيفة.. وقالت لى كلمة حلوة ، ولكنها كانت مفتعلة.. لم يكن أمامنا إلا البكاء.. بكينا.. وبكينا أكثر ونحن ننظر إلى بيتنا.. كانت أبوابه كلها قد أغلقت.. وقطع الأثاث قد غطيت بمفارش بيضاء.. فقد اتفقنا على أن تذهب زوجتى وتقيم فى القاهرة مع أهلها أثناء غيبتى.. وبدا بيتنا كأنه ميت.. كأن قطع الأثاث المغطاة بالمفارش البيضاء مقابر فى قرافة المجاورين.. ثم.. إحساس غريب داخلنى.. أحسست كأن زوجتى تبكى على فراق بيتها ، أكثر مما تبكى على فراقى.. أحسست أنها تحب البيت أكثر مما تحبنى.. وأحسست كأنى أغار من هذا البيت.. وكدت أثور.. كدت أتهمها بأنها لا تحبنى ولكنها تحب البيت الذى صنعته لها.. ولكنى كتمت ثورتى.. ووبخت نفسى على هذا الإحساس.. وقبلتها قبلتنا الأخيرة ودموعنا تبلل شفاهنا..

وذهبت إلى البحر..

لم أعد أشعر بالوحدة.. ولا بالفراغ والملل.. إنى فى كل لحظة مع زوجتى ، وحياتى مزدحمة بحبى ، وأحلام حبى ..

ولكنى بدأت أسأل نفسى سؤالاً غريباً..

هل تستطيع زوجتى أن تخلص لى خلال غيبتى ؟!

إنى لا أشك فى حبها.. ولكن الإنسان ليس كله حباً.. إنه جسد أيضاً.. وخواطر.. وكيان.. ورغم الحب ، فقد لا يستطيع الجسد أن ينتظر.. وقد يمل الكيان وحدته فيبحث عن إنسان آخر يستند إليه.. وقد تضيق الخواطر بصاحبها حتى يفر منها إلى مغامرة ، أو نزوة ، أو تسلية..

فهل تستطيع زوجتى بكل ما فيها ، أن تنتظر ؟

وهل أستطيع أنا ؟

ووصلت إلى اقتناع عجيب ، وهو أنى لو استطعت أن أنتظر إلى أن أعود إلى زوجتى ، فإن زوجتى تستطيع أن تنتظر إلى أن أعود إليها !

وقررت أن أنتظر..

كتمت حيوانيتى.. عزفت عن اللهو.. امتنعت عن مخالطة زملائى ضباط المركب فى لهوهم.. وأصبحت لا أنزل من المركب ، كلما رسا فى ميناء.. وإذا نزلت فلا أفعل أكثر من التنزه فى الحدائق ، وزيارة المتاحف ، والطواف على المكتبات.. ثم أعود إلى المركب قبل أن يأتى المساء !!

وسمونى على المركب.. « الملاك الطاهر » !

وبقيت ملاكاً طاهراً طوال شهرين..

وعدنا إلى الإسكندرية..

وزوجتى فى انتظارى على الميناء.. لقد رأيتها بخيالى قبل أن أراها بعينى.. واحتضنتها بقلبى قبل أن أحتضنها بذراعى..

ولن تتصور كم دللتها بعد أن عدت إليها.. وكم أعطيتها.. وكم أعطتنى.. لقد أفرغنا شهرين فى ليلتين..

ولا تتصور عدد الهدايا التى حملتها إليها.. هدايا ثمينة غالية.. وربما لم تكن كل هذه الهدايا لأنى أحبها.. بل لأنى كنت أحاول أن أغريها بانتظارى عندما أبحر مرة ثانية.. كنت أكافئها على انتظارها.. وأمنيها المزيد بعد الانتظار القادم..

وتحدثنا.. لم ينقطع حديثنا.. إنها لم تكن سعيدة عندما ذهبت لتعيش مع أهلها.. كانت تحس كأنها ملكة فى المنفى بعد أن تنازلت عن عرشها.. وكانت أمها لا تستطيع أن تتصور أنها كبرت وأصبحت

سيدة ، فكانت تعاملها كطفلة ، فإذا احتجت اتهمتها أمها بأنها أصبحت تحب زوجها.. تحبني.. أكثر مما تحب أهلها.. لا.. لم تكن سعيدة.. كانت تعد الأيام لتعود إلى بيتها.. وأعود إليها !

و...

ووقفنا يودع أحدنا الآخر مرة ثانية.. وعاودني نفس الشعور.. الشعور بأنها تبكي فراق بيتنا أكثر مما تبكي فراقي.. وأنها تحب بيتها أكثر مما تحبني.. ولكني كتمت هذا الشعور.. وقبلتها قبلة أخيرة ، والدموع تبلل شفاهنا..

وذهبت إلى البحر..

وغبت هذه المرة ثلاثة شهور..

كتمت خلالها حيوانيتي.. قيدت جسدي.. عزفت عن كل شيء..

واحتفظت بين زملائي ضباط السفينة بلقب الملاك الطاهر..

ولكني عانيت هذه المرة في سبيل هذا اللقب أكثر مما عانيت في المرة الأولى.. كان جسدي في حاجة إلى قيد أثقل.. وروحي في حاجة إلى مقاومة أعنف حتى لا تنطلق في إحدى نزواتها..

وعدت..

عدت إلى الحب..

إلى زوجتي.. وحقائبي محملة بهدايا أكثر.. وأعصابي محملة بشوق أكبر..

ثم أبحرت مرة ثالثة..

وكانت رحلة طويلة..

ستة شهور كاملة..

وقاومت.. قاومت شهراً.. شهرين.. ثلاثة.. وفي كل يوم أزيد ثقل القيد.. وأزيد من ضغط إرادتي على روحي.. وبدأت أشعر بالثقل.. بدأت أضيق بنفسي.. بحياتي.. الملل يهب علي في قوة.. الفراغ

يزحف عليّ.. وبدأت أتساءل : هل تستطيع زوجتى أن تبذل كل هذا الجهد الذى أبذله..

نعم.. إنها تستطيع.. ما دمت أستطيع !!

ومر الشهر الرابع..

وفى الشهر الخامس.. رست الباخرة فى ميناء نيويورك.. ونزل الضباط كعادتهم وفى صدر كل منهم قنبلة من أعصابه ، يطلقها فى أول مرقص يلتقى به.. وبقيت وحدى على المركب ، أطلق قنابلى على نفسى.. وأزفر أنفاسى فى ضيق ، وألعن.. ألعن كل شىء حولى..

وعاد أحد الضباط إلى المركب ومعه فتاتان دعاهما إلى تناول قدح من الشاى.. لم تكن الفتاتان راقصتين.. كان يبدو عليهما أنهما من عاملات المحلات.. إحداهما شقراء.. مثيرة.. تمشى كأنها فى كل خطوة تناديك.. وتبتسم كأن بين شفتيها بطاقة دعوة لزيارة أسنانها..

ولا أدرى ماذا حدث لى..

نسيت كل شىء فى لحظة..

وأقبلت على الفتاة ، وقنبلتى.. قنبلة أعصابى فى يدى !

وكانت مغامرة..

مغامرة عنيفة مثيرة.. احترقت بها واحترقت الفتاة معى.. جسد ذاب فى جسد !

وأفقت..

أفقت والمركب تبحر بى فى طريق العودة !

إنى لم أحتمل المقاومة.. مقاومة جسدى ووحدتى..

هل احتملت زوجتى ؟

لا أظن..

وبدأت أتذكر أشياء لم أكن أتذكرها..

تذكرت أن زوجتى لا تعيش سعيدة مع أهلها فى غيبتى.. وما دامت ليست سعيدة معهم ، فلابد أن تبحث عن السعادة بطريقة أخرى..

وتذكرت أن زوجتى تحب بيتنا أكثر مما تحبنى.. وما دام بيتنا مغلقا ، فالحب أيضاً مغلق.. تذكرت أشياء كثيرة سخيفة..

وتعذبت..

تعذبت بخيالى وأنا أرى فيه زوجتى مع رجل آخر.. عيناها فى عينيه.. شفتاها فى شفتيه.. جسدها لجسده..

ولم أستطع أن أتخلص من هذا الخيال..

لم أستطع أن أقنع نفسى بأن زوجتى استطاعت أن تنتظرنى !

أنا لم أستطع رغم كل الجهد الذى بذلته..

فكيف تستطيع هى ؟..

ووصلنا إلى الإسكندرية..

وزوجتى فى انتظارى على الميناء..

ونزلت من المركب فى خطوات بطيئة مترددة.. ونظرت إلى وجهها.. وخيل إلىّ أنها ليست جميلة.. وأن الأصباغ ثقيلة فوق وجهها.. ورأيت فى عينيها مغامرة.. نفس المغامرة التى جربتها فى نيويورك ، مع الفتاة الشقراء.. ترى هل كان رجلها أشقر أيضاً!

وصددت ذراعيها الممدودتين إلىّ ، وهمست فى صوت مخنوق :

– أنت طالق..

وابتعدت..

■ ■ ■

أنا بحار..

حياتى وحدة.. وملل.. وفراغ..

بلا شخصية

أنا الأخت الكبيرة... وأنا ضعيفة.. أنا لا شيء..

وأختي الصغيرة.. قوية.. إنها كل شيء !

ولا أدرى كيف حدث هذا.. كيف أصبحت أنا لا شيء ، وأصبحت هى كل شيء.. ولكنى منذ وعيت وأنا أراها تستأثر باهتمام والدىّ ، وتدليلهما ، وسخائهما.. كان والداى يدللاننى أيضاً ، ولكنى كنت أشعر وهما يدللاننى كأنهما تذكرا شيئاً نسياه ، أو كأنهما يجاملاننى حتى لا أغار من أختى.. وعندما كان الضيوف يزوروننا كانت أختى أيضاً هى التى تستأثر بكل اهتمامهم.. بكل عيونهم.. بكل ضحكاتهم.. كانت تعرف كيف تتحدث إليهم... وكيف تلفت أنظارهم.. وأنا منزوية فى ركن أتابع أختى صامتة.. فى إعجاب !

لقد كنت معجبة بها فعلاً وكنت أحبها.. وكانت أجمل منى ، ولكنى لم أكن أشعر بجمالها ، بقدر ما أشعر بذكائها ، وبهذه الحياة النشطة التى تبعثها حولها.. وربما لم أكن مخلصة فى إعجابى وحبى لها.. ربما كان ضعفى وعجزى أمامها ، دفعانى إلى الاستسلام لها.. ثم أصبحت أعتقد أن هذا الاستسلام هو إعجاب وحب..

وقد استسلمت لها استسلاماً تاماً.. كانت هى التى تحدد خطواتى.. هى التى تحدد برنامجي اليومى.. هى التى تشغل وقتى.. بل هى التى تحدد عواطفى.. أكره ما تريدنى أن أكرهه ، وأحب ما تريدنى أن أحبه.. وكانت قادرة دائماً على أن تملى إرادتها علىّ.. وفى المرات القليلة التى كنت أعارضها فيها كانت تستطيع أن تعاقبنى.. كانت تستطيع أن تسلط على أبى وأمى.. بل أحياناً يكون عقابها مجرد مخاصمتى.. لا تتحدث إلىّ ولا تشركنى فى لعبها ، فأشعر أنى تائهة ، ضائعة ، بائسة.. وأكثر من ذلك..

لقد استطاعت أختى الصغيرة أن تسيطر على أبى وأمى أيضاً.. كانت لها طريقة خاصة فى التسلل إلى عواطفهما وإقناعهما بما

تريد.. ومع الأيام تعود أبى وأمى أن يستسلما لها - هما أيضاً ! - ويتركاها تتحكم فيهما وفى البيت ، دون أن يشعرا بهذا الاستسلام من ناحيتهما ، ولا بهذا التحكم من ناحيتها..

وكبرت وأنا ضعيفة..

ضعيفة الشخصية..

ولم يكن ضعفى تجاه أختى وحدها ، بل أصبح تجاه كل الناس.

كان يكفى أن أشعر باهتمام إنسان ، حتى أستسلم له.. أستسلم لرأيه ، وأستسلم لما يريده منى..

واهتم ابن خالتى بى ، وأنا فى السابعة عشرة من عمرى..

فاستسلمت له..

ثم كف ابن خالتى عن الاهتمام بى..

ولم أدر ماذا أصنع بمصيبتى.. والواقع أنى أيامها لم أشعر بأن ما حدث لى يعتبر مصيبة.. لقد كنت من العجز والضعف - ضعف الشخصية - بحيث لا أستطيع أن أقدر ما يجرى لى ، أو أحسب حساباً لمستقبلى.. كان كل شىء يحدث لى بسيطاً تافهاً.. أو كنت أقنع نفسى بأنه بسيط تافه ، حتى أبرز عجزى وضعفى..

ثم..

وفد إلى الحى جيران جدد.. عائلة ، تضم شقيقين.. وفى أيام استطاعت أختى أن تستأثر بالأخ الأكبر.. أحبته ، وأصبحت تخرج معه.. ثم أخذتنى معها وقدمتنى إلى الأخ الأصغر..

وأصبحنا نخرج نحن الأربعة معاً..

وكانت هذه هى أجمل أيام حياتى..

لقد أحببت الأخ الأصغر.. أحببته من خلال شخصية أختى وسيطرتها علىّ.. ثم بدأت أشعر بأنى أحبه بشخصيتى أنا.. وأحبنى.. أحبنى فعلاً.. أحبنى وهو يشعر بضعف شخصيتى ، وسيطرة أختى على.. بل وهو يعرف أيام التى كان ابن خالتى يهتم بى خلالها..

وبدأت أشعر وأنا بجانبه بقوة جديدة فى.. كنت وأنا معه أستطيع أن أناقش أختى.. وكانت تتكون لى آراء خاصة... ومطالب خاصة.. كنت أشعر أنى أريد أن أذهب إلى السينما مثلاً.. أو آكل جيلاتى.. وكانت ، حتى هذه المطالب الصغيرة ، لا تخطر لى من قبل ، إنما كنت دائماً أنتظر ما تريده أختى..

وسارت الأيام ناعمة.. لم يحدث فيها ما يشعرنى بحاجتى إلى مقاومة أختى.. كانت هى التى تدبر لقاءنا.. هى التى تحدد المكان والساعة.. وهى التى تختار لى الثوب الذى ألبسه..

وهى التى تدير الحديث عندما نجلس نحن الأربعة.. ولكنى لم أكن أشعر بسيطرتها.. كل ما كنت أشعر به هو حبيبى..

ثم..

تشاجرت أختى مع الأخ الأكبر.. وهجرته وهى تكرهه.. تكرهه بقسوة وعنف.. ولم تكتف بأن تكرهه ، بل كرهت معه الأخ الأصغر.. كرهت حبيبى.. وبدأت تحاول أن تجعلنى أكرهه معها.. أن أهجره كما هجرت هى الأخ الأكبر..

ولكنى أحبه..

وهو يحبنى..

وبدأت أحاول أن أقاوم أختى.. أن أتخلص من سيطرتها.. وكانت هذه هى الأيام التى بدأت أشعر فيها بضعف شخصيتى.. بعجزى..

كنت أحتار كيف أتصل به دون معاونة أختى.. وكيف أترك له الفرصة ليتصل بى.. وكنت أحتار كيف أجد حجة أقدمها لأمى لتسمح لى بالخروج للقائه.. و.. وكنت أحتار كيف أخفى عن أختى أنى ذاهبة للقائه.

ولم أكن أستطيع أن أخفى عنها شيئاً..

كان يكفى أن تنظر فى عينى لتعرف كل شىء.. وتعرف أنى ذاهبة للقائه.. فتحول بينى وبين الخروج من البيت.. تفعل كل شىء حتى لا أذهب إليه..

وأنا ضعيفة عاجزة..

وكلما بعدت عن حبيبى ازددت ضعفاً وعجزاً..

وأنا أخاف من ضـعفى.. أخـاف أن أتعرض لشاب آخـر يمنحنى بعض الاهتمام فأستسلم له..

وحبيبى أيضاً يخـاف على من ضعفى.. إنه يعلم أنه قوتى.. وأنه شخصيتى.. فـإذا ابتعد عنى ، ابتعدت قوتى ، وابتعـدت شخصيتى.. وذبت..

ثم...

كانت الوسيلة الوحيدة للتخلص من سيطرة أختى ، هى أن يتقدم ويطلب أن يتزوجنى..

وتقدم..

أتدرى ماذا حدث ؟

رفضت أختى أن أتزوجه..

ورفض معها أبى وأمى..

قالت عـنه كل ما ينفـر منه.. إنه من عائلة أقل من عـائلتنا.. وهو فقير.. ولا يحمل شهادة عالية.. و... و..

ولم ييأس حبيبى..

ظل يلح..

وظل يوسط كل أصدقاء أبى ، وكل صديقات أمى..

ولكن أبى وأمى يصـران على الرفـض ، وأختى الصـغـيـرة من ورائهـما.. وحـرمونى منه.. ضـيقـوا على الخناق.. وأنا ضعـيفـة ، عاجزة.. ولكنى أحس بأبخرة تتصاعد فى صدرى كأنها تدفعنى إلى الانفجار.

نعم.. كل ما أحتاج إليه هو الانفجار..

يا رب.. امنحنى القوة لأنفجر.. دع الحب يفجرنى..

ولكنى لا أستطيع أن أنفجر.. إنى ضعيـفة.. ضعيفة.. وابن خالتى سيأتى غداً.. إنى أعلم ما سيحدث لى عندما يأتى..

وقمت من فراشى فى منتصف الليل ، ودموعى على خدى ، وأيقظت أختى ، وقلت لها فى توسل :

– أرجوكى.. ساعدينى !!

وقالت فى برود :

– لا... مش حاتتجوزيه ، يعنى مش حاتتجوزيه !!

وانقلبت على جنبها.. ونامت..

ووقفت فى ظلام الحجرة تائهة.. ولم أشعر بالانفجار.. ولكنى شعرت بنفسى أرتدى ثوبى.. ثم أخطو خطوات هادئة ، وأخرج من البيت.. لم أكن أشعر بأنى قوية.. ولكنى كنت أشعر بقوة أخرى تدفعنى.. وسرت.. وسرت.. لا أدرى ماذا كان يمكن أن يحدث لى لو صادفنى أحد فى الطريق ولكنى سرت.. ووجدت نفسى أمام بيت حبيبى أطرق بابه..

وفتح لى الباب..

وهنا فقط شعرت بالشىء الجديد.. شعرت بالقوة.. قوتى أنا.. أنا التى خرجت من البيت.. وأنا التى جئت إلى هنا.. وأنا التى قاومت ابن خالتى.. أنا.. والحب !

وتزوجنى حبيبى فى اليوم التالى..

تزوجنا دون أن نلجأ إلى أبى وأمى وأختى..

أتعلم..

إن أختى تقيم معى الآن..

إنها أختى الصغرى..

وأنا أبحث لها عن زوج..

و....

هل تصلح قصتى.. قصة ؟!

كيف ننسى

موظفة فى إحدى الشركات..
عرفتها وهى تعيش فى قصة حب.. حب كبير..
ثم عرفتها وقد صدمت فى حبها..
وعاشت بعد الصدمة ترفض الزواج.. لم تكن تريد أن تتزوج وقلبها وعقلها لا يزالان وراء رجل آخر.. ولم تكن تستطيع أن تدع رجلاً يلمسها ، ولمسات الآخر فوق جسدها ، ولا أن يقبلها وقبلات الآخر لا تزال فوق شفتيها.. ولم تكن تريد أن تدخل بيتاً تتزوج فيه إلا وقلبها وعقلها معها ، وروحها خالصة لرجل البيت.. للرجل الجديد..

كانت مخلصة فى إيمانها.. لا تريد أن تخدع أحداً.. ولا تريد أن تبنى بيتاً من الخداع.. والزواج فى نظرها ليس أن تعيش مع رجل.. وبيت الزوجية ليس سريراً تنام فيه.. إن الزواج أكبر من ذلك.. إنه امتزاج قلبين ، وعقلين ، وروحين.. فإذا تعذر الحب فى بداية الزواج ، فعلى الأقل يجب أن يبدأ الزواج وقلبها مستعد لتلقى الحب.. حب جديد !

وعاشت تحاول أن تنسى صدمتها. أن تغسل عن قلبها بصمات حبها الفاشل ، وأن تمسح عن شفتيها طعم قبلات الرجل الذى ذهب..

ولكن جرحها كان عميقاً.. لا يندمل..

ومر عام.. وهى تعيش صامتة وحلقها مزدحم بالآهات.. وترفض الزواج.. تقدم إليها كثيرون.. كلهم شبان ناجحون.. ولكن ، لا.. آسفة.. لو تزوجت واحداً منكم ، فسأخونه.. لن أخونه بجسدى ، ولكنى سأخونه بروحى ، وقلبى ، وخيالى.. إن الخيانة النفسية أبشع وأقسى من خيانة الحب.. إنها جحيم سأعيش فيه ، ويعيش

فيه من يتزوجنى..

ثم..

فجأة قبلت الزواج..

تزوجت فعلاً ، زميلاً لها فى الشركة..

ولم يكن من تزوجته خير من تقدم لها.. ولم تحبه.. ولكنه فقط كان مصدوماً مثلها.. ووعرفته وهو يشكو لها حباً فاشلاً.. كحبها.. ورأت فى عينيه هذا الانكسار الذى تراه فى عينيها.. وسمعت فى صوته هذه الآهات التى يزدحم بها قلبها.. وأحست باستسلامه للعذاب ، كاستسلامها..

إنه هو أيضاً أحب فتاة ولم يستطع أن يتزوجها..

وشعرت بالراحة وهو يشكو لها..

شعرت كأنها تنسى مصيبتها ، وهى تعيش فى مصيبته.. وشعرت نحوه بنفس الرثاء الذى ترثى به نفسها... نفس الشفقة التى تشفق بها على نفسها.. نفس الحنان الذى يخلع قلبها كلما تذكرت حالها..

ولم يكن يعلم بمصيبتها كما تعلم بمصيبته.. لم يكن يعتقد أنها هى الأخرى مصدومة فى حب..

كان يشكو لها ، ولا تستطيع أن تشكو له..

كانت تواسيه ، ولا تستطيع أن تطلب منه أن يواسيها..

ورغم ذلك اعتقد أنها تستطيع أن تتزوجه.. وأنها إذا تزوجته ستداوى جرحه ، فإذا داوت جرحه شفيت من جرحها.. اعتقدت أن صدمته ستخفف من صدمتها. وأن حنانها عليه يمكن أن يطهر قلبها من الحب القديم ، ويفتح بابه لحب جديد..

وهو أيضاً اعتقد أنه يستطيع أن ينسى بها حبه ، ويداوى بها قلبه..

وتزوجا..

ولكن..

ولكن الزواج أشعل الذكريات القديمة فى قلب كل منهما...

إنه يرى الأخرى دائماً كلما رآها.. يرى الأخرى واقفة أمام البوتاجاز فى المطبخ.. ويرى الأخرى فى حجرة النوم.. ويرى الأخرى ترتق جواربه.. ويقبلها فيتذكر قبلاته الأخرى..

وهى أيضاً.. إنها ترى الآخر دائماً.. تراه وهى تسمع صوت المفتاح يدور فى قفل الباب عند عودته من عمله.. وتراه وهو يقرأ الجريدة.. وتراه وهو فى البيجاما.. وتراه كلما هم زوجها بتقبيلها.. وتحس بشفتيها تنتفضان عندما تكتشف أن هذه القبلة ليست قبلة الآخر.. طعم غريب على شفتيها لا تستطيعان احتماله..

ولكن..

الفرق بينها وبينه.. أنه صاحب حق فى أن يشكو... من حقه دائماً أن يتحدث عن الأخرى.. عندما يراها فى ثوب جديد ، يتنهد قائلاً : لقد كانت الأخرى تحب اللون الأزرق.. عندما يذهب إلى السينما ويشاهد فيلماً يصور مأساة حب يتنهد قائلاً : إنها مأساتى؟؟

و.. و.. و...

ولم تكن تستطيع أن تعترض على شكواه ، فهى تعرف مصيبته ، وكانت تشجعه على الشكوى قبل الزواج..

ولم تكن شكواه تضايقها... ولكن الذى بدأ يضايقها أنها لا تستطيع أن تشكو مثله.. إنها تريد أن تحدثه عن الآخر ، كما يحدثها عن الأخرى.. تريد أن تفرج عن صدمتها كما يحدثها عن صدمته..

تريد أن تجلس معه حول المدفأة فى ليالى الشتاء ، وتتركه يبكى ، ويتركها تبكى.. كل منهما يبكى حبه القديم.. ولكنها لا تستطيع..

وصدرها يضيق.. وأنفاسها تختنق..

وأعصابها تحترق..

وشىء آخر عرفته..

عرفت أن الرجل المصدوم هو دائماً رجل قاس.. أن الصدمة تفقده ثقته بنفسه ، فينقلب إلى رجل غيور ، يملأ الشك الأسود نفسه ، وتنقلب غيرته وشكوكه ، إلى قسوة.. قسوة جارحة.. إن عينيه تجرحانها كلما فاجأها تتحدث فى التليفون.. وعيناه تجرحانها كلما استأذنت منه لتذهب إلى الحلاق.. ثم لم يعد يستعمل عينيه فقط للتعبير عن قسوته.. بدأ يستعمل لسانه.. لسانه ينطلق بكلام جارح يشق قلبها المجروح..

ولم تستطع أن تحبه..

ولم تحس بالراحة - راحة القلب - التى كانت تنشدها معه..

وطلبت الطلاق..

وجاءت تسألنى.. وقلت لها وأنا أشفق عليها :

- لقد أخطأت.. ويجب أن تحتملى خطأك..

قالت :

- لم أعد أستطيع أن أحتمل..

قلت :

- حاولى.. إنه لن يحتمل صدمة أخرى..

قالت :

- إنه لا يحبنى ، فلن يصدم...

قلت :

- إن الصدمة الجديدة لن تصيب قلبه ، ولكنها ستصيب كرامته..
ثقته بنفسه..

قالت :

- سأحاول..

وحاولت..

وفشلت..

وطلقت..

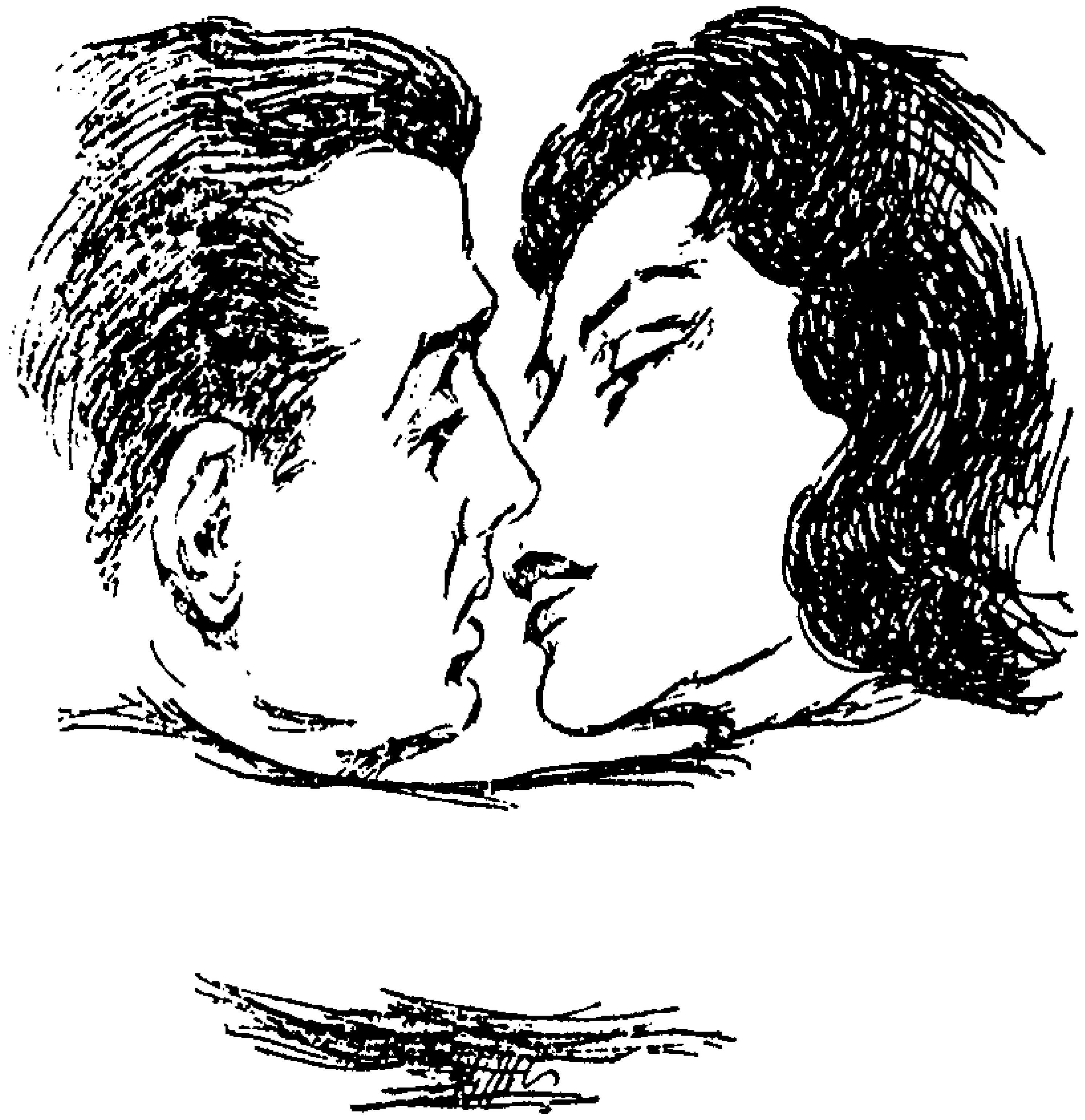

الحب والمجتمع

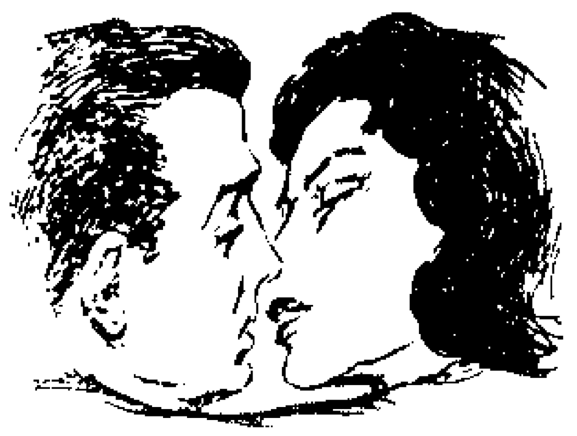

الحب لا يعيش فى الظلام.. إنه يسعى دائماً إلى النور ، إلى الحرية ، إلى الاعتراف بكيانه.. الحب كالإنسان يريد أن يسير فى الشارع ، ويتفرج على الدكاكين ، ويضحك بصوت عال.. إنه لا يطيق الاختباء طويلاً ، ولا يطيق أن يظل طول عمره يتكلم فى همس..

ولكن الحب عندما يحاول أن يخرج إلى النور يصطدم بالمجتمع..

والمجتمع ديكتاتور لا يرحم ، يفرض قيوداً ونظماً دون أن يسمح بمناقشتها.. المجتمع يفرض على الإنسان عندما يسير فى الشارع أن يرتدى ثياباً.. ومجتمع القاهرة يفرض ثياباً تخالف الثياب التى يفرضها مجتمع الإسكندرية.. ففى الإسكندرية تستطيع أن تخرج إلى الشارع فى مايوه ، ولكن فى القاهرة يجب أن ترتدى بدلة كاملة.. لماذا لا يسمح لى مجتمع القاهرة بأن أرتدى المايوه فى الحديقة ، كما يسمح لى مجتمع الإسكندرية بأن أرتدى المايوه على شاطئ البحر.. لا.. ممنوع.. حتى لو كانت سعادتك متوقفة على ارتداء المايوه.. إن سعادتك لا تهم المجتمع.. كل ما يهمه هو أن تخضع له.. أن تصير واحداً من القطيع الكبير.. خروفاً بين الخرفان.. وكذلك الحب.. فالمجتمع يفرض على الحب ثوباً خاصاً يخرج به إلى الشارع.. ثوباً يسمى الزواج.. ولا يهم إذا كان الزواج يسعدك أو يشقيك.. المهم أن تتزوج ما دمت تريد أن تخرج إلى المجتمع وفى ذراعك امرأة.. والمجتمع يبتسم فى وجوه ملايين الأزواج الأشقياء المنافقين الآثمين ، ويرحب بهم.. ثم يكشر فى وجه ملايين الأحبة السعداء الأطهار المخلصين.. لماذا يا مجتمع.. لا منطق.. لا سبب.. فقط ، أوامر السلطان.. أوامر الديكتاتور..

وهذه حكاية سيدة حائرة بين الحب والمجتمع..

تزوجت وهى فى التاسعة عشرة.. ودامت خطبتها قبل الزواج عامين كاملين.. كان زوجها خلالها رقيقاً ، مهذباً.. كلامه حلو. آراؤه متزنة. يكاد يحملها من فوق الأرض بابتسامته.. وربما لم تكن تحبه ، ولكنها أحبت الزواج منه.. أحبت أن تعيش معه..

ومضت أيام بعد الزواج... ثم بدأت تكتشف فى زوجها رجلاً آخر.. إنه لم يعد يكلف نفسه مجهوداً فى الاهتمام بها.. لم يعد يحرص على أن يكون رقيقاً مهذباً.. بل لم يعد يحرص على أن يجعلها تحبه.. أصبح ينظر إليها كشىء يمتلكه ومن حقه أن يهمله.. أن يلقيه فى زاوية حياته.. وعندما يطالبها بشىء لا يطالبها باسم الحب ، ولا باسم التعاون ، ولا باسم الصداقة.. إنما باسم الحق الشرعى.. الحق المسجل فى عقد مكتوب.. عقد الزواج..

وكافحت طويلاً لتقنعه بأن يعاملها كشخصية كاملة.. كإنسانة حرة من حقها أن تعطى ومن حقها أن تمتنع عن العطاء.. ولكن لا.. إنها ليست إنسانة كاملة.. ليست حرة.. إنها زوجة..

وتعددت الأزمات بينهما.. وأصبحت الحياة ثقيلة ، مملة ، تعسة... الهروب منها ، أهون من البقاء فيها..

وهربت..

هربت بعد خمس سنوات وفى يدها ابنتها الصغيرة..

ولم تهرب من الرجل وحده ، بل هربت من الزواج نفسه.. من هذا النظام الذى يحيل الرجل إلى مالك ، ويحيل المرأة إلى شىء مملوك..

وقضت سنوات وهى وحيدة مع ابنتها.. بلا رجل...

إلى أن التقت بالحب..

أحبت بكل أعوامها الثلاثين.. وسعدت بالحب.. إن حبيبها رقيق مهذب.. يحترمها.. ويحترم كيانها.. يحترم حريتها.. حتى عندما

يختلفان ويتشاجران يحترمها ، ويحرص عليها وعلى حبها فى خلافه وشجاره.. لأنه يعلم أنها حرة !!

وحاولت أن تبقى حبها فى الظلام ، لا يدرى به أحد.. اللقاء خفية، والحديث همس.. ولكنها لم تستطع.. إن حبها يريد أن يخرج إلى الشارع.

تريد أن تضع يدها فى يد حبيبها وتتفرج معه على الدكاكين.. تريد أن تجلس معه على شاطىء النيل.. وترقص معه فى شبرد.. والحب يريد أن يرى النور.. أن يتكلم بصوت عال..

وخرجت إلى النور..

وضعت يدها فى يد حبيبها وواجهت المجتمع..

وكشر المجتمع عن أنيابه.. بدأ ينهش بألسنته فى لحمها.. رفض أن يستقبلها ويفسح لهما مكاناً فى الزحام.. لا يهم.. إنها تستطيع أن تستغنى بحبيبها عن المجتمع.. عن كل الناس.

ولكن حبيبها لم يحتمل.. وعرض عليها الزواج ، حتى يرضى المجتمع ويسكت ألسنة الناس..

لا..

قالت : لا..

وقال عنها الناس إنها مجنونة.. ليست هناك امرأة ترفض الزواج من حبيبها.. وتكتفى أن تعيش معه فى الحب..

ولكنها لم تكن مجنونة.. إنها مقتنعة بمنطقها.... إنها تخاف على حبها من الزواج.. تخاف أن تفقد كيانها.. وحريتها فتفقد معهما حبيبها.. وهى تحرص عليه حبيباً أكثر مما تريده زوجاً.. تحرص عليه رقيقاً مهذباً يحيطها باهتمامه ، ويشتاق إليها.. ويتلهف عليها..

ثم ما حاجتها إلى الزواج.. لا شىء ينقصها.. ولا تريد شيئاً أكثر.. وهى لا تؤذى بحبها أحداً ، فلماذا يتأذى الناس.. ما شأن

الناس بها وبحياتها.. مـا دامت لا ترتكب إثماً.. ما دامت مخلصة فى حبها.. مخلصة لرجل واحد.. وليس كل الزوجات لهن رجل واحد !..

ورفضت أن تتزوج..

دعـونا أيهـا الناس.. لا تفسـدوا حـبى.. لا تسـدوا هنائى.. وإذا اعتـبرتم حبى حرامـاً ، فهذه الورقـة التى يكتبهـا المأذون لن تجعله حلالاً.. إنهـا ورقة.. مجـرد ورقة... والحلال والحـرام ليسا مـجرد سطور تكتب على ورق..

دعـونا.. إنكم تحسـدوننى.. إنكم تغـارون منى.. تكرهون لى أن أحب.. وترضون لى الزواج حتى لو شقيت..

وأصرت على الرفض..

وربما كان لرفضـها سبب آخر.. ربما خـافت إن تزوجت أن يأخذ زوجهـا السابق ابنتـها منهـا.. وهذا أيضاً حكم من أحكام المجـتمع.. حكم بلا عـقل.. المجـتمع يفـرض على المرأة أن تتـزوج الرجل الذى تحبـه.. فإذا تزوجتـه أخذ منهـا ابنتها ، وإذا لم تتـزوجه أخـذ منها حبيبها.. لا.. لن أخضع للمجـتمع.. لن أستسلم لهذه القسوة.. الظلم.. الأنانية..

وعادت تعيش مع حبيبها..

بلا زواج..

ويئس المجتمع منها..

وعندما يئس منها اسـتدار إلى ابنتها ، وسلط ألسنتـه على أذنيها الصغيرتين.. إن أمك تحب رجلاً.. بلا زواج.. هل تعلمين معنى الحب بلا زواج.. إنه حرام.. وستدخل أمك النار.. و.. و....

وبكت الصغيرة..

وقرأت الأم دموع ابنتها.. ورأت فى عينيها البريئتين حكم المجتمع الظالم.. حكم بلا منطق.. وبلا حيثيات..

ماذا تفعل..

إذا تزوجت.. فستفقد حبيبها ، وتفقد ابنتها..

وإذا لم تتزوج فسيطارد المجتمع ابنتها حتى يمزق نفسيتها.

ولم تفعل شيئاً..

كل ما فعلته أن عادت بحبها إلى الظلام.. عادت إلى الاختباء والهمس..

ولكن إلى متى ؟!

إن الحب لا يطيق الاختباء طويلاً.. والحب يريد أن يتكلم بصوت عال..

قبل الطلاق

تزوجت « قمر »..

ولم تكن قمر هى التى أنوى أن أتزوجها.. كنت أنوى الزواج من صديقتها زبيدة.. ثم لا أدرى ماذا حدث.. لقد وجدت نفسى أسيرا لقمر.. ووجدت نفسى بعيداً عن زبيدة..

أحببت قمر..

وأنا رجل طيب.. قلبى على كفى.. أحب بسهولة.. والحب عندى ليس إلا طريقاً للزواج.. للبيت العائلى السعيد..

وتزوجت قمر..

خاصمت أهلى كلهم ، كى أتزوجها..

وصنعنا بيتاً سعيداً.. لا يمكنك أن تتصور مدى السعادة التى عشت فيها بعد الزواج.. أصبحت كل دنياى هى بيتى.. بيت قمر.. وكل يوم أضيفه إلى رصيد سعادتى. كل يوم هو شاهد جديد على حب قمر لى ، وعلى تفانيها فى إسعادى..

ومر عام.. وأنجبنا طفلاً.. وارتفع الرصيد... رصيد السعادة.. لم يعد ينقصنى شىء فى الحياة.. وكانت سعادتى قوة.. إنى فى كل يوم أزداد قوة.. قوة فى شخصيتى.. وقوة فى عملى.. لقد أصبحت مديراً للشركة التى أعمل بها..

وفى يوم..

كنت جالساً فى مكتبى ، وجاء إلىّ شخص لا أعرفه.. كان يبدو منزعجاً.. وقال لى إنه جارى.. يسكن فى نفس الشارع.. وأن زوجتى أصيبت بإغماء وهى سائرة فى الطريق أمام بيته ، فنقلها إلى داخل البيت ، وهى الآن راقدة ومعها أخته.. وقد جاء ليبلغنى ، ويطلب منى أن أذهب معه..

مرت بى لحظة كدت أختنق فيها هلعا على زوجتى..

وانزعجت..

وهرولت إلى سيارتى.. وركب بجـانبى.. وأنا لا أكاد أرى الطريق أمامى.. وهو يردد :

– لا تنزعج.. المسألة بسيطة..

ولاحظت أنه يوجـهنى إلى طريق بعـيد عن بيـتنا وبيـته.. حـود يمين.. شمـال.. ووجدت نفسى أتجه إلى الدقى لا إلى الـزمالك حيث أقـيم.. ولكنى فى نوبة الهـلع التى كنت أعـانيـها ، لم أهـتم كثـيـراً باتجاهى..

ثم أمرنى بالوقوف أمام باب البيت... وقبل أن ننزل من السيارة ، أمسك بيدى وقال فى صوت خطير :

– إنك فى حاجة الآن إلى كل أعصابك.. إن زوجتك فى هذا البيت، تخونك مع ابن عمها..

وذهلت..

لا أدرى بالضـبط ماذا أحسـست ساعـتهـا.. ربما هرب منى كل إحساسى..

وانقدت وراءه.. ووقفنا أمام باب شقـته ، وأخذ يضـغط الجرس.. ومرت فترة طويلة وهو لا يزال يضـغط الجرس..

وفتح الباب..

وأطل منه وجـه ابن عم زوجـتى ، ورائحـة الجريمـة تفـوح من أعطافه..

ومـا كاد يرانى ، حـتى أخـرج من جيـبـه مسـدسـاً شـهـره فى وجهينا... وقال فى غطرسة :

– ماذا تريد ؟

قلت :

– أين زوجتى ؟..

قال فى وقاحة :

– زوجتك معى.. وهى فى حمايتى إلى أن تصل إلى بيتها.

ثم أدار رأسه فى داخل الشقة ، وصاح :

– البسى يا قمر..

– وكدت أجن.. ولكن جنونى تسمر أمام فوهة المسدس.. ولم أدر ماذا أفعل.. ماذا أقول.

وأشار المجرم إلينا – أنا والرجل الذى جاء بى – وقال :

– ادخلوا..

ودخلنا وفوهة المسدس تتبعنا..

وأجلسنا فى غرفة ، وأغلق بابها علينا.. وسمعت.. سمعت كل شىء.. سمعت همساتهما.. وسمعت وقع خطواتهما.. وسمعتهما وهما ينصرفان ويغلقان باب الشقة وراءهما..

ماذا أفعل ؟

هل أقتلها ؟..

هل أبلغ البوليس ؟

هل أطلقها ؟

وبعد ساعة.. جاء صديق لابن العم وفتح علينا الباب ، وسمح لنا بالانصراف..

وهرعت إلى بيتى ، وأنا لا زلت أتساءل :

هل أقتلها ؟..

هل أبلغ البوليس ؟

هل أطلقها ؟

ووجدتها فى البيت.. وواجهتها.. ولم تنكر.. ولكنها قالت إن ابن عمها جاء إليها وأقنعها أن أخته مريضة وأنها نقلت إلى المستشفى ،

وطلب منها أن تذهب معه إليها.. ثم أخذها إلى هذه الشقة وحاول اغتصابها..

وكلامها غير معقول..

لو كانت صادقة ، لاستغاثت عندما سمعت صوتى داخل وكر الجريمة..

ورغم ذلك.. ماذا أفعل ؟

هل أقتلها ؟..

هل أبلغ البوليس ؟

هل أطلقها ؟

وبدأت أفكر.. هنا فقط بدأ عقلى يتدخل فى ثورتى.. بدأ العقل يقيد الجنون..

وقال لى عقلى إنى لا أستطيع أن أقتلها.. لو قتلتها فسأدخل السجن ، خصوصاً وأنى لم أقتلها فى حالة تلبس مع عشيقها.. و « التلبس » يعتبر عذراً مخففاً ينزل بالحكم إلى ثلاثة شهور فقط.. أما لو قتلتها الآن فلن يكون الحكم أخف من سبع سنوات سجن.. ويضيع مستقبلى..

ثم بدأ عقلى يناقش الاقتراح الثانى : إبلاغ البوليس.. وإذا بعقلى يحذرنى من الفضيحة.. إن إبلاغ البوليس لن يؤدى إلى شيء إلا إلى الفضيحة .. فضيحتى وفضيحة ابنى.. ومحضر رسمى يظل عالقاً بنا إلى الأبد.. ثم ماذا أقول للبوليس.. ليس فى يدى أى إثبات... والبوليس لا يعترف إلا بحالة التلبس.. و..

وشطبت اقتراح إبلاغ البوليس..

وبدأ عقلى يناقش الاقتراح الأخير : الطلاق !

ولم أكن أعتقد أن الطلاق - فى هذه الحالة - يحتاج إلى نقاش. أو إلى تردد.. إنه أضعف الإيمان.. إنه رد الفعل الطبيعى لحالة رجل

مهذب مثلى..

ولكن..

كيف أطلقها.. وينتهى الأمر بهذه السهولة ؟

كيف أطلقها.. دون أن أنتقم منها.. أنتقم لشرفى !

قلت لنفسى هذا الكلام.. ولكن كان خلف هذا الكلام إحساس آخر غريب... كنت أريد أن أنسى ما حدث.. كنت أحاول أن أقنع نفسى بأن قمر صادقة.. وأنها مظلومة.. بريئة.. كنت أتلمس الأعذار حتى لا أطلقها.. لا رحمة بها ، بل رحمة بنفسي.. إنى أحبها ، وقد كنت سعيداً معها ، ثم هناك ابنى.. ابنى الذى سيتشرد بين أمه وأبيه.

ولم أطلقها..

وفعلت..

استدعيت أباها ، ورويت له ما حدث..

أتدرى ماذا كان موقف الأب.. لقد ثار فى وجهى لأنى أتهم قمر.. واتهمنى بأنى جبان لأنى لم أهجم على ابن العم وأضربه وأنقذ قمر من براثنه..

واحتدت المناقشة.. وخرجت قمر مع أبيها. وأنا أتمنى أن أقتنع بأنها بريئة.. بل أتمنى أن أقتنع بأنى جبان.. حتى تعود.. وتعود معها سعادتى وهنائى..

وبقيت قمر فى بيت أبيها أياماً.. دون أن أطلقها.. ثم.. عدت إلى بيتى فى يوم ، فوجدته فارغاً.. ليس فيه شىء..

لقد جاءت قمر فى الصباح هى وأبوها وابن عمها.. عشيقها.. وحملوا الأثاث... حملوا كل شىء حتى ثيابى.. وأخذوا ابنى..

و....

ولا أدرى ماذا أفعل..

إنى لم أطلقها بعد !!!

تزوجت نجمة !

بدأت حياتي العملية ، صحفياً في مجلة الكواكب..

ولا أدرى ما الذى ذهب بى إلى مجلة الكواكب.

بل لا أدرى ما الذى جعل منى صحفيا..

كنت قد تخرجت فى كلية التجارة ، وكان أبى يبحث لى عن وظيفة فى إحدى الشركات..

وكنت أقضى أيامى فى صحبة صديقى الأستاذ عبد الله عبدالجواد المحرر بدار الهلال..

وصحبنى عبد الجواد يوماً إلى أحد أستديوهات السينما.. وبهرت عندما رأيت فاتن حمامة لأول مرة.. بشخصها.. بلحمها وعظامها.. وبهرت أكثر عندما اكتشفت أنها ليست تعيسة حزينة دائماً كما تبدو على الشاشة..

ولكن بهرتى لم تفقدنى عقلى.. لقد وقفت أرقب بكل حواسى عملية الإخراج.. والتصوير.. والتمثيل.. والحوار.. والديكور.

وخرجت من الاستديو وأنا لا أكف عن الكلام.. قلت لعبد الجواد آرائى فى كل ما شاهدته.. وأعجب عبد الجواد بآرائى.. وقال لى فى لهجة الأستاذ الكبير..

– أنت تصلح ناقداً..

قالها كأنه يقول لى : « قم فأنت فارس ».. ثم طلب منى أن أكتب له هذه الآراء..

وكتبتها فى مقال كبير بعنوان : « فاتن حمامة.. لأول مرة ».. وأعطيتها فى اليوم التالى لصديقى عبد الجواد..

وبعد أيام فوجئت بها منشورة فى مجلة المصور.. هى نفسها.. الأسلوب... والكلمات.. وحتى العنوان.. وكل ما تغير فيها ، هو

الإمضاء.. أصبح الإمضاء ، هو إمضاء صديقى عبد الجواد.

وكتمت غيظى.. وهرعت إلى عبد الجواد ، وبين شفتى ابتسامة كبيرة.. وقال لى وهو لا ينظر فى عينى :

– شفت الفرق بين اللى كتبته أنت ، واللى كتبته أنا.. بكره تتعلم وتبقى زيى !!

وقلت ، وأنا لا زلت محتفظاً بابتسامتى :

– الحقيقة الفرق كبير.. أصلك أستاذ !!

وبدأ عبد الجواد يصحبنى معه كلما ذهب فى جولة من جولاته الفنية.. عرفت كل الاستديوهات.. وكل نجوم السينما.. الممثلات.. والممثلين.. والمخرجين.. و.. وكنت دائماً أكتب.. وعبد الجواد يوقع !

واكتشفت فى هذه الأيام أنى أريد أن أكون صحفياً.. وصحفياً فنياً بالذات.. واكتشفت أنى لا أريد أن أكون موظفاً فى شركة.. بل اكتشفت أن أشد ما أكرهه هو كلية التجارة التى تخرجت فيها..

وكنت أذهب كل يوم لزيارة صديقى عبد الجواد فى مكتبه بدار الهلال.. وتعرفت هناك بكثير من الزملاء.. عشت معهم.. سهرات لياليهم.. سرى فى دمى هذا العطر المنشط الذى ينطلق من أوراق البروفات ومن الأصابع الملوثة بالحبر..

وبدأت أتجرأ وأذهب وحدى إلى الاستديوهات.. وأحادث النجوم فى التليفون.. وأكتب.. ثم أعطى ما أكتبه ، لا لصديقى عبد الجواد ، بل لسكرتير تحرير مجلة الكواكب.

وأصبح ما أكتبه.. ينشر.. بلا توقيع.. لا توقيعى ، ولا توقيع عبد الجواد !

واعتبرت هذا نصراً..

لقد تخلصت من عبد الجواد..

وبقى أن أتخلص من سكرتير التحرير..

وكان الأمر سهلاً..

لقد تعرفت برئيس التحرير..

وحقق لى رئيس التحرير حلمى الكبير ، رغم أنف سكرتير التحرير..

نشر مقالاتى ، موقعة بإمضائى !

وأصبحت صحفياً.. بالقطعة !

ثم ارتقيت.. أصبحت صحفياً بمرتب !

ورفضت الوظيفة التى عثر لى عليها أبى ، فى إحدى الشركات..

والنوتة الصغيرة فى جيبى تحوى أرقام تليفونات كل نجوم الفن.. النجوم التى فى السماء.. والنجوم التى تلعب الطاولة فى قهوة عماد الدين.. وكل يوم لى دعوة على الغداء.. ودعوة على العشاء.. فى بيت فنان.. وأصبحت أستطيع أن أنادى عماد حمدى باسمه مجرداً.. عماد.. هدى.. مريم.. عز.. شكرى.. حليم.. نادية.. زيزى.. كلهم أصدقائى.. وكلهم إذا لم أطمئن عليهم كل يوم بالتليفون.. اطمأنوا على !!

وبصراحة.. بلا غرور.. أصبحت أشهر صحفى فنى فى الصحف العربية.. الوحيد الذى يستطيع أن يضع رأسه بجانب رأسى هو جليل البندارى.. والحقيقة أنه أقصر منى فى ميدان الصحافة ، ولكنه عندما يقف على لسانه ، يبدو أطول !!

وكنت سعيداً..

سعيداً بعملى.. سعيداً بشهرتى فى الوسط الفنى.. سعيداً بهذه الابتسامات التى لا تكف عنى.. سعيداً حتى بالمشاكل التى يثيرها فى وجهى قسم الإعلانات كلما أبديت رأياً صريحاً فى أحد الأفلام..

إلى أن التقيت بخيرية..

التقيت بها فى أحد الاستديوهات واقفة فى صفوف الكومبارس..

ولا أدرى ما الذى حدث لى.. لقد أحسست بقوة هائلة تشدنى إليها.. إنها ليست أجمل من مريم.. ولا أجن من سعاد.. ولا أذكى من فاتن.. ولا مرحة كنادية.. ولا عبيطة كهند.. ليس فيها شىء يميزها عن باقى الفنانات.. ليس فيها شىء إطلاقاً.. ورغم ذلك فهذه القوة التى تشدنى إليها لم أشعر بها أبداً نحو واحدة أخرى..

وذهبت إليها..

وهى تنظر إلى بعينين مشدوهتين.. لم تكن تصدق أنى أنا.. أنا الصحفى المشهور.. المحرر الأول بمجلة الكواكب.. يذهب إليها !

ودعوتها إلى الغداء..

وكان هذا حدثاً غريباً آخر فى حياتى.. فحتى ذلك اليوم كنت أفضل دائماً مقعد المدعو ، على مقعد الداعى !!

ثم بدأت ألقاها كل يوم..

وكل يوم أناقشها فى الفن.. أناقشها فى حماس وأنا أحاول أن أفتح عينيها على عالم جديد خيل إلىّ أنها لا تعرفه.. عالم الفن.. ومن خلال هذه المناقشات بدأت أحس أنى أنا أيضاً اكتشفت عالم الفن... بدأت أشعر أن الفن أكبر وأخطر مما كنت أراه.. بدأت أحس أن الفن ليس أشخاصاً.. ليس فلاناً وفلانة.. ولكنه موضوع.. موضوع عميق.. عميق.. ليس له قرار.. ثم بدأت أتصور أن مهمتى كصحفى فنى ، ليست مجرد تسجيل حوادث الفن ، وليست مجرد تسلية القراء بأحاديث النجوم.. مهمتى أكبر من ذلك.. مهمتى أن أخلق شيئاً جديداً فى الفن.. أن أكون خالقاً !!

وقررت أن أكون خالقاً..

وأن أخلق خيرية..

أخلقها نجمة سينمائية.. نجمة لها طابع جديد.. شخصية جديدة.. غير طابع وشخصية فاتن حمامة..

وبدأت أخلقها..

كل دقيقة من عمرى وضعتها فى خلق خيرية..

علمتها كيف تتكلم.. كيف تضحك.. كيف تبكى.. كيف تلبس.. كيف تمشى.. وكل ما فى عقلى وضعته فى عقلها.. ثقافتى.. تجاربى.. وكل ما فى قلمى أفرغته فى رسم صورتها أمام القراء.

واستطعت أن أحصل لها على دور فى أحد الأفلام.. دور كبير.. وقضيت أياماً وليالى ، وأنا معها ألقنها أمام المرآة ، كيف تؤدى دورها.. كنت أضربها ، أحياناً عندما تخطىء.. وأقبلها عندما تسمع كلامى.. ولا أرحمها.. يجب أن تنجح.. يجب أن تنجح..

ونجحت خيرية..

وتعلمت أنا من هذا النجاح أن الفن ليس مجرد وجه جميل.. إنه مجهود.. مجهود مضن.. إنه عملية خلق ضخمة.. إن كل بنت تستطيع أن تكون فنانة كبيرة لو وجدت من يخلقها.. لو وجدتنى..

ولم أكت بنجاح خيرية..

يجب أن تنجح أكثر..

ونجحت أكثر..

وأكثر..

أصبحت فى المقدمة..

وأنا أحبها.. منذ اليوم الأول الذى رأيتها فيه ، وأنا أحبها.. حباً كبيراً.. لم أكن أعتقد أنى أستطيع أن أحب كل هذا الحب..

وهى.. تحبنى.. كل ما فيها ينطق بحبى.. عيناها.. شفتاها.. لهفتها علىّ.. صبرها على أعصابى.. إنها تحبنى.. قطعاً تحبنى!

ولكن ؟

من أدرانى أنها تحبنى ؟

لعلها تنافقنى كما ينافقنى بقية الممثلات.. لأكتب عنها.. لأقدمها

للجمهور.. لأتوسط لها لدى المخرجين والمنتجين ؟!

ولم يساورنى هذا الشك فى الشهور الأولى التى عرفت فيها خيرية.. ولكنه بدأ يساورنى بعد أن سرت بها خطوات فى طريق النجاح..

وبدأت أنتبه لأشياء كثيرة لم أكن أنتبه لها !

إنها تبتسم لجليل البندارى ، نفس الابتسامة التى تبتسمها لى..

إنها تحادث مجدى فهمى ، رئيس التحرير ، بصوت ناعم.. خافت.. كأنها تحادثنى..

إنها تصافح صلاح أبو سيف فتترك يدها فى يده مدة طويلة.. أطول مما تتطلبه مجرد المصافحة..

إنها تهز رموش عينيها لعز الدين ذو الفقار ، كأنها تسلط عليه إغراءها..

إن تليفونها مشغول.. مشغول أكثر من اللازم.. إنها.. إنها..

وبدأت أصرخ :

– إنتى بتتمايعى مع جليل..

وترد فى دهشة كأنها صادقة :

– حرام عليك.. ما لقتش إلا جليل !

وأصرخ :

– أنا مش عايزك تشتغلى مع عز.. أنا عارفه.. كل واحدة بتشتغل معاه يحبها..

وترد وهى تبكى :

– هو يعنى عز ناقصنى.. دى كوثر صاحبتى !!

وأعود وأصرخ..

وأصرخ..

وتعبت من الصراخ.. وشعور أليم باليأس يجثم على صدرى..

إنها لم تعد فى حاجة إلىّ.. إن حولها الآن كثيراً من الصحفيين.. والأدباء.. إن ما أستطيع أن أعطيه لها ، يستطيع أى واحد من هؤلاء أن يعطيه..

وحملت عذابى ، وابتعدت عنها..

يوم كامل لم أتصل بها..

واتصلت بى فى التليفون.. فهربت !

ويومان..

وثلاثة..

وهى تبحث عنى فى كل مكان.. وتبكى.. تبكى لكل من يقابلها.. وتعلن حبها.. تعلنه فى صراحة.. بلا خوف..

وعدت إليها بعد خمسة أيام..

واستقبلتنى بدموعها.. ووجهها الذى أنهكه الفراق..

وعدنا إلى الحب..

ولكنى ما لبثت أن عدت إلى الصراخ..

لنفس الأسباب..

ثم صرخت الصرخة الكبيرة :

- إنتى ما بتحبنيش.. إنتى محتاجة لى لأنى صحفى.. محتاجة لى علشان أكتب عنك.. بتحبينى زى ما بتحبى إحسان عبد القدوس، ومصطفى أمين ، وكامل الشناوى ، ويوسف السباعى.. ما بتحبيش الإنسان اللى واقف قدامك.. بتحبى الصحفى اللى بيشتغل فى الكواكب..

وتركتها كالزوبعة..

تركتها وعقلى يدور حول موضوع واحد.. إن عقدتى معها.. عقدة حبنا.. هى شكى فى أنها لا تحبنى لأنى إنسان.. ولكنها تحبنى لأنى صحفى أكتب عن الفن والفنانات..

كيف أتخلص من هذه العقدة ؟

الطريق الوحيد هو أن أفصل بين الإنسان ، وبين الصحفى !!

وبكل هدوء ذهبت فى اليوم التالى إلى دار الهلال ، وقدمت استقالتى..

واعتقد رئيس التحرير أنى أستقيل لأعمل فى دار أخرى.. وأخذ يصرخ.. ويشد شعره.. و.. حاتسبنا لمين من بعدك يا سبعى !!

ولكنى – بعد مجهود كبير – استطعت أن أقنعه بأنى أستقيل لأننى قررت اعتزال الصحافة ، والاشتغال بالأعمال الحرة..

وبكل هدوء أيضاً.. ذهبت أبحث عن وظيفة فى إحدى الشركات.. وفى خلال ثلاثة أيام – وبمساعدة أبى – استطعت أن أحصل على وظيفة ، فى قسم الحسابات بالمؤسسة الاقتصادية.

وتسلمت عملى فعلاً..

ثم ذهبت إليها..

إلى خيرية..

واستقبلتنى بدموعها.. ووجهها الذى أنهكه الفراق... وتعلقت فى رقبتى ، وهى تنشج كالطفلة..

ونزعت ذراعيها من حول عنقى ، وقلت فى لهجة خطيرة :

– أنا استقلت.. استقلت من دار الهلال.. اعتزلت الصحافة.. خلاص.. مش حا أقدر أكتب عنك بعد كده..

ونظرت إلىّ نظرة خلتها نظرة هلع.. ولكنى تبينت بسرعة أنها نظرة دهشة فقط..

ثم فجأة انفجرت ضاحكة..

ضحكت كثيراً..

ثم عادت تتعلق برقبتى.. تقبلنى فى كل مكان من وجهى.. وهى تهمس بين قبلاتها :

- يا حبيبى.. ما كنتش فاكرة إنك بتحبنى للدرجة دى..

وفجأة دق جرس التليفون.. تليفونها !

إن صوت رنين جرس تليفونها أصبح كصوت طلقات مدفع رشاش مصوب إلى قلبى..

ورفعت سماعة التليفون.. ثم أشارت إلىّ لأتحدث..

قلت فى دهشة :

- أنا..

قالت وهى تبتسم :

- أيوه أنت..

وأمسكت بسماعة التليفون.. لابد أنه رئيس التحرير.. إنه الوحيد الذى تعود أن يبحث عنى عند خيرية..

ولكنه ليس رئيس التحرير. إنه مسيو جريجورى صاحب شركة دولار فيلم..

وصاح مسيو جريجورى :

- أنت فين يا أستاذ.. أنا بادور عليك من تلات أيام.. الست خيرية دى مجنون خالص.. مش عايز يمضى العقد ، بيقول إنه اعتزل السينما.. اعمل معروف يا أستاذ.. عقلها..

ولم أستطع أن أرد عليه.. ألقيت سماعة التليفون والتفت إليها فى دهشة..

وقالت وهى تبتسم :

- أنا كمان اعتزلت السينما..

قلت والدهشة تقفز فوق لسانى :

- مش معقول..

قالت :

- ما دام باحب.. يبقى معقول..

قلت :
- خسارة
قالت :
- مش خسارة فيك..
وضممتها إلى صدرى..
بقوة..
وقلبى يخفق بخفقات قلبها..
و...
تزوجنا..
أتدرى ماذا حدث بعد شعر العسل..
عادت خيرية إلى السينما..
وعدت إلى الصحافة..

الناس يضربون عنتر

أنا عوض أحمد حسنين النحلاوى..

موظف فى إدارة النسخ بوزارة العدل..

عـمرى ٥٢ سنة ، وإن كنـت أبدو أكثـر من ذلك بكثيـر... فعيناى تبـدوان من خلف نظارتى ذات الإطار الفضى ، متآكلتـين محمرتين دائماً.. وصدغاى مجعدين.. وأنا رفيع ، وظهرى منحن قليـلاً.. ورغم ذلك فـصحـتى حـديد ، لم أشك يومـاً مرضـاً. وربما اكـتسـبت هذا المظهـر العجـوز من انكبابـى على هوايتى الوحيـدة.. وهوايتى الوحيدة هى تصليح الساعات..

وقد كانت الساعات تبهرنى منذ كنت طفلاً أقيم فى بلدتنا ، « كفر عليـوة ».. كنت أقضى السـاعـات منزوياً أمام دوار العـمدة ، حـتى يخـرج إلى الحوش الكبـير الذى يـواجه الدوار ، فـأركز عـينى على السلسلة الفضية البارزة فوق جلبابه ، ويظل قلبى يدق فى انتظار أن يشد السلسلة لـيخرج ساعـته الكبيـرة المعلقة فى طرفهـا.. حتى إذا رأيتها فى يده اتسعت عـيناى كأنهما تشهقـان وتجمع كل إحساسى الصغـير فى رغبـة واحدة جامـحة هى أن ألمس هذا الكنز المسـحور الذى يخبئه حضرة العمدة فى صدره..

وعندما كـان مهندس الرى يزور بلدتنا ، كنت أسـير وراءه طول اليوم ، وأجـرى وراء العربة التى يركـبها ، لا لشىء إلا لأمـلأ عينى بمنظر الساعة التى يربطها فوق معصـمه.. والرغبة الجامحة تشدنى لألمس هذه الساعـة... مجـرد لمسة واحدة.. وقـد تجرأت يومـاً عندما كـان المهندس واقفـاً على الجـسر وسط الكثـيـرين من أهل البلدة ، فاسـتطعت أن أصل إليه ، ومـددت يدى ، مرتعـشة واجـفة ، إلى أن استطعت أن ألمس الساعة.. وشعر المـهندس بيدى واعتقد أنى أحاول سرقة سـاعته ، فاسـتدار لى بغتة وصـفعنى على وجهى صـفعة لا يزال صـداها يرن فـى أذنى حـتى اليـوم.. ولولا تدخـل أهل البلدة

لسلمنى للمركز..

وظلت الساعة هى حلمى الوحيد.. إلى أن جئت إلى القاهرة – وأنا ساقط ابتدائية – واستطاع أبى بتوصية من حضرة العمدة أن يعيننى فى وظيفة نساخ فى إدارة النسخ بوزارة العدل.. بمرتب خمسة جنيهات وثلاثة وعشرين قرشاً..

وبدأ الحلم الكبير يقترب منى..

كنت أقضى الساعات الطوال وأنا واقف أمام دكاكين بيع الساعات ، أنظر إليها كأنى أنظر إلى نجوم السماء.. وعرفت أشكالها ، وأحجامها ، وأسماءها.. إنى أحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع ماركات الساعات.. موفادو.. رولكس.. الجرس.. أوميجا.. اركاديا.. و.. و.. إنى أنسى سريعاً أسماء الناس ، ولكنى لا أنسى أبداً أسماء الساعات..

وأخيراً...

استطعت أن أوفر من مرتبى فى خلال عام ما يكفى لشراء أول ساعة فى حياتى.. ولا تتصور فرحتى.. كأنى تزوجت.. كأنى ولدت من جديد..

والساعة فى يدى تغرينى بأن أكتشف سرها..

والإغراء يشتد..

وبدأت أفتح ساعتى.. كأنى أفتح قلب حبيبتى.. وشغلت بها عن الدنيا كلها.. كنت أخرج من الوزارة ، أجرى إلى البيت ، لأعود إلى ساعتى.. أعبث بقلبها.. واستطعت أن أفك كل مساميرها ، ثم أعيد تركيبها.. بنفس الدقة.. ثم لا ألبث أن أعود وأفكها ، وأعيد تركيبها..

وهكذا بدأت هوايتى لتصليح الساعات.. أصبحت لا أعيش إلا فى ساعة أصلحها.. ليس لى عالم آخر.. ليس لى أصدقاء.. ليس لى ناس.. بل إن هوايتى شغلتنى عن الزواج.. لم أتزوج إلا عندما وصلت سن التاسعة والثلاثين ، وبعد أن أصرت أمى – قبل أن

تموت بعامين – على تزويجي رغم أنفي..

ولم يتغير مني شيء بعد الزواج ، سوى أني انتقلت إلى شقة مكونة من حجرتين في بيت يقع في أطراف الجيزة.. عالمي كله ساعات أصلحها – ساعات زملائي في الوزارة – وزوجتي – وهي من بلدنا – بعيدة عن هذا العالم.. بعيدة عني ، وأنا بعيد عنها..

والواقع أنه لم تكن الساعات هي هوايتي الوحيدة ، وإن كانت هوايتي الكبيرة.. فقد كانت لي هوايات فرعية لا ترتفع إلى مستوى هوايتي للساعات..

كنت أهوى تصليح الأحذية كل أحذيتي أصلحها بنفسي.. أستطيع أن أصنع لها نصف نعل.. ونعلاً كاملاً.. وأن أخيط ثقوبها.. وصدقني أني أحتفظ إلى اليوم بكل أحذيتي التي اشتريتها منذ جئت إلى القاهرة.. وكلها لا تزال صالحة للاستعمال.. ولا مانع عندي من أن أصلح حذاء لزميل لي من زملاء الوزارة..

وكنت أهوى أيضاً الطبخ.. أقسم لك أني أستطيع أن أعد طبقاً من فتة الكوارع أشهى مما يعده «الركيب» طاهي الكوارع المعروف.. ولكني اضطررت بعد أن تزوجت أن أحد من هوايتي للطبخ ، فقد كانت زوجتي تعتبرها نوعاً من التعدي على اختصاصها.. لم تكن تحتج.. ولم تكن تعترض.. ولكني كنت أقرأ تذمرها على وجهها..

وبعد عامين من زواجي رزقت بابني عبدالفتاح.. على اسم أبي..

وفرحت بعبد الفتاح.. ولكن فرحتي به لم تغير شيئاً من حياتي ، ولم تقلل من ضياع كل وقتي وكل اهتمامي ، بين الساعات والأحذية.. وتركته لأمه تصنع به ما تشاء ، ولا يصلني منه إلا صراخه.. وعندما كبر قليلاً ، حرصت على ألا تصل يداه إلى عالمي... إلى الساعات التي أصلحها ، والآلات الصغيرة التي أستعين بها في إصلاحها..

وعندما وصل عبد الفتاح إلى السادسة من عمره.. ماتت زوجتي..

وحزنت عليها.. حزنت كثيراً.. ولكن شيئاً لم يتغير فى حياتى ، سوى أنى أصبحت أمارس هوايتى فى الطبخ ، وأصبحت أشرف بنفسى على شئون عبدالفتاح.. ولم يكن عبدالفتاح يحتاج إلى جهد كبير للإشراف عليه.. فقد كان ولداً مؤدباً ، مطيعاً ، صامتاً، يبدو هيكله ضعيفاً وإن لم يشك أبداً من مرض..

وعشت مع عبدالفتاح كصديقين ، قليلى الكلام.. أنا فى غرفة منكب على إصلاح الساعات ورتق الأحذية.. وهو فى الغرفة الأخرى.. لا أدرى ماذا يفعل.. أحياناً أجده يقرأ.. وأحياناً أجده يخط خطوطاً على الحائط.. وأحياناً أجده يلعب ألعاباً لا أفهمها.. ولا يخرج من غرفته إلا نادراً.. يبقى وحده ساعات طوالاً.. مثلى.. ولم يشغلنى أبداً شىء من أحواله.. لم يخطر على بالى أن فى حياته مشكلة.. كنت سعيداً به ، وكنت أعتقد أنه سعيد بى..

وأصبح عبدالفتاح فى الحادية عشرة.. تلميذاً فى المدرسة الإعدادية..

وفى يوم دخل إلى حجرتى ، وأخذ يرقبنى صامتاً وأنا أصلح ساعة ، وفوق عينى اليمنى المنظار المكبر الذى أرى من خلاله الدنيا الدقاقة الرائعة.. دنياى..

وفجأة سمعت عبدالفتاح كأنه ينادينى من عالم بعيد :

- بابا..

ورفعت إليه وجهى والمنظار المعظم مركز فوق عينى اليمنى وأراه من خلاله كأنه خيال ضخم مهزوز..

واستطرد عبدالفتاح قائلاً :

- بابا.. كيف أستطيع أن أجد صديقاً..

وسمعت السؤال جيداً.. ولكنى لم أفهمه.. ونزعت المنظار المعظم من فوق عينى ، ونظرت إليه فى دهشة ، وقلت :

- ماذا تريد يا عبده ؟

وعاد عبدالفتاح يقول فى صوت حائر وهو يدير وجهه عنى :

– أريد أن أجد صديقاً..

واشتدت دهشتى..

ماذا يعنى عبده.. ماذا يقصد.. ولماذا يحتاج إلى صديق ، لماذا يحتاج الإنسان إلى صديق.. وما هو الصديق.. إنى أعرف ناساً كثيرين.. أعرف زملائى فى الوزارة.. وأعرف الحاج عبده البقال.. والمعلم عليش الجزار.. والسيد محمد نوفل الساعاتى.. فهل أستطيع أن أعتبرهم أصدقاء.. إنى لا أعرف عنهم شيئاً.. لا أعرف شيئاً عن حياتهم ولا من مشاكلهم.. ولا أزورهم ولا يزوروننى.. ولا أجلس معهم على مقهى. ولا أشعر بأنى فى حاجة إليهم ، أكثر من حاجاتى إلى مجرد التعامل معهم ، فهل هذا يكفى ليكونوا أصدقاء ، لا أدرى..

ونظرت إلى عبدالفتاح وقلت فى برود :

– إنك تستطيع أن تجد أصدقاء كثيرين بين زملائك فى المدرسة..

قال فى صوت حزين :

– ليس لى بينهم أصدقاء..

قلت وأنا أحاول أن أبتسم :

– أتخذ منهم أصدقاء..

قال والحيرة تنطلق من عينيه :

– كيف ؟

وترددت.. ترددت طويلاً.. إنى لا أعرف كيف يصنع الإنسان أصدقاء.. ولم أحاول يوماً أن أصنع صديقاً.. لقد عشت وهواياتى تغنينى عن كل الأصدقاء.. عن كل الناس..

ورغم ذلك قلت لعبده :

– اقترب منهم ، وحادثهم.. والحديث يؤدى إلى الصداقة..

وقال عبده فوراً :

- ماذا أقول لهم ؟

قلت وأنا لا زلت غارقاً فى حيرتى :

- قل لهم أى شىء.. أى كلام..

قال :

- قد أقول كلاماً سخيفاً ، فيضحكون علىّ..

قلت وأنا أنظر إليه فى إشفاق :

- من أدراك أن كلامك سيكون سخيفاً.. ربما يعجبهم كلامك.. وإذا لم يعجب واحداً ، قد يعجب الآخر..

وسكت عبد الفتاح.. نكس رأسه.. وخيل إلىّ أنه تنهد.. ثم قام يسير بخطوات متثاقلة ، وقبل أن يخرج من الغرفة.. التفت إلىّ كأنه يهم أن يتكلم.. ولكنه لم يتكلم.. عاد ونكس رأسه وخرج إلى غرفته..

وحاولت أن أعود إلى الساعة التى أصلحها.. ركزت المنظار المعظم فوق عينى اليمنى.. ونظرت إلى قلب الساعة.. ولكنى لم أر شيئاً.. كل ما أراه صورة عبدالفتاح مبتئساً حزيناً منكس الرأس..

إنى لم أكن أتصور عبد الفتاح حزيناً أبداً.. كنت أتصوره سعيداً.. مثلى.. وكنت أعتقد أن هذه الساعات الطويلة التى يقضيها وحيداً فى غرفته يلعب ألعاباً لا أفهمها ، هى ساعات حلوة كالتى أقضيها ألعب بالساعات والأحذية..

ولكنه ليس سعيداً..

إنه حزين ، يعانى مشكلة.. لا أفهمها..

وحاولت أن أنسى مشكلة عبد الفتاح.. حاولت أن أقنع نفسى أنها ليست مشكلة ، ولكنها مجرد خاطر من خواطر الطفولة.. ولكنى لم أنس.. إن صورة وجهه الحزين تملأ عينى.. وتلاحقنى.. لم أعد أستطيع إصلاح الساعات.. ولا الأحذية... لم أعد قادراً على تركيز ذهنى فى شىء إلا فى مشكلة عبد الفتاح..

وأصبحت بائساً أنا الآخر..

والعلاقة بينى وبين عبد الفتاح أصبح يشوبها بعض التوتر ، وكثير من الحرج.. كل منا لا يستطيع أن ينظر فى عينى الآخر.. والكلمات بيننا مقتضبة.. وكل منا يزداد عزلة عن الآخر.. كل واحد فى غرفته.. وربما كنا دائماً هكذا.. ولكنى بدأت أشعر أن انعزال كل منا فى حجرته ، ليس مجرد انسياق لطبيعتنا ، ولكنه تباعد متعمد..

ومر أسبوعان..

ثم تجرأت وسألت عبد الفتاح ، وصوتى يرتعش كأنى أفتح به جرحاً فى صدرينا :

– هل وجدت صديقاً ؟

ورفع إلى عبد الفتاح عينين قاسيتين كأنه يلومنى ، وقال فى اختصار باتر :

– لا..

ثم مشى إلى غرفته ، وشفتاه ممطوطتان تقطران سخطاً ومرارة ويأساً.. ونظرت خلفه وأنا أشعر أنه يحملنى مسئولية فشله فى العثور على صديق..

وبدأت أشعر أنى مسئول فعلاً.. ولم أكن أشعر من قبل بأى مسئولية نحو عبد الفتاح ، لقد كبر بجانبى دون أن يشعرنى بمسئوليته ، ودون أن أشعر أنا بهذه المسئولية.. ولكن الآن.. أنى أشعر بأنى أب فاشل.. أشعر بأنى أهملت عبد الفتاح طول عمره.. أشعر بعجزى.. بضعفى.. بتفاهتى..

وانقضت أيام وأنا لا أستطيع أن أرفع رأسى ، حتى أمام زملائى فى الوزارة.. خيل إلى أنهم هم أيضاً يتهموننى بالتقصير فى حق عبد الفتاح.. يتهموننى بالعجز.. بأنى أب فاشل..

وطوال هذه الأيام ، كرهت كل شىء.. حتى الساعات.. ربما كانت هذه الساعات هى التى شغلتنى طول عمرى عن عبدالفتاح..

وأفكر.. كيف أحل المشكلة..

فكرت كثيراً..
إنها ليست مشكلة سهلة كما كنت أتصور..
وأخيراً تذكرت جارنا الحاج على مقاول البياض.. إن له ابناً فى عمر عبد الفتاح.. ولم يكن بينى وبين الحاج على صداقة ، ولا شبه صداقة.. كل ما بينى وبينه ، تبادل التحية من بعيد كلما التقينا عند مدخل الحى.. ولكنه كان يبدو بشوشاً دائماً.. وقد حاول أكثر من مرة أن يُجرى معى حديثاً ، وكنت أقطع محاولته لأسرع عائداً إلى بيتى ، أو أسرع ذاهباً إلى عملى..
وابتسمت فى راحة عندما تذكرت الحاج على.. إنه لن يبخل على بصداقته.. ولن يبخل بصداقة ابنه لابنى..
وأخذت أترقبه ، وأبحث عنه بعينى ، فى ذهابى وعودتى..
إلى أن صادفته.. ولم أكتف بالسلام عليه من بعيد ، كما كانت عادتى.. تقدمت إليه.. واحتجت لكل شجاعتى لأتقدم إليه.. ومد الحاج على يده يصافحنى وقد اكتسى وجهه بالدهشة.. ربما فوجىء عندما تقدمت إليه ووقفت أصافحه.. ولكنه أفاق من دهشته سريعاً واسترد بشاشته.. وأخذ يهز يدى فى عنف ، وكلمات الترحيب تتدفق من فمه كالشلال.. وأنا عاجز عن ملاحقة كلماته والرد عليه بمثلها.. ويدى مستسلمة ليده.. وعقلى كله مشغول بترتيب الكلمات التى سأقولها له.. وأحس بالارتباك.. والحرج.. والعجز..
واكتفى الحاج على من كلمات الترحيب ، وترك يدى وقد التصقت أصابعها بعضها ببعض ، وقال :
- فرصة سعيدة يا حسنين أفندى.
قلت ، والكلمات ثقيلة على لسانى :
- إننا لا نراك يا حاج..
وقال الحاج على وابتسامته أعرض من كرشه :
- تحت النظر يا حسنين افندى..

قلت فى تلعثم ومسكنة :

- إنى أتمنى لو نتزاور.. لماذا لا تأتى لزيارتنا.. إنى أعيش وحدى كما تعلم..

وقال الحاج على من خلال ضحكة كبيرة :

- اؤمر يا حسنين أفندى..

قلت صوتى يكاد يضيع من حلقى :

- تفضل بزيارتنا.. غداً..

قال :

- هذا شرف كبير.. قبل المغرب بإذن الله..

وترددت قليلاً ثم استجمعت شجاعتى ، وقلت :

- ولعلك تستطيع أن تأتى معك بابنك المحروس.. ليتعرف بابنى عبد الفتاح..

وعادت الدهشة تملأ وجه الحاج على ، ونظر إلى كأنه يشك فى سلامة عقلى.. وقال :

- ابنى.. أى واحد فيهم تقصد..

قلت فى صوتى المسكين :

- الذى فى الحادية عشرة من عمره.. أو ما يقاربها.. لقد رأيته معك كثيراً..

وضحك الحاج قائلا :

- تقصد الواد خميس.. والله ده ما يستاهل يا حسنين أفندى.. ده واد مجرم... إنما إيه الحكاية.. هى حفلة ؟!

قلت وأنا أغتصب ابتسامة :

- أبداً.. إنما ابنى عبد الفتاح يريد أن يكون له صديقاً..

ونظر إلى الحاج على فى شك ، ثم قال :

- فهمت.. حاضر يا أستاذ حسنين.. يحصل لنا الشرف..

ولم يكن يبدو على الحاج على أنه فهم شيئاً..

ومددت له يدى وأنا أؤكد عليه :

- غداً.. قبل المغرب.. بإذن الله..

عاد الحاج على يهز يدى فى عنف وكلمات الترحيب تتدفق من فمه الكبير كالشلال..

ولا أستطيع أن أصف لك مدى ما عانيته وأنا أستعد لزيارة الحاج على... لم يحدث من قبل أن زارنى أحد فى بيتى ، سوى عدد قليل من أقاربى الذين يفدون من بلدتنا فى المناسبات.. ولم أكن أعرف كيف يستقبل الناس زوارهم.. ولم أكن أدرى على الأخص ما يمكن أن يدور من أحاديث خلال هذه الزيارة.

وقضيت الليل مرتبكاً ، أعد كل ما يخطر على بالى استعداداً للزيارة.. وفى اليوم التالى اشتريت أثناء عودتى من الوزارة نصف كيلو من الكعك ، ونصف كيلو من الحلوى. وأخذت أرتبهما فى أطباق، وأعد لهما مكاناً فوق المائدة التى تتوسط الصالة..

ولم أكن حتى هذه اللحظة قد أخبرت عبد الفتاح بما أعددته له ، وانتظرته إلى أن عاد من المدرسة ، وقلت له :

- استعد.. وجدت لك صديقاً ، سيأتى لزيارتنا اليوم..

ونظر إلى عبد الفتاح من خلال عينيه البائستين ، كأنه لا يفهم شيئاً..

واستطردت قائلاً :

- جارنا الحاج على سيأتى لزيارتنا ومعه ابنه خميس.. إنه فى مثل سنك.. وتستطيع أن تتخذه صديقاً..

ونظر إلى عبد الفتاح صامتاً وشفتاه ممطوطتان.. وعيناه يائستان.. ثم استدار ومشى إلى غرفته ، دون أن تبدو عليه فرحة ولا دهشة..

وأحسست كأنه يستهين بى ، وبعقليتى..

لا يهم..

عدت أستعد للزيارة المرتقبة.. واحترت هل أستقبل الحاج على وأنا ارتدى البدلة ، أم الجلباب.. فكرت كثيراً.. ثم قررت أن أرتدى البدلة وطلبت من عبد الفتاح أن يرتدى القميص والبنطلون اللذين يذهب بهما إلى المدرسة.. وأطاعنى كعادته دون أن ينظر فى عينى..

و...

وجاء الحاج على وولده خميس..

وارتفع صوته الضخم يملأ البيت ضجيجاً.. إن بيتى لم يتردد فيه كل هذا الضجيج من قبل.. خيل إلى أن جدرانه ستقع.. خيل إلى أنى خرجت من بيتى.. طردت منه.. وأصبحت فى الشارع ، بكل ما فى الشارع من ضجيج..

وجلس الحاج على ، وجلست قبالته..

وجلس ولده خميس.. وجلس عبد الفتاح قبالته..

وعزمت عليهما بطبق الكعك ، فأخذ كل منهما كعكة.. وأخذ عبدالفتاح هو الآخر كعكة..

والحاج على يتكلم.. إنه يتكلم وحده.. وأنا أبتسم.. وأهز رأسى دون أن أستطيع ملاحقة معانى كلامه.. وأنظر بين الحين والآخر إلى خميس وعبد الفتاح.. إنهما لا يتكلمان.. يختلسان النظر أحدهما للآخر دون أن يتكلما.. كيف أجعلهما يتكلمان.

وكان خميس قد انتهى من التهام كعكته ، فقمت أعزم عليه بكعكة أخرى ، وأنا أسأله :

– ما اسم مدرستك يا خميس..

وكنت أتمنى أن أصل من هذا السؤال إلى حديث يدور بين خميس وعبد الفتاح.. ولكن خميس لم يرد.. تولى الحاج على الإجابة عنه.. وعاد الحديث يتدفق من فمه الكبير ، ويملأ البيت ضجيجاً..

وانتهى خميس من التهام الكعكة الثانية ، ومد يده وأخذ كعكة ثالثة دون أن أعزم عليه.. ثم اختصر المسافة وقام ووقف أمام المائدة

يلتهم الكعك وقطع الحلوى.. بسـرعة مذهلة.. إنه يبتلعـها بلعاً.. وأنا وعـبد الفـتـاح ننظر إليـه فى دهشـة كأننا ننـظر إلى أحد الحـواة.. وصوت الحاج على يملأ آذاننا ، ولا نسـتـريح منه إلا برهات متقطعة يمد خلالها يده ويلتقط قطعـة من الحلوى أو قطعة من الكعك يحشو بها فمه ، ويعود إلى الكلام..

وقمت بمحاولة أخـيرة.. نظرت إلى عبد الفـتاح ، وقلت وأنا أعلق على شفتى ابتسامة :

– لماذا لا تقوم وتلعب مع خميس فى حجرتك ؟

ونظر إلى عبد الفتاح شذراً كأنى أطلب منه شيئاً سخيفاً غاية السخف..

وقال خميس وهو واقف بجانب المائدة يلتهم قطع الحلوى :

– لا أريد أن ألعب..

وقال الحاج على فى صوته الضخم :

– خليهم يتهدوا شوية..

وسكت أنا..

يئست..

وعاد الحاج على يملأ البيت ضجيـجاً.. وخميس يملأ فمه بالكعك وقطع الحلوى.. وأنا وعبد الفتاح صامتان..

وانتهت الزيارة..

وقام الحـاج على يصـافحنى ويلصق أصـابعى بعضـهـا ببعض ، والكلمات الضخمة تتدفق من فمه.. وخرج دون أن يصافح عبدالفتاح كأنه لم يشعر بوجوده بيننا أبداً..

وقبل أن يخرج خـميس ، استوقفتـه وحملت القليل الذى بقى من قطع الحلوى ، ووضعتها فى جيبه كأنى أقول له :

– بالسم..

وصاح الحاج على :

– متـشكر على الكرم يا حـسنين أفندى.. والله الواد لا يستـاهل

شيئاً.. إنه ولد ملعون..

وابتسمت كأنى أوافقه على رأيه..

خرج الحاج على وولده..

وأنا أشعر بالخيبة..

بالفشل..

ولا أستطيع أن أنظر فى عينى عبد الفتاح..

■ ■ ■

ومر أسبوع آخر ، وأنا أشعر بكل لحظة يقضيها عبد الفتاح وحده فى غرفته.. وأشعر أنها لحظة عذاب.. وزهق ، وإحساس بالنقص.. ولا أكف عن التفكير فى مساعدته على الخروج من وحدته ، وعزلته ، وانطوائه وجعل حياته مليئة بأصدقاء كثيرين. يلعبون معه. ويتكلمون معه. ويضحكون معه.. إنها مسئوليتى.. أنا أبوه.. وإذا كنت قد أهملته طوال هذه السنين ، فعذرى أنى لم أكن أدرى. لم أكن أدرى أنه تعيش فى وحدته..

وتشجعت. وسألته ونحن نتناول طعام الغداء :

– هل رأيت خميس ؟

وقال وهو يلوى شفتيه :

لا..

قلت كأنى أتوسل إليه :

– لماذا لا تذهب لزيارته..

ونظر إلى كأنه يتهمنى بالجهل ، وقال :

– إن الأطفال لا يتزاورون..

قلت :

– إذن.. قابله فى الحارة..

قال :

– لماذا ؟

قلت :

- لتلعب معه..

قال فى صوت باتر لا يقبل المناقشة :

- لا أريد أن ألعب معه..

ولم أجد شيئاً آخر أقوله.. وعدت أفكر.. أياماً كثيرة وأنا أفكر.. ثم ساءلت نفسى.. لماذا لا أكون أنا صديقاً لعبد الفتاح.. ربما كانت عادة التصادق تبدأ بصداقة الابن لأبيه.. وقد عشت طول عمرى وأنا بعيد عن عبد الفتاح مشغولاً عنه بهواياتى.. بالساعات والأحذية ، والمطبخ.. لم أكن يوماً صديقاً له.. بل ربما كنت أقل من أب.. كنا غريبين ، نعيش فى بيت واحد.. فلماذا لا أحاول أن أكون صديقاً له.. لماذا لا أبدأ من جديد..

وقلت له ساعة العصر :

- تعال نخرج نتمشى قليلاً..

قال وشفتاه ممطوطتان كعادته :

- لماذا ؟

قلت :

- لا لشىء.. ولكنى زهقان من البيت.. وأريد أن أشم الهواء..

ونظر إلى عبد الفتاح كأنه لا يصدق أنى أنا الآخر يمكن أن أكون زهقاناً مثله.. ثم ابتسم ابتسامة كبيرة ، لم أرها من قبل.

وقال فى حماس :

- هل أرتدى القميص والبنطلون ؟

قلت وأنا أتنهد كأنى فعلاً زهقان :

- لا.. لا يهم.. ضع حذاءك فقط..

وخرجنا - عبد الفتاح وأنا - نسير فى الطريق الخلوى القريب من بيتنا عند أطراف الجيزة.. وجلبابانا يعفران الطريق من تحت أقدامنا..

ووجدت صعوبة كبيرة فى أن أبدأ حديثاً معه.. لم أكن أدرى عما أحدثه... ولكن عبد الفتاح كان مرحاً منطلقاً ، وبدأ يسألنى عن أبى.. أى جده.. وعن بلدتنا.. وعن الساعات.. وبعد فترة وجدت نفسى منطلقاً فى حديث لا ينتهى... اكتشفت أن عبد الفتاح لم يكن يعلم شيئاً عنى ، ولا عن عائلتنا ولا عن هواياتى.. واكتشفت أن له عندى حديثاً طويلاً.. طول عمرى طول الحياة كلها..

وعدنا إلى البيت بعد الغروب ، وكل منا يشعر بالمرح.. يكاد يطير عن الأرض.. وجلسنا نتناول عشاءنا بشهية مفتوحة.. لم أر أبداً عبد الفتاح يأكل بهذه الشهية.. ويأكل كل هذه الكمية.. ونمنا سعداء هذه الليلة..

وبدأنا نخرج - عبد الفتاح وأنا - كل يوم ، ساعة العصر ، ونتمشى فى الطريق الخلوى.. وكنا نمر دائماً على قطعة أرض فضاء يلعب فيها الأولاد الكرة.. وكنت كلما أرى الأولاد يلعبون ، أحس كأن قلبى يتململ.. وأحس بأمل مخنوق يقف فى حلقى. إنى أتمنى أن أرى عبد الفتاح يلعب الكرة مع الأولاد.. ثم إنى أعلم أنه لا يكفى أن يقتصر عبده على صداقتى.. إنه فى حاجة إلى صداقة مثل هؤلاء الأولاد الذين يلعبون الكرة..

ولكن عبد الفتاح لا يثيره منظر الأولاد الذين يلعبون الكرة.. ولا يتوق لتتبع لعبهم.. ولا يبدو عليه أنه متأثر لأنه لا يلعب معهم ، أو أنه يتمنى اللعب معهم..

وبدأت أنا أتوقف كلما مررنا على الأولاد الذين يلعبون الكرة.. ويقف عبد الفتاح بجانبى دون أن يشعر بصخب الأمل الذى يجيش فى صدرى..

والأمل يزداد صخباً..

الأمل فى أن أرى عبد الفتاح يوماً يلعب الكرة مع أصدقائه.

أصبح هذا الأمل هو كل حياتى..

وأخيراً.. لم أطق أن أخفى أملى ، قلت لعبد الفتاح ونحن واقفان نرقب الأولاد الذين يلعبون :

– لماذا لا تلعب معهم..

قال :

– إنى لا أعرفهم..

قلت :

– من السهل أن تعرفهم..

قال :

– لا أريد أن ألعب الكرة.. إنى لا أعرف كيف ألعبها..

قلت :

– من السهل أن تلعبها..

قال :

– كيف ؟

ولم أكن أدرى كيف.. ولكنى لم أعد أستطيع أن أتخلص من أملى.. أريد أن أرى ابنى له أصدقاء غيرى.. وأريد أن أراه يلعب معهم.. ويلعب الكرة... ثم إنى أريد أن أعود إلى هواياتى.. إلى ساعاتى.. وأحذيتى.. وإلى المطبخ..

وأصبحت أطيل الوقوف أمام ملعب الأولاد ومعى عبدالفتاح.. وأتعمد الابتسام كلما اقترب منا واحد منهم ، لعله يبادلنى ابتسامتى.. وفى مرة جاءت الكرة ناحيتنا وجاء خلفها ولد ليلتقطها.. فابتسمت له ابتسامة كبيرة ، وقلت له :

– ما اسمك يا شاطر..

ونظر إلى الولد نظرة قاسية ، فيها ازدراء واستخفاف ، والتقط الكرة وجرى بعيداً ، دون أن يقول لى اسمه..

وخيل إلى ساعتها أن وجه عبد الفتاح قد احتقن.. كأنه شعر بالخجل.. ولكنه ظل صامتاً.. لم يتكلم.. والواقع أننا فى الأيام

الأخيرة لم نكن نتكلم كثيـراً.. كأن الكلام قد فرغ من بيننا.. وبدأ كل منا يشعر أنه يبتعد عن الآخر.. كأننا التقينا.. لنفترق..

ولكنى كنت لا زلت مصمماً على أن يلعب عبد الفتاح الكرة مع الأولاد..

وفى مرة قذف الأولاد الكرة ، وجاءت ناحـيتنا.. وجاء ولد يجرى خلفها.. وأسرعت والتقطت الكرة قبل أن يلحقها الولد ، وحملتها بين يدى ، وقدمتهـا لعبد الفتاح كأنى اصطدت له صـيداً ثميناً ، وقلت له وأنا أبتسم فى إغراء :

– خذ.. شوط..

واحتقن وجه عبد الفتاح حتى أصبح فى لون الجزرة ، وهز رأسه فى عنف وهو يكرر :

– لا.. لا.. لا يا بابا..

وجاد الولد يجرى خلف الكرة ، وصاح :

– هات الكرة يا عم..

ونظرت إليه وقلت له فى رجاء :

– انتظر قليلاً..

ثم مددت يدى بالكرة إلى عبد الفتاح وأنا أصرخ فيه :

– خذ شوط يا عبد الفتاح..

وعاد عبد الفتاح يهز رأسه فى عنف ، كأنى أطلب منه أمراً منكراً، ويقول كأنه يهم بالبكاء :

– لا.. بلاش يا بابا..

والولد صاحب الكرة يصرخ :

– يا عم هات الكرة..

والتفت إليه وصـرخت فيه وأنا أحس أن أعصابى كلهـا قد التفت حول الكرة..

– قلت لك انتظر قليلاً..

وعدت أرجو عبد الفتاح أن يشوط الكرة..

وعبد الفتاح يرفض..

وتجمع حولنا بقية الأولاد الذين يلعبون ، وصاح كبيرهم :

- سيب الكرة يا رجل..

ولكن لا.. لن أترك الكرة.. يجب أن يشوطها عبدالفتاح.. يجب.. يجب..

واحتضنت الكرة إلى صدرى بكلتا يدى ، وبكل قوتى ، وعدت أتوسل إلى عبدالفتاح أن يشوطها..

وعبدالفتاح يرتعش..

وجهه أحمر كالجزرة..

وعيناه متجمعتان للبكاء..

ومد كبير الأولاد يده يحاول أن يخطف الكرة منى.. ولكن ، لا.. مستحيل.. يجب أن يشوطها عبدالفتاح أولاً..

ولا أدرى ماذا حدث بعد ذلك.. ولكنى شعرت بالأولاد يدفعوننى.. ثم وجدت نفسى واقعاً على الأرض.. وشعرت بضربة فى جنبى.. وسمعت عبد الفتاخ يصرخ.. بابا.. بابا.. ثم وجدته يقع على الأرض بجانبى.. وأنفه ينزف دماً..

وأخذ الأولاد الكرة.. وهم يصيحون.. «العجل وقع ، هاتوا السكين»..

وعبدالفتاح يبكى.. يبكى بحرقة..

وقمت من على الأرض، وعدلت نظارتى فوق أنفى ، وأخذت أنفض التراب عن جلبابى ، وعن جلباب عبد الفتاح ، وأجفف له الدم الذى ينزف من أنفه ، وأمسح له دموعه..

وسرنا إلى البيت.. صامتين.. لا يستطيع أحدنا أن يرفع عينيه إلى الآخر..

وكلب أسود صغير ، بارز العظام معمص العينين ، يسير خلفنا ، ويتمسح فى ساقى عبد الفتاح ، ويهز ذيله..

ونظر عبـد الفتـاح إلى الكلب من خلال دموعـه.. ثم انحنى يربت على ظهره..

ووصلنا إلى البيت..

والكلب معنا..

ودخلنا.. ودخل الكلب معنا..

وأسميناه «عنتر» لأن لونه أسود.. وعـبد الفتاح يحبه.. وهو يحب عبد الفـتاح.. وأنا أهوى تصليح الساعات.. وترقـيع الأحذية ، وطهو الأطعـمـة.. وكل مـشكلتى أن النـاس يضــربون عنتــر كلمــا رأوه ، ويقذفونه بالطوب.. لأنه... نجس..

معهنة الأغنياء

كان فى العشـرين من عمره.. قصيـراً، قبيح الخلقة، أنفه أفطس، وشـفتاه منتفختـان كبالونة علقت فى مقدمة وجهه..

وكان يؤمن بأن الحب، والفن، والخـيال، هى حرفـة الأغنياء.. ليس من حق الفقـير أن يحب، ولا أن يدخل إلى مـتحف الفنون ليـتأمل لوحـة من اللوحـات الفنية، ولا أن يجـلس مسـترخـياً ويرسم صـوراً من خياله.. إن الفـقير ليس له إلا حرفة واحـدة، وهى أن يبحث عن غذاء بطنه.. أن يأكل !

وقد كان فقيراً..

ولكنه لم يكن يريد أن يحترف الأكل، وملء بطنه..

إنه يريد أن يحب، وأن يمـتع نفسـه بالفن، ويمـضى حيـاته فى الخيال.

وكان يعرف الفتاة التى يريدها.. إنها «نسليار» ابنة الأمير عمرو.. لقد أحبـها من صورتها التى تنشرها لها الصـحف.. وصورة أخرى كبيرة مـعلقة فى فترينة المصور «ألبان» بشـارع قصر النيل.. وكان يحتفظ بكل هذه الصور التى تـنشرها الصحف، وكان يذهب كل يوم ويقف أمام فتـرينة المصور، وينظر إليها، وكـان يذهب إلى الحفلات التى تقام فى الأوبرج، أو فى دار الأوبرا، ويقف عند الباب ليشاهدها داخلة.. وينتظر فى الليل البارد، حتى يراها خارجة..

ولكن..

ليس من حق الفقير أن يحب.. إن الحب هو حرفة الأغنياء!!

وقرر أن يكون غنياً ليحترف الحب.. حب نسليار..

واشتـغل عند تاجـر يهودى ليـتعلم منه أسـرار التجـارة.. ولكن مضت شـهور طويلة، ثم اقتنع أنه لن يتعلم شيئاً.. وأن أسرار اليهود

لا يمكن أن يتعلمها إلا اليهود..

واشتغل عند أحد المحامين.. واكتشف أن أبواب المحامين لا تؤدى إلاَّ إلى مزيد من الفقر..

واشتغل فى أكثر من عشرين مهنة.. ولكن، لا أمل.. إنه سيبقى فقيراً، وخير له أن يستسلم للفقر، ويتفرغ لحرفة ملء بطنه.. أن يكتفى من الدنيا بالأكل..

ثم فجأة تنبه إلى أنه يملك موهبة كبيرة.. موهبة خفة الدم.. إنه يجيد إلقاء النكتة.. ويجيد التعليق الساخر الجرىء.. وأصدقاؤه لا يكفون عن الضحك كلما اجتمعوا به.. بل إنهم يسعون إليه ويلاحقونه ليضحكهم.. وقد كان يضحكهم بالمجان.. كان يمارس موهبته كهواية..

لماذا لا يحترف خفة الدم ؟!

لماذا لا يتاجر بالنكت، والتعليقات الساخرة ؟!

وبدأ ينتقى الأصدقاء الذين يضحكهم.. ليس من حق كل الأصدقاء أن يضحكوا، إنما فقط الأصدقاء الأغنياء ذوو النفوذ، الذين يستطيعون أن يسخوا عليه بكرمهم، وأن يضعوا نفوذهم فى خدمته..

وجمع حوله فريقاً من الأصدقاء متوسطى الثروة، متوسطى النفوذ.. ثم بدأ يتسلل إلى طبقة أرقى من الأصدقاء، طبقة أكثر مالاً ونفوذاً.. ثم طبقة أرقى.. وأرقى.. إلى أن أصبح معروفاً فى الطبقة العليا.. وأصبح من بين من يضحكهم، وزراء، وأمراء، وباشاوات..

وهو فى خلال ذلك يستغل نفوذ هؤلاء الضاحكين فى القيام بخدمات تدر عليه مالاً.. يتوسط فى تعيين الموظفين لقاء أجر.. ويحصل للتجار على أذون الاستيراد والتصدير، نظير أجر.. و.. و.. و..

وجمع الألف جنيه الأولى.. والألف الثانية.. والألف الثالثة..

والرابعة.. والخامسة..

وهو لا يزال يحب نسليار..

وسعى حتى أصبح من أصدقاء والدها الأمير عمرو.. أصبح مضحكاً للأمير.. وكان يعتنى بإضحاكه جداً.. يحتفظ له بأحلى نكاته، ويجهد عقله ليختار له ألطف التعليقات الساخرة وأجرأها..

وأصبح يرى نسليار.. يراها عندما يذهب لزيارة والدها.. يراها فى الحديقة.. وأحياناً يجلس معها على مائدة الغداء... وأحياناً يرافقها هى ووالدها إلى إحدى الحفلات.. ويحاول دائماً أن يضحكها..

ولكن نسليار تعامله باحتقار.. تعامله كخادم.. حتى عندما تضحك لنكاته، يحس فى ضحكتها احتقاراً له..

إنه لا يزال فقيراً.. وليس من حق الفقير أن يحب !

وأقبل على جمع المال بشراهة.. يريد أن يكون غنياً.. أغنى من الجميع.. حتى يحترف الحب، والفن، والخيال..

وأصبح يملك عشرة آلاف جنيه.. وخمسة عشر ألفاً.. وعشرين ألفاً.. وثلاثين.. وهو يقتر على نفسه ليزيد من رصيده فى البنك.. ويذهب إلى البنك كل صباح ليراجع هذا الرصيد.. وليجلس مع المدير والموظفين يطمئن على أمانتهم بنفسه، حتى لا يتلاعبوا برصيده..

ومضت عشرون عاماً..

واقتنع أنه أصبح غنياً..

وبدأ يمتع نفسه بالفن.. بدأ يذهب إلى معارض الفنون ويتأمل اللوحات طويلاً.. ثم بدأ يشترى هذه اللوحات.. ولكنه لاحظ فى نفسه شيئاً غريباً.. إنه يهتم بثمن اللوحة أكثر مما يهتم بقيمتها الفنية.. ويسائل نفسه : هل تبقى اللوحة محتفظة بثمنها على مر الزمن.. أم أن ثمنها يمكن أن يقل.. أم يمكن أن يزيد.. فإذا وجد أنها

تظل محتفظة بثمنها، أو يمكن أن يزيد ثمنها.. اشتراها..

وبدأ يمتع نفسه بالخيال.. كان يجلس مسترخياً ساعات طويلة يرسم خلالها صوراً من خياله.. ولكنه لاحظ أن كل ما يرسمه هو صور مشروعات اقتصادية.. مشروعات تدر عليه مزيداً من المال..

ونسليار !!

إنها لا تزال تحتقره.. وقد أهداها صندوقاً من «السيفر» كلفه مائتى جنيه.. وأهداها سواراً من الذهب، ثمنه مائة وخمسون جنيهاً.. وأرسل لها أكثر من باقة ورد.. وهى تتقبل هداياه، ثم تمنحه مزيداً من الاحتقار والتعالى عليه..

ثم قامت الثورة..

وأصبحت نسليار ووالدها فقيرين..

إنه الآن أغنى منهما.. لم يعد فى حاجة إلى إضحاك الأمير.. ولم تعد نسليار تستطيع أن تحتقره..

وبدأت نسليار تبتسم له.. ومنحته يدها ليقبلها، ويضغط عليها بشفتيه المنتفختين... ثم قبلت دعوته لتناول العشاء.. وقبلت أن تراقصه..

ولكنه لم يصل إليها بعد..

وطلباتها منه لا تنتهى.. وآخر ما تطلبه عربوناً لحبه، عشرة آلاف جنيه لتوظفها فى مشروع جديد.. وهو يستطيع أن يدفع لها العشرة آلاف جنيه.. ولكن.. إن هذا المبلغ لن يسترده.. ونسليار رغم أنها لا تزال جميلة، إلا أنها أصبحت فقيرة وعلاقته بها قد تسىء إلى مركزه ومركز مشروعاته الكثيرة.. إنها - فى الواقع - لا تساوى عشرة آلاف جنيه..

وأحس أنه لا يريد نسليار..

لا يحبها..

وجلس يفلسف حياته من جديد..

إن الحب، والفن، والخيال، ليس حرفة الأغنياء.. إن الأغنياء يحيلون الحب إلى نقود، ويحيلون الفن إلى نقود، ويحيلون الخيال إلى نقود.. إن الأغنياء لا يحترفون إلا حرفة واحدة.. هى : أن يكونوا أغنياء !!

والحب، والفن، والخيال.. حرفة الفقراء..

الثأر...!

فتحت عينيها على الحياة لتجد نفسها فى يد امـرأة عجـوز مـهلهلة الثيـاب ، تطوف بهـا فى الشـوارع تسـتـجـدى المارة والجـالسـين على المقاهى.. ثم تعـود بها فى آخـر اليوم إلى رجل شرس مخيف ، يتسلمها ويلقى بها على الأرض بين أطفال مثلها..

وكبـرت قليـلاً.. وعرفت أنهـا لقيطة.. وأن هؤلاء الأطفـال الذين ينامون معها ، لقطاء مثلها.. وأن هذا الرجل الشرس ، يتجر بها.. إنه يؤجـرها للشحـاذين ، ليسـتدروا بهـا عطف المحسنين ، لقـاء ثلاثة قروش فى اليوم..

وكـبرت أكـثر.. ووضـع الرجل الشـرس فى يدها مجـموعـة من أوراق اليانصـيب ، تطوف بها على مدمنى الحظ.. ثم تعود إلـيه قبل النصف الأول من الليل ، لتضع فى يده النقود.. كل النقود..

وعـرفت أنها جـميلة.. ليـست جمـيلة كـالبنات اللاتى تراهن فى شارع قـصر النيل وسليمان باشـا ، وهى تبيع اليانصـيب.. ولكنها أجمل البنات الحافـيات الأقدام ، المهلهلات الثيـاب.. بشرتها فى لون البن المحـمص.. وعيناها مـشروطتـان مكحلتان.. ووجـهها باسم.. وجسـدها ملفوف ، ملىء ، مثيـر.. وكل الرجال يغازلونهـا.. الرجال الذين يبيعون معها اليانصيب ، والرجال الذين تبيع لهم اليانصيب.

ولكن كان فيها شىء آخر غير جمالها..

إنها دون كل بنات اليانصـيب.. تتميز بشخصيـة عارمة.. إنها لا تضحك للرجال.. ولا تتقبل غزلهم.. وهى حريصة على شرفها.. ولم يكن أحد قد علمها معنى الشرف.. ولا معنى كلمة الكرامة.. إن البنات حولهـا ليس لهن شرف ولا كرامـة.. ولكن فى دمائها شىء يجـعلها تثور دائماً كلما اقترب رجل من شرفها أو من كرامتها.. وهى تعرف

دائماً كيف تـدافع عن نفسها.. بل تعـرف كيف تدخل معركـة بيديها وأسنانها وأظافرها ، ولسانها ، دفاعاً عن شرفها وكرامتها..

ولكن الرجل الشرس الذى يؤويها ، وجد فيهـا شيئاً جديداً يتاجر به.. كانت تسمعـه وهو يعد الرجال بها.. بجسدها.. وكان يصـحبها أحـياناً ثم يتـركهـا لرجل.. وكانـت دائماً تثـور.. وتنجو بشـرفهـا وكرامتها.. والرجل يقسو عليها أحـياناً ، ثم يعود فيهدأ حتى تبيع له اليانصيب.. إنها أنشط البنات فى بيع اليانصيب.. إنها ثروة!

وجاء اليوم الذى عـرفت فيه أنها لن تستطيع أن تستـمر وحدها فى الدفـاع عن شرفـها وكرامـتهـا.. كان يجب أن تبـحث عن رجل تحتمى به.. رجل تتزوجه..

واختارت زوجها بنفسها..

كـان سـيـد عقلـة ، رجل يكبـرها بكثـيـر.. يطوف على المقـاهى بصندوق سـجائر.. ولم يكن قوياً ولا ثـرياً.. كان فقـيراً ، بالنسـبة لكثيرين من أمثاله ، وكان مـصدوراً أصفر الوجه ، ولكنه كان هادئاً محـترماً يلجأ إليـه رؤساء عصابات اليـانصيب وأعقاب السـجائر ، فيفض منازعاتهم ، ويحكم بينهم.

وكانت تعرف أنه يريدها.. ولكنه كان يحترم نفسه ، فلا يغازلها ، ولا يحاول الاعتداء على شرفها وكرامتها..

وبدأت تشكو إليـه متاعـبها وحـالها.. وبدأ يتولـى أمرها ، ويقف بجانبها فى وجه الرجل الذى تعيش مع.. ثم فاجأته ذات يوم قائلة :

– تتجوزنى يا معلم سيد ؟

وابتسم المعلم سيد ، وقال فى هدوء :

– أتجوزك يا نعيمة..

وتزوجها سيد.. وصـممت على أن يكون زواجها على سنة الله ورسوله ، وعلى يد مأذون.. لا زواجاً عرفياً شفوياً كما يجرى زواج زميلاتها..

ولم يكن يهمها أن سيد له زوجة أخرى.. كان كل ما يهمها أنه رجل محترم يستطيع أن يصونها ويحميها..

وتركت الرجل الذى تعيش فى بيته ، وهو يتوعدها.. وانقطعت عن بيع اليانصيب.. وعاشت مع سيد فى عشة من الصفيح ، فوق سطح بيت قديم فى تلال زينهم..

وبعد عام رزقت بولد أسمته محمود..

وبعد عام آخر ، ضاق صدر زوجها بمرضه.. ومات..

وعادت تبيع اليانصيب ، وفوق كتفها محمود.. وهى لا تزال شابة.. جميلة.. والرجال يغازلونها.. الرجال الذين يبيعون معها اليانصيب ، والرجال الذين تبيع لهم اليانصيب..

والتقت بعبده سنكر..

وكان عبده سنكر شاباً قوياً.. ذكياً.. استطاع أن يسيطر على كل عصابات اليانصيب وأعقاب السجاير.. كان يملى إرادته بعينيه.. وكان فى جيبه سكين ، لا يشهره إلا نادراً.. فكان يكفيه أن يعلم من حوله أن فى جيبه سكيناً..

وأعجبت بعبده سنكر..

واشتد إعجابها ، حتى أصبح حباً.. واشتهاء.. إنها الآن امرأة من حقها أن تشتهى.. لا يكفيها أن تجد رجلاً يحميها.. وبادلها عبده الإعجاب.. ولكنه كان إعجاباً وقحاً.. إنه ينظر إليها كأنها شىء تافه.. شىء لا يكلفه احتراما ولا اهتماما .. واكتفي بأن وضعها تحت حمايته .. إنها من أملاكه .. دون أن يسألها رأيها .. ودون أن يكلف نفسه التودد إليها.. وابتعد عنها كل الرجال بعد أن اعتبروها من أملاك عبده سنكر.. إنهم يخافونه.. فتركوها له وحده..

وبدأت تحس بضعفها أمام شخصيته.. تحس أنها لن تستطيع أن تدافع عن شرفها ، وكرامتها.. لن تستطيع أن تقاوم طويلاً..

وقالت له يوماً ، وهى جالسة تحت أقدامه أمام باب المقهى :

– مش تتجوز يا عبده ؟

ونظر إليها ساخراً ، ثم قام من جلسته ، وقال لها فى لهجة آمرة:

– تعالى..

قالت وهى تهم بالقيام :

– على فين يا عبده ؟

قال دون أن ينظر إليها :

– تعالى بس يا نعيمة.. بلاش كتر كلام !

وسار أمامها وهى وراءه ، تجذبها شخصيته المسيطرة.. ودخل إلى عشته.. ودخلت وراءه..

ولم تستطع أن تقاوم طويلاً..

استسلمت.. لأول مرة بلا زواج !

وعاشت معه... تنام وبجانبها ابنها محمود... إلى أن يدخل عبده ، فيأخذ من جسدها ما يريد ، دون أن يتكلم كثيراً.. وابنها محمود بجانبها..

وانقضت شهور قليلة.. شهر.. شهران.. ثم بدأ عبده يمتنع عن التردد عليها..

وبدأت تلاحقه.. لاحقته كثيراً.. فرطت فى كل ما بقى من كرامتها.. إلى أن دفعها يوماً فى صدرها ، وهو يصرخ :

– غورى من وشى.. هيه تلقيحة.. باقولك غورى.. أحسن واللى خلقك ، أطينها على دماغك..

وصرخت كالنمرة الجريحة ، واندفعت إليه تحاول أن تنشب أظافرها فى عنقه.. ولكنه كان أسرع منها.. وصفعها صفعة قوية بيد كقطعة الحديد.. فسقطت على الأرض.. سقطت فى الطين..

والرجال والنساء من حولها يضحكون..

وعرفت أنها لن تستطيع أن تعيده..

وعرفت أنها لن تستطيع أن تثأر لشرفها وكرامتها الذبيحة..

ولكن.. هناك شخص يستطيع أن يثأر لها.. محمود.. ابنها محمود.. إنه يستطيع أن يثأر لشرف أمه وكرامتها..

وبدأت تضع المليم فوق المليم.. والقرش فوق القرش.. حتى استطاعت أن تشترى سكيناً حادة ، وضعتها فى يد ابنها محمود ، وهو لا يزال فى الخامسة من عمره.. وأخذت تحدثه عن عبده سنكر الذى يجب أن يقتله..

ولم يكن محمود يفهم حديثها.. ولا يفهم معنى للسكين التى تخرجها أمه من تحت ثيابها ، وتضعها فى يده ، وتعلمه كيف يقتل بها..

وكبر محمود، أصبح فى الثالثة عشرة من عمره ، وفهم حديث أمه.. إنها تقول له إنه يجب أن يثأر من عبده سنكر.. لأنه قتل أباه.. وشرد أمه..

وذهب محمود ليرى عبده لأول مرة..

إنه لا يحس نحوه بكراهية.. يحس أن أمه تكذب عليه.. لا يستطيع أن يصدق أن عبده قتل أباه.. بل إنه معجب بعبده.. معجب بشخصيته.. وقوته.. وسيطرته على كل الرجال والأولاد..

وعرفه عبده.. وناداه :

– تعال يا محمود..

ثم أخرج بضعة أوراق يانصيب ، وقال له :

– خد دول بيعهم.. وارجع لى آخر النهار..

وأحس محمود بالزهو على قرنائه لأنه أصبح يعمل فى خدمة عبده.. واجتهد فى بيع أوراق اليانصيب.. وقربه عبده إليه أكثر.. وأكثر.. وتباهى محمود بصداقة عبده ، أكثر.. وأكثر.. إلى أن سمع

يوماً أحد الأولاد يقول لزميله :

– الواد ابن نعيمة ده طالع فيها.. ما حدش قادر يكسر أنفه.. اكمن أمه كانت رفيقة عبده..

ولم يصدق أذنيه.. وبدأ يستعيد حديث أمه.. هل كانت تريد منه أن يقتل عبده لأنه كان عشيقها..

وبدأ يحتار.. وينظر إلى أمه بعين جديدة.. ويرى فيها بقعاً من الدماء.. دماء شرفه المثلوم ، وكرامته المباحة.. وبدأ يحس كأنه يكرهها.

وتشاجر يوماً مع الأولاد ، وصاح فيه أحدهم :

– ما تروح تتشطر على أمك ، اللى كانت مرافقة عبده سنكر.. ده يظهر أن عبده مرافقك انت كمان..

وجن محمود..

وأمسك بزميله الصغير ، وأخذ يضرب رأسه فى الأرض ، حتى كاد يقتله.. ثم جرى المجنون إلى بيته ، وأخرج السكين التى اشترتها أمه ، وهمّ أن يعود.. لا يدرى إلى أين.. ولكن السكين فى يده.. وهو يريد أن يقتل..

وصاحت أمه وراءه كأنها تزغرد :

– أنا جاية معاك.. نفسى أشرب من دمه.. دمه كله مش حايطفى نارى..

والتفت إليها المجنون..

وفى لمحة واحدة.. هجم عليها ، وأطلق السكين فى صدرها.. فى صدر أمه.. ثم رفعها.. وعاد يطعنها. ويطعنها.. ويطعنها..

ثم وقف فوق جثتها هادئاً..

وسقطت السكين من يده..

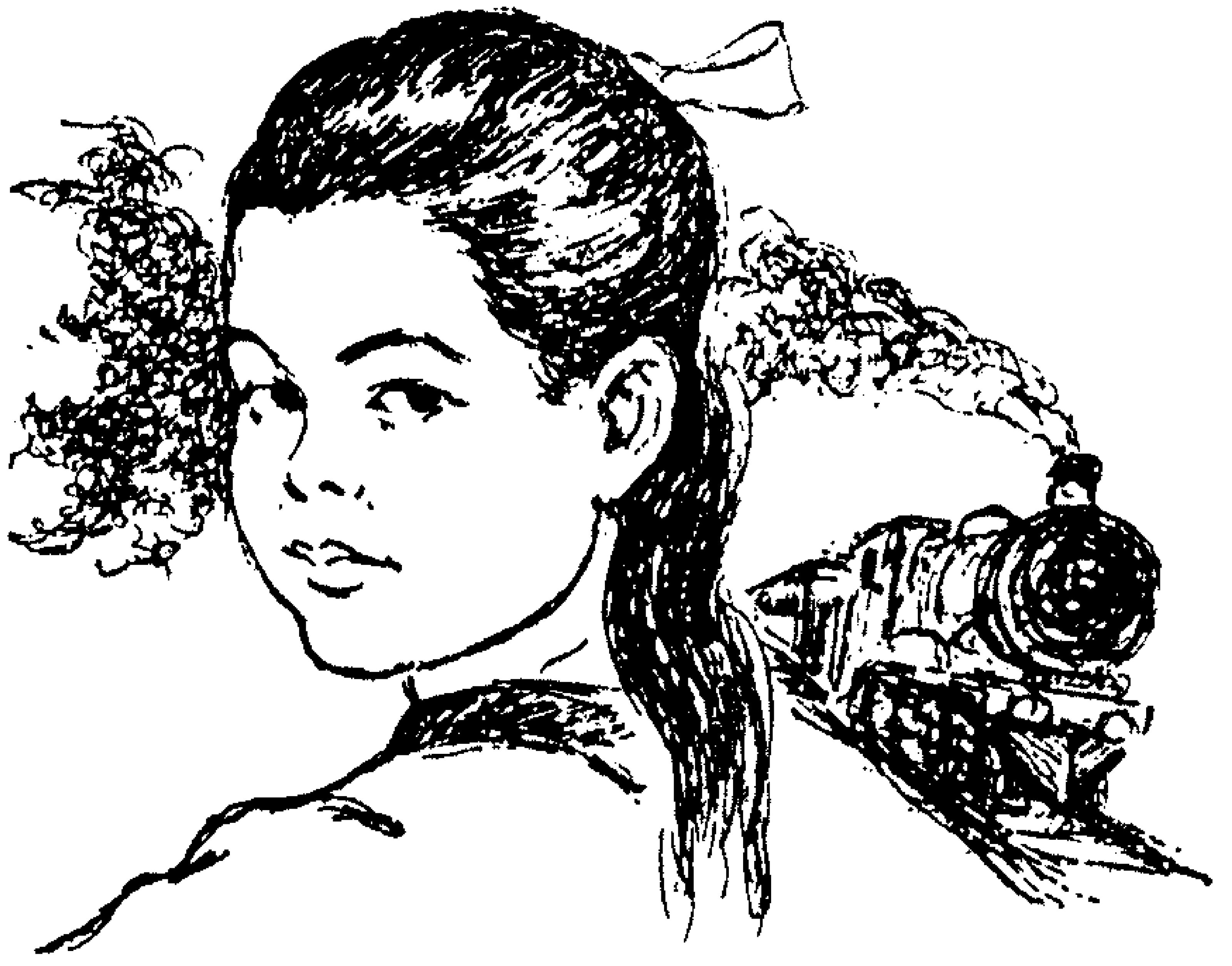

البحث عن أمي

لن أستطيع أبداً أن أنسى مها..

كنا أطفالاً صغاراً، وكانت مها فى مثل عمرى.. تقيم مع عمتها وزوج عمتها، فى شارعنا.. شارع يشبك بالعباسية.. سمراء.. واسعة العينين.. صغيرة الأنف... مكتنزة الشفتين.. تترك شعرها الأسود الغزير ينسدل فوق كتفيها، ويتدلى فوق جبينها فى إهمال.. كانت جميلة.. جميلة جداً.. جمالها أكبر من سنها.. ولكنه كان جمالاً فيه نوع من القوة والشراسة والعناد.. كجمال القطة البرية.. حيوان جميل لم يستأنس..

وكنا نسمع من أمهاتنا قصصاً كثيرة عن مها.. وكنا نعلم أن أمها هربت عقب ولادتها مع ضابط بوليس، وذهبت لتقيم معه فى الإسكندرية.. وأن أباها كان رجلاً عجوزاً.. يكبر أمها بأكثر من عشرين عاماً.. مات عقب فرار زوجته متأثراً بالصدمة.. وعاشت مها فى رعاية عمتها وزوج عمتها اللذين لم ينجبا أطفالاً..

ولم تكن قصة أم مها تذكر إلا همساً.. كانت قصة تمثل أكبر فضيحة وقعت فى حى العباسية فى ذلك الجيل.. وكانت عائلة مها لا تذكر هذه القصة أبداً، بل كان محرماً على أفرادها أن يتفوهوا باسم الأم الخاطئة.. اعتبروها ماتت.. وحاولوا إقناع مها بأن أمها ماتت.. ولكن مها عرفت قصة أمها كما عرفناها.. لا أدرى كيف.. وسمعتها مرة تقول لعمتها فى حدة :

– أريد أن أذهب إلى أمى..

وقالت عمتها والهلع يطل من عينيها :

– أنا أمك.. ليس لك أم إلا أنا..

وقالت مها وعيناها المتوحشتان تبرقان فى تحد :

– لا.. أنت لست سوى عمتى.. إنى أعلم أن أمى فى الإسكندرية.. وسأذهب إليها يوماً.. سترين.. سأذهب إليها يوماً..

ثم تركت عمتها المذهولة، وجذبتنى، من يدى، وخرجنا نلعب فى الشارع..

وكانت لعبة مها المفضلة هى لعبة «القطار».. كانت تصفنا الواحد وراء الآخر.. أولاداً، وبنات.. وكل منا يمسك بذيل ثوب الآخر.. ثم تتقدمنا.. وتجرى ونحن نقلد صوت القطار..

وكانت تبدأ اللعبة فى هدوء.. ثم تزيد سرعة الجرى.. وتسرع أكثر.. وأكثر.. وتصرخ فينا وهى فى حالة هستيرية :

– ارفعوا أصواتكم.. توت.. توت.. اجروا بسرعة.. لقد قربنا على الإسكندرية..

ثم كانت تصرخ فى فرح وأنفاسها تلهث :

– سيدى جابر.. إسكندرية.. إسكندرية..

وكانت تتجه بالقطار فى كل مرة إلى الإسكندرية.. لم تفكر مرة فى أن تقودنا إلى بورسعيد.. أو إلى سوهاج.. دائماً إلى الإسكندرية.. حيث ذهبت أمها..

واللعبة الثانية التى كانت مها تفضلها هى «لعبة العرائس».. وكانت هى دائماً العروسة.. وتختار واحداً من الصبية ليمثل دور العريس.. ثم يشترك باقى الأولاد والبنات فى تمثيل زفة العروسة..

وفى إحدى المرات، لعبنا هذه اللعبة فى بيت مها... ولم تكن عمتها موجودة.. ودخلت مها إلى غرفة عمتها، وأخذت ثوبها.. ثوباً أبيض.. ولفته حول جسدها لتبدو كالعروسة.. وأخذت شالاً من الحرير وضعته حول رأسها.. ثم كسرت الدرج الذى تحتفظ فيه عمتها بمصاغها، وتحلت بكل ما وجدته من مصاغ.. أساور ذهبية.. ومشابك.. وخواتم.. وعقود.. و «بندنتيف » من الماس.. ثم اختارتنى

أنا لأمثل دور العـريس.. ووضعت ذراعى فى ذراعها، وبقـية البنات والأولاد يغنون ويرقصـون من حولنا.. ثم قـادتنى إلى غرفتـها فى البيت.. ودخلت أنا وهى، وأغلقـت وراءنا الباب.. كما تفـعل العروس والعريس..

وكنت أنا فى الثـامنة مـن عمـرى، ولا أدرى شـيـئـاً مما يفـعله العروس والعريس فى حجرة النوم.. فوقفت أنظر إلى مها فى غباء.. ورأيتها ترقد على السرير، وهى ملتفة بالثوب الأبيض، وقطع المصاغ الكثيرة منتشرة فوق جسـدها.. ثم قامت فجأة، وقبلتنى فوق خدى.. وفتحت الباب..

وجاءت عمتها، وطردتنا من البيت وخرجنا ونحن نسمع صراخها فى وجه مها..

ولا أدرى من الذى أبلغ أمى بـهذه الحـادثة.. ولـكنهـا علمت أنى دخلت مع مها حجرة النوم، وأغلقـنا وراءنا الباب.. فضربتنى ضرباً قاسيـاً.. وحرمت علىّ أن ألعب مع مها.. ثم ذهبت إلـى العمة وشكت إليهـا من أن مهـا تفسد أخـلاقى، وتطلعنى على أشـياء لا يصح أن يعلمها الأطفال..

وأصبحت سمعة مها فى الحى سمعة سيئة.. وكانت أمهاتنا يقلن عنهـا دائمـاً أنها سـتـشب كـأمهـا، ويرددن المثل القـائل : « اكـفى السلطانية على فمها، تطلع البنت لأمها »..

واحـتـارت العـمة وزوجـها، فى تربيـة مـها.. وفى كـبت عنفهـا وشذوذها.. وكـان الزوج يحاول دائمـاً أن يخيـفها بعـذاب النار فى الآخرة.. كان يحدثها كثيراً عن الجحيم الذى أعده الله للبنات اللاتى لا يطعن أهلهن، واللاتى ينحـرفن فى طريق الرذيلة.. ولكن مـها كـانت تحفظ هـذه القصص.. قـصص الجحيم.. ولا تـتأثر بهـا.. وفى مرة كنت معهـا، وكان زوج عمتـها يروى لنا قصة من قـصص الجحيم،

وفجأة قالت له مها فى وقاحة :

– لقد سمعت هذه القصة من قبل.. حدثتنى عن أمى..

وغضب زوج العمة لوقاحة مها.. وقام وضربها.. وظل يضربها بقسوة وجنون.. ومها لا تتحرك ولا تبكى.. إنما تنظر إليه بعينيها الواسعتين المتوحشتين، فى تحد ساخر.. حتى كلت يد الرجل فانصرف عنها وهو يلعنها..

ولم يعد أهل مها بعد ذلك يخفون عنها قصة أمها.. بدأوا يحدثونها عنها ويسبونها ويلعنونها أمامها، ويرددون أنها جرت العار على العائلة، وأن عذابها عند الله عذاب كبير..

ومها تستمع إلى كل ذلك، ثم تقول فى هدوء :

– أريد أن أرى أمى..

وعندما بلغت مها الرابعة عشرة فرت من البيت !

خرجت دون أن تحمل معها ثياباً، أو نقوداً.. وسارت إلى محطة السكة الحديد.. ووضعت نفسها فى القطار المتجه إلى الإسكندرية.. ولكن مفتش القطار ضبطها، وأنزلها فى محطة طنطا، وأعادها البوليس إلى القاهرة.. إلى بيت عمتها..

واستقبلتها عمتها وهى لا تدرى كيف تدارى فضيحتها، وبعد صراخ كثير، قالت لها :

– لعلك الآن تعلمت ألا تهربى من البيت !

وقالت مها فى هدوء :

– سأهرب مرة ثانية.. سترين أنى سأهرب مرة ثانية.. سأذهب إلى أمى !!

صرخت العمة :

– أمك ماتت.. لا يعرف أحد أين هى.. ماتت.. ماتت..

وقالت مها فى قسوة :

- لم تمت.. وسأذهب إليها !

ووضعوا مها تحت رقابة شديدة.. وبدأت عمتها تعاملها كخادمة.. ولكن مها لم تسمح لأحد بأن يعاملها كخادمة.. فكانت تتكاسل فى تلبية أوامر عمتها وزوج عمتها... فإذا طلبت منها العمة أن تأتى لها بشىء - طبق صينى، مثلاً - تعمدت أن تحمله ثم تسقطه من بين يديها على الأرض، فينكسر.. وإذا طلبت منها أن تصنع فنجالاً من القهوة صنعته رديئاً.. ماء ساخناً ملوناً بلون البن..

ويئست منها عمتها وتركتها فى حالها دون أن تكلفها بشىء..

وفى سن السادسة عشرة نفذت مها وعدها، وهربت من البيت مرة ثانية .

وفى هذه المرة استطاعت أن تصل إلى الإسكندرية.. ولكنها لم تكن تعرف عنوان أمها، ولا اسم الرجل الذى فرت معه. وتاهت مها فى الزحام يوماً كاملاً.. ثم اضطرت أن تعود.. إلى القاهرة.. إلى بيت عمتها..

ولكنها عادت إنسانة أخرى..

يائسة.. حزينة.. تهرب من صديقاتها.. وتخلو إلى نفسها طويلاً.. كل ما بقى فيها من شذوذ، أنها أصبحت تجلس الساعات الطوال فى نافذتها التى تطل على فناء كلية البوليس فى العباسية.. تنظر إلى ضباط وطلبة الكلية، كأنها تبحث بينهم عن الضابط الذى هربت معه أمها.

وتعود طلبة كلية البوليس أن يشاغلوها فى أوقات فراغهم.. وأن يمروا تحت نافذتها كلما خرجوا فى إجازتهم. ولكن مها لم تقبل غزل واحد منهم.. ولم تصده.. كانت تطل من نافذتها تتلقى غزلهم صامتة.. لا تبتسم.. ولا تنسحب..

وساءت سمعة مها فى الحى أكثر..

ومنعت الأمهات كلهن بناتهن من مصادقة مـها أو من زيارتها.. بل إن الأمهات أنفسهن امتنعن عن زيارة عمتها..

ثم فجأة حدث شيء غريب، أثار الحي.. فإن سمعة مها أصبحت على كل لسان، بحيث اعتقدنا أن أحداً لا يمكن أن يتزوجها، وأنها ستعيش عانساً طول عمرها..

ولكن هذا الرجل تقدم لخطبتها.. وهو رجل غني.. تاجر كبير من تجار النحاسين، ويسكن معنا في العباسية.. كل عيبه أنه كبير.. في الخامسة والأربعين من عمره.. أكبر من مها بخمسة وعشرين عاماً.. وسبق له أن تزوج مرة وماتت زوجته.. وتزوج مرة ثانية، وماتت زوجته أيضاً.. وهذه هي المرة الثالثة التي يتقدم فيها للزواج..

ورحب أهل مها بالرجل.. وجدوا فيه حلقة النجاة.. ولم يكن غناه هو الذي أطمعهم فيه، بقدر رغبتهم في التخلص من مها.. ومن شذوذ مها.. وتحميل مسئوليتها لأي رجل يتقدم لحمل هذه المسئولية..

ولكنهم خشوا أن ترفض مها.. إنها عنيدة.. وهي مجنونة.. ولن يستطيعوا أن يرغموها على شيء.. والرجل عجوز.. أكبر منها بخمسة وعشرين عاماً.. وسترفض حتماً أن تتزوجه..

وما كادت مها تسمع النبأ، حتى ضحكت.. ضحكت أولاً ضحكاً طبيعياً.. ثم بدأت تضحك ضحكاً هستيرياً، كأنها لن تكف أبداً عن الضحك.. ثم قالت من خلال نوبة الضحك التي تستبد بها :

– موافقة.. سأتزوجه !

قبلت زواجه قبل أن تراه، وهي تعلم أنه عجوز..

وفي فترة الخطوبة أغرقها الرجل بهداياه.. هدايا ثمينة غالية، لم ترها بنت من بنات الحي من قبل.. مجوهرات.. وحلى من الذهب.. وأمتار لا حصر لها من الحرير..

وبدأت بنات الحى وأمهاتهن يتوددن إلى مها، ويغرن منها.. وهى فرحة بتوددهن وغيرتهن.. إنها تتلذذ بنفاقهن.. وتعاملهن فى تعال وأنفة.. ثم توزع عليهن بعضاً من الهدايا التى يفيض بها عليها خطيبها.. حتى أنها أعطت أختى دبوساً من الذهب، فيه فص من العقيق.. وكأنها فى كل ذلك تتعمد إذلالهن، انتقاماً للكلام الكثير الذى قلنه عنها وعن أمها..

وكان فرح مها أكبر الأفراح التى شهدها حى العباسية..

فرح كبير غنى فيه عبد الوهاب.. ورقصت فيه أكثر من عشر راقصات.. وعوالم.. ومونولجست.. وأكثر من ألف مدعو..

ثم..

أتدرون ماذا حدث بعد ذلك..

لم يمر عام على الزواج، حتى هربت مها من زوجها..

أتدرون مع من هربت ؟

هربت مع ضابط بوليس !!

...وأنا!

إن النقد الذى يوجه دائماً إلى اللوحات التى أرسمها ، هو أن كل النساء اللاتى أرسمهن ، هن امرأة واحدة.. وجه واحد يتكرر فى كل لوحة..

وهذا صحيح..

إن هناك وجهاً واحداً يسيطر على فرشاتى ، ولا أستطيع أن أتخلص منه..

وجه نعيمة..

ونعيمة هى حبى الأول..

ولا أدرى متى أحببتها.. ربما أحببتها منذ ولدت.. ولكنى لم أتنبه إلى هذا الحب ، إلا عندما بلغت السادسة عشرة من عمرى..

وكنا أيامها نسكن فى حارة العنبة ، بالسيدة زينب.. أمى وأخى وأنا.. وكانت نعيمة تسكن فى البيت الملاصق لبيتنا.. كانت أكبر منى.. كانت فى العشرين من عمرها.. وكان لها أربعة إخوة كبار يسيطرون على الحارة كلها.. ويفترشون حصيرة أمام بيتهم ، ويدخنون الحشيش.. ولم أكن أدرى من أين يتكسبون.. كنت أعرف أن أحدهم يشتغل سائق لورى.. والثانى يعمل فى مصنع نسيج.. والثالث والرابع يبحثان عن عمل.. ولكنى كنت أراهم طول النهار جالسين على الحصيرة أمام باب البيت ، يدخنون الحشيش.. وينشرون الرعب فى الحارة.. وكنت أخافهم.. وكنت أحب أختهم نعيمة..

وكنت أعود من المدرسة ملهوفاً ، وأقف أمام شباك بيتنا.. وتخرج نعيمة وتقف فى شباك بيتها.. وتبتسم لى.. وأبتسم لها.. وأمسح بيدى على شعرى ، إشارة إلى أنى أحييها.. سلام شعر.. وتمسح بيدها على شعرها.. ونقف هكذا ساعات طوالاً.. لا نمل الوقوف.. ولا

تمل عـيناى عينيـها.. ولا نمل الابـتسـام.. وكنت أمسك بورقـة وقلم وأرسم لها صورتهـا.. رسماً ساذجاً ، فقد كنت لا أزال مـبتدئاً.. ثم أطوى الورقة على شكل سهم ، وأقذف بها إليـها.. وتلتقطها ، وتفرح بها.. وتتسع ابتسامتها..

كم صورة رسمتها لها ؟ عشرات !

وكنت لا أتحـرك من أمـام الشـباك.. وأمى تـلاحظنى وتسكت.. وأخى الكبير ، يرانى فيهزأ بى.. ويحاول أن ينهرنى ، ويشدنى بعيداً عن الشـباك.. ولكن ، مـحال.. بـل إنه كان يحـدث أن يزورنى بعض أصدقائى فى البيت ، فأستقـبلهم وأنا بجانب الشباك ، وأجلس معهم ، وأترك ذراعى مطلقة على حـافة الشبـاك ، حتى تعرف نعيـمة ، أنى لست مـشغولاً عنهـا.. فإذا خـرج أصدقـائى ، عدت أطل عليـها من الشباك ، فأراها لا تزال فى نافذتها.. تبتسم لى..

ولم يكن هذا هو كل شىء..

كانت نعيمـة تخرج أحياناً من بيتها ساعـة الغروب.. وتشير إلىّ لألحق بها.. فأخرج من البيت مندفـعاً كأنى ألقى بنفسى من النافذة.. ولا أكاد أصل إلى الطريق ، حتى أدعى الهدوء ، وأسـير أمام إخوتها الأربعة الجـالسين أمام الباب ، وقلـبى يدق حتى أخاف أن يسمـعوا دقاته.. ثم أتبع نعـيمة على مـهل ، حتى تصل إلى دكان عم عـبد الله البقـال ، الذى يقع على ناصيـة الشارع.. ونتـبادل كلمتـين.. وقلبى يدق.. وأطرافـى ترتعش.. وصـهـد النـار.. نار الحب.. ينطـلق فى وجهى.. ثم تشـترى قرطاس لب.. وأشترى أنا الآخـر قرطاس لب.. ونعود إلى بيتينا.. ونقف فى نافذتينا.. ونقزقز اللب.. وتكون الحارة قد هدأت.. وسـادها الصمت.. وانصرف إخوتهـا الأربعة إلى ليلهم.. ويرن صوت قزقزة اللب فى هذا السكون ، كأنه صوت قبلاتنا..

وحدث أكثر من هذا..

لقد خرجت مرة وراء نـعيمة حتى التقينـا فى دكان عم عبد الله ، وفوجئت بها تقول لى :

- تحب تيجى معايا السيما..

وارتبكت من المفاجأة ، وقلت فى تلعثم :

- لوحدك ؟

قالت :

- أيوه.. ما تخافش.. تعال ومالكش دعوة!

قلت :

- إمتى ؟

قالت :

- بكرة الساعة ستة..

واتفقنا على أن نلتقى أمام السينما.. سينما السيدة.. ثم عدت إلى البيت ، وقبلت رأس أمى حتى استطعت أن آخذ منها نصف ريال..

وانتظرت نعيمة فى اليوم التالى أمام السينما.. وجاءت.. وحدها.. ودخلنا.. وأطفـئت الأنوار.. وقلبى يدق.. وأطرافى ترتعش.. وصـهد النار.. نار الحـب.. ينطلق من وجـهـى.. ثم مـا لبـثت أن شـعـرت بالضيق.. إنى لا أستطيع أن أتابع الفـيلم.. ولا أستطيع أن أرى وجه نعيـمة وابتـسامتـها فى الظلام.. إنى أفـضل النافذة على السـينما.. النافذة أحسن ألف مرة..

لا أخفى عليك.. لقد فكرت أن أستغل ظلام السينما.. فكرت أن أمد يدى وأمسك بيـدها.. أو أقرب ساقى من ساقهـا.. ولكن عيب.. يجب أن يبقى حبى نظيفاً.. ونعيمة أرق من أن يدنسها الظلام..

وخرجت من السينما وأنا فى شوق لأن أقف فى نافذتى..

ثم..

حدث بعد ذلك أن سافـرت إلى بلدة خالى ، ومكثت هناك شهراً..

محروماً من نعيمة..

وعدت.. وقبل أن أصل إلى النافذة ، قالت لى أمى :

– مادريتش اللى حصل لصاحبتك ؟

قلت كأنى أحمى نعيمة :

– صاحبتى مين ؟

قالت :

– البت نعيمة..

قلت ، فى دهشة لجرأة أمى :

– حصل لها إيه ؟

قالت :

– روح اسأل أخوك..

وألقيت نظرة خاطفة من خلال النافذة ، فلم أر نعيمة فى نافذتها ، فاندفعت إلى حجرة أخى ، أسأل : ماذا جرى لنعيمة ؟

وقال أخى كأنه يسخر منى ، إن نعيمة حامل ، وأنها أبلغت أمها بمصيبتها ، ولما سألتها أمها عن الرجل الذى اعتدى عليها.. اتهمت نعيمة أربعة شبان من شبان الحارة.

وصرخت فى أخى :

– اتهمت أربعة ؟!

وقال أخى وهو لا يزال يسخر منى :

– أيوه يا سيدى.. أربعة مرة واحدة ؟

وانتفض قلبى.. إنى لست وحدى.. إن هناك ثلاثة غيرى يشاركوننى فى حب نعيمة.. يا للهول !

وتمالكت أعصابى ، وقلت لأخى :

– مين هم الأربعة دول ؟

وقال أخى وهو يهز كتفيه :

- عبد العال.. وحسنين.. ومحمود.. والواد دقة صبى عم عبدالله البقال..

واتسعت عيناى حتى أحسست بهما يكادان يخرجان من مكانهما.. مستحيل.. لا يمكن.. لا يمكن أبداً.. لقد احتملت أن أكون واحداً من أربعة.. أما أن لا أكون واحداً حتى من أربعة.. فهذا ما لا أحتمله.. وأحسست بموجة طاغية من الغيظ تنتابنى ، وتكاد تخنقنى.. الغيظ من نعيمة.. لماذا لم تتهمنى.. لماذا.. لماذا.. لماذا لم تشفق علىّ وتتهمنى.. وكدت أصرخ فى وجه أخى : وأنا.. لماذا لم تتهمنى أنا الآخر..

وقسوت على نفسى حتى لا أبدى غيظى أمام أخى ، وسألته وأنا أفتعل الهدوء :

وإخوة نعيمة عملوا إيه ؟

قال :

- لسه ما يعرفوش.. وأمك وأمها قاعدين يتحايلوا عليها إنها تختار واحد بس ، علشان يقدروا يلزقوها له..

واطمأننت عندما عرفت أن إخوة نعيمة لم يعرفوا بعد.. وقلت لأخى كأنى أمثل دوراً خطيراً :

- اسمع يا أخويا.. أنا اللى عملت كده فى نعيمة..

ونظر إلىّ أخى فى احتقار ، وقال :

- والنبى تتلهى..

ثم ضحك ضحكة كبيرة..

وصرخت فيه :

- أنا باتكلم جد.. أنا السبب.. كنت باروح لها البيت بعد ما تناموا.. و.. وهى مارضتش تقول علىّ لأنها بتحبنى..

ولكن أخى لا يزال يضحك.. ضحكات كبيرة..

وعدت أصرخ :

- أنا حاروح أقول لأمي..

وما كادت أمي تسمع كلامي ، حتى نهرتني قائلة :

- بس يا واد بلاش كلام فارغ.. إوعى أسمع الكلام ده على لسانك تاني.. دي نعيمة ما يكفهاش عشرة مفاعيص زيك !

لا يريد أحد أن يصدقني..

وأنا لا أزال ألح ليصدقوني.. ولم يكن إلحاحي لأني أريد إنقاذ نعيمة.. لم يخطر هذا الخاطر على بالي.. إنما فقط كنت أريد أن أرتفع بنفسي.. أرتفع إلى مستوى الاتهام.. وأسترد كرامتي المجروحة.. كنت أريد - على الأقل - أن أكون واحداً من الأربعة..

وفي هذا اليوم ، وقفت في النافذة.. وتأخرت نعيمة عن الظهور في نافذتها.. ولكنها ظهرت أخيراً.. وابتسمت.. ابتسامة كبيرة.. وبادلتني سلام الشعر.. كأن شيئاً لم يحدث.

وأشرت لها على بطني ، مستفهماً عما في بطنها..

فهزت كتفيها بلا مبالاة..

فأشرت عليها على نفسي ، أسألها : هل أنا السبب.. أو هل تريد أن أقول إني أنا السبب.. وهل تريد أن أتزوجها ؟!

وضحكت نعيمة.. ضحكة عالية.. وابتعدت عن النافذة !

العبقرى

لم يكن فى سميحة أى شىء يثير اهتمامى.. والواقع أنه لم يكن فى أى واحدة من صديقات أخواتى ما يثير اهتمامى ، ولا فى أخواتى أنفسهن.. كنت أنظر إليهن من فوق أنفى.. نظرة فيها كثير من التعالى والاستخفاف.. وكانت الدنيا التى أعيش فيها دنيا بعيدة عنهن.. بعيدة جداً.. دنيا الأدب العالمى.. دنيا شكسبير ، وأوسكار وايلد ، وبرنارد شو ، ودستوفسكى ، وموباسان.. و..

ولكن سميحة كانت تنظر إلىّ من بعيد. تنظر إلى نظرات مسكينة ، ذليلة.. كأنها تتوسل إلى.. كأنها تريد شيئاً منى.. وكنت ألمح نظراتها، ولا أهتم بها .. ماذا تريد منى .. ماذا يمكن أن تريد منى مثل هذه الفتاة التافهة ، وليس عندى ما أقدمه إلا عبقريتى ، وعبقريات الآخرين..

ثم حدث أن دعينا إلى حفلة راقصة أقيمت فى بيت الجيران ، وجمعت شباب الحى وبناته. وأذكر أنى ليلتها شربت بعض الكؤوس.. كأسين من الويسكى.. وبدأت أرقص مع البنات.. كنت أرقص معهن دون أن أفقد إحساسى بقيمتى الأدبية.. بعبقريتى. ثم طلبت سميحة إلى الرقص.. طلبتها كأنى أعطف عليها.. وقفزت واقفة بين ذراعى ، والفرحة تومض فى عينيها الذليلتين ، وأردت أن أجاملها ، فضغطتها إلى صدرى ، وتركت خدى يسقط على خدها.. واستسلمت نشوانة كأنها نامت فوق خدى.. ثم قررت أن أجاملها أكثر ، بعد أن أثارت فىّ مزيداً من العطف والشفقة عليها.. فقبلتها.. قبلة سريعة خلف أذنها.. وارتعشت بين ذراعى.. وازدادت التصاقاً بى.. ثم انتهت الرقصة ، فتركتها وعدت إلى كأسى وأصدقائى.. تركتها دون أن تترك رقصتى معها أثراً فى قلبى ، ولا فى أعصابى..

ولكنى تنبهت بعد قليل إلى أنها اختفت من بين البنات.. وبحثت عنها بعينى ، إلى أن رأيتها جالسة فى الشرفة وحولها بعض صديقاتها.. وتبكى.. تبكى فى حرقة.. ولكن ليس فى بكائها رنة حزن ولا آهة ألم.. كأنها تبكى من النشوة..

– مالك ؟

– ماليش !

ولكنى كنت أعرف لماذا تبكى.. إنها تبكى فرحتها لأنى تنازلت ورقصت معها.. تبكى انفعالها بلمساتى.. إن أعصابها لم تحتمل نشوتها بقبلتى..

وطلبتها للرقص مرة ثانية..

وكانت نشوة الخمر قد استبدت بى ، فنسيت نفسى وأخذت أحدثها عن إعجابى بها وحبى لها.. وأنها أجمل بنت رأتها عينى.. و.. وذابت بين ذراعى.. واعترفت لى بأنها عاشت طول عمرها تنتظر هذه اللحظة.. وأنها تحبنى.. تحبنى جداً.. وأنها كادت تيأس لولا هذه الليلة..

وقلت لها ، لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس.. واعترفت لها أن هذه الكلمة ليست من ابتكارى ، ولكن قالها قبلى الزعيم مصطفى كامل.. وقد اتضح أنها لا تعرف الزعيم مصطفى كامل.. إن مصطفى كامل الوحيد الذى تعرفه ، هو شاب يسكن فى آخر شارعنا..

ورغم ذلك فقد حددت لها موعد لقاء فى السينما ، فى اليوم التالى... كانت الخمر قد جعلتنى رقيقاً شفافاً ، فازدادت شفقتى عليها إلى حد أن دعوتها إلى السينما..

وأفقت من الخمر فى الصباح التالى.. ولكنى لم أستطع أن أخلف موعدى معها.. لم تكن أخلاقى تسمح بأن أخلف معها موعدى.. فذهبت إلى السينما ، ودخلت قبلها وتركت لها التذكرة عند الباب ،

فلم أكن أحب أن يرانى أحد فى صحبة فتاة لا يميزها شىء ، سوى أنها فتاة جميلة..

وجاءت وجلست بجانبى.. فى الظلام.. وأمسكت يدها.. وما كدت أمسك بها حتى ذابت.. ذابت بكل ما فى الكلمة من معنى.. وألقت رأسها على كتفى.. وبحثت بشفتيها عن أى شىء عار من جسدى لتقبله.. أصابعى ، وعنقى ، ووجهى.. واضطررت أن أبادلها القبلات.. و..

ولا أطيل عليك.. لقد أصبحت ألقاها كثيراً.. ليس كثيراً جداً.. ليس أكثر من مرة فى الأسبوع.. ودائماً فى الظلام.. ظلام السينما أو ظلام حجرتى فى البيت بعد أن يخرج أخواتى.. ودائماً تذوب.. إنها لا تستطيع أن تقدم لى شيئاً إلا ذوبانها.. ولا تريد أن تأخذ منى شيئاً إلا أن أذوب معها.. وقد حاولت أن أجد موضوعاً نتحدث فيه.. حاولت كثيراً.. ولكن مستحيل.. ليس فى رأسها شىء يمكن أن ينطلق فى حديث ، أو يخلق مناقشة.. تصور أنها لا تعرف شيئاً عن إسكندر ديماس.. لا الأب ولا الابن.. ولا تعرف أن مؤلف قصة روميو وجوليت هو شكسبير العظيم.. ولم تسمع من قبل عن عملاق الأدب سومرست موم.. و.. إنها تافهة.. وكل ما تستطيع أن تتحدث فيه هو أغانى عبد الحليم حافظ ، وآخر نكات فرقة ساعة لقلبك.. تفاهة بل منتهى التفاهة..

ثم..

ثم التقيت بتحية فى فناء الكلية.. ولعلك فهمت أنها كلية الآداب!

ما أبعد الفرقق بين تحية وسميحة..

إنى أقضى الساعات الطويلة مع تحية فى حديث لا ينتهى.. لا أشبع منه.. إننا نتناجى بأشعار شيللى وبيرون.. ونتناقش حول أدب هـ.د. لورنس.. ونغترف من كنوز الأدب الرومانسى ، والأدب

السيمبوليك والسيريالى.. ونعد أنفسنا لليوم الذى نستطيع أن نقضى فيه على أدباء هذه الأيام من أمثال إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى ، وغيرهما من صعاليك الأدب..

و..

وتخرجت.. نلت الليسانس.. وتزوجت تحية.. ولم أكن أستطيع أن أحجم عن الزواج من أجل سميحة.. إنها فتاة تافهة.. ومهما تماديت فى الشقة عليها ، فلا يمكن أن تصل شفقتى إلى حد أن أفكر فى الزواج بها ، أو أن أتردد فى الزواج من تحية..

لقد كان زواجى من تحية هو أول خطوة لتحقيق أحلامى.. أحلام العبقرى.. أن تكون لى زوجة تساهم معى فى حياتى الأدبية.. وأن نقضى ليالينا فى ضوء مصباح أخضر نقرأ ، ونفكر ، ونكتب.. وأن نصحو لنناقش أفكارنا ، وأفكار زملائنا العباقرة.. وأن ننشر إنتاجنا الأدبى على الناس لننير عقولهم ، ونسمو بأرواحهم ، ونحررهم من صعاليك الأدب..

ولكنى كنت أحس بأن هناك شيئاً ينقصنى..

لم أكن أدرى ما هو هذا الشىء.. إن كل شىء حلمت به حققته لى تحية.. المكتبة الضخمة التى تضم أمهات الكتب الأدبية.. والمصباح الأخضر.. وأمسيات الفكر.. وصباح المناقشة.. و..

ولكن هذا الشىء لا يزال ينقصنى..

ومرت الأيام وإحساسى بالشىء الذى ينقصى يزداد ، ويقلقنى ، ويجعلنى كأنى شقى بحياتى الزوجية.. تعيس.. قرفان !.

وبعد ستة شهور اكتشفت هذا الشىء..

أتدرى ما هو ؟

إنه التفاهة..

نعم.. كل ما ينقصنى هو التفاهة.. حتى العباقرة يحتاجون أحياناً

إلى التفاهة ورحت أبحث عن سميحة..

أصبحت أكثر من زيارتى لأخواتى البنات لعلى ألقاها.. ولكن عبثاً.. إنها لم تعد تتردد عليهن.. وبدأت أطوف حول بيتها لعلى أراها خارجة أو داخلة.. ولكن عبثاً.. وحاولت أن أتصل بها فى التليفون.. ولكن عبثاً.. لقد أصبحت أكره كلمة عبثاً هذه !

وفجأة رأيتها..

رأيتها فى شارع سليمان باشا.. وجريت خلفها.. ثم استوقفتها.. وحاولت أن أستجمع أمامها شخصيتى ، وأن أنظر إليها من فوق أنفى كما تعودت أن أنظر إليها.. وأن أحادثها بلهجة المتعالى العبقرى كما تعودت أن أحادثها.. ولكن.. عبثاً..

لقد شعرت أنى أرتعش أمامها.. كلماتى ترتعش.. ونظراتى ترتعش.. وريقى يتدفق من فوق شفتى ، وأحاول أن أجففه بلسانى.. وقلت لها :

– تيجى نروح سينما..

قالت وفى عينيها نظرة خيل إلىّ أنها نظرة احتقار :

– لأ..

قلت وأنا لا أستطيع أن أنزع من عينى نظرات التوسل الذليل !

– لأ ليه ؟

قالت وهى تهز كتفيها :

– لأنك تافه..

وتركتنى..

تصور.. تصور أنها تقول عنى إنى تافه.. أنا.. أنا.. أنا.. أنا تافه !!

هل تريد الحقيقة..

إنى أشعر فعلاً بأنى تافه..

الجميلة

كانت تعرفنى، وكنت أعرفها.. من بعيد!

كـانت تعـرف أنى صـحفـى، أجمع أخـبـار المجتمع..

وكنت أعـرف أنهـا أجمـل السيـدات، وأنهـا أنضر زهرة من زهرات المجتمع.. كما كنا نسمى بنات الطبقة الراقية فى ذلك الحين..

وكـانت بنات الطـبـقـة الراقـيـة - حـتى عـام ١٩٥١ - يخـفن الصـحفـيين أمـثالى، ويخـتفـين عن أنظارهن، حـتى يتجنبن نشـر أخبارهن.. ولكن زيزى لم تكن تخافنى، ولم تكن تحاول أن تختفى.. بالعكس.. كانت عندما ترانى على الشاطىء، أو فى أحد المحال العامة، تنظر فى وجهى بكل عينيها، وتبتسم، كأنها تستعد لالتقاط صورة.. ثم كانت تتعمد أن تفـتعل فضيحة صغيرة تثيـر اهتمامى، كأن تقبل الرجل الذى تراقصـه.. أو تتظاهر بأنها سكرانة.. أو تجعلنى ألمحـها وهى تختفى مع شاب خلف شجرة..

وكنت أدهش لتصرفاتها هذه.. فهى ليست فى حاجة إلى فضيحة لتثيـر اهتمامى بها.. إن كل النـاس يهتمون بها بمجـرد ظهورها فى مجتـمع من المجتمعـات.. فهى من عائلة كبـيرة تصاهر عائلة مـحمد على.. وهى جميلة.. أجـمل سيدة فى مصر.. وجمـالها صاعق، يخلع العينين ويهـز الأعصاب.. وهى غنيـة.. وهى أنيقة.. ثيابهـا كلها من باريس.. وكانت عندما تدخل مكاناً فيه فاروق، تنصرف الأنظار كلها عن فـاروق.. وتتجـه إليهـا، وتتـعالى الهـمسـات.. زيزى.. زيزى.. زيزى..

وأصبحت أغتاظ من تصرفات زيزى التى تبديها أمامى..

وأغتاظ أكـثر لأنها تتحدانى بـهذه التصرفات.. كـأنها تحاول أن تقنعنى بأنه لا يهمها ما يكتب عنها فى الصحف..

ثم تعمدت أن أهمل نشر أخبارها.. حتى أحرمها من متعة تحدى الصحفيين.. وتعمدت ألا ألتفت إليها كلما التقيت بها فى مكان، لأشعرها بأنها ليست شخصية هامة تستحق الالتفات..

ورغم ذلك لم أفقد الاهتمام بها أبداً..

كنت أبحث عنها فى كل مكان، وأتسلل بعينى إليها لأرقب كل حركة من حركاتها، وكل تصرف من تصرفاتها.. وكنت أبحث دائماً عن مفتاح شخصيتها.. هذه الشخصية الشاذة القلقة، التى لا تهدأ، ولا تكتفى.. لا تكتفى بجمالها.. ولا بثرائها.. ولا بالحب الذى يحيط بها..

وبدأت أعرف عنها كل شىء.. تقريباً !

كانت وهى بنت، أجمل البنات.. تعيش فى الضاحية الهادئة، بين أبيها الثرى، وأمها الأجنبية.. لم يكن فى الضاحية الهادئة ما يحرك هدوءها وركودها سوى جمالها.. إنه جمال تضج به مرآتها، وتضج به عيون الشبان، وتضج به الشوارع التى تمر بها..

وعاشت فى ضجة جمالها..

لم تكن تستطيع أن تحتمل هدوء الضاحية، ولا هدوء أهلها، ولا هدوء قلبها..

وعندما كانت فى الخامسة عشرة دخل حياتها أول رجل.. وكان زوج خالتها.. رجل يكبرها بأعوام كثيرة.. ولكنها رأت انعكاس جمالها.. فى عينيه، وفى كلماته، وفى تهافته.. فأعطته ما أراد، لا لمتعة جسدية أرادتها، ولكن فقط لتمارس سطوة جمالها..

ثم عرفت شاباً.. لم تحبه، ولكنها رأت فيه صدى لضجة جمالها.. واندفعت وراء هذه الضجة.. تحاول أن تسمعها لكل الناس.. فكانت تقفز من نافذة القصر لتلقى حبيبها، ولم يكن يهمها أن تلقاه، بقدر ما كان يهمها أن يعرف الناس أنها قفزت من النافذة..

ولم تحتمل الضاحية مزيداً من الضجة، ولا أهلها.. فزوجوها للشاب الذى اختارته حتى لا تجد سبباً لأن تقفز من النافذة..

وتزوجت وهى فى التاسعة عشرة من عمرها..

ومرت شهور على الزواج، وبدأ الهدوء يزحف على حياتها.. وهى لا تطيق الهدوء.. إنها تريد دائماً أن تحتظ بالضجة التى يثيرها جمالها.. وتريد دائماً مزيداً من الضجة.. وبدأت تخرج إلى المجتمعات، لترى نفسها فى عيون الناس.. ترى انعكاس ضجة جمالها.. ثم لم يعد يكفيها أن ترى فى العيون نظرات الإعجاب.. إنها تريد أن ترى فيها الاشتهاء.. الحسرة.. الحب.. الأمل..

وزوجها بجانبها لا يتركها.. إنه يحبها.. ويغدق عليها كل ثروته الطائلة، وكل شبابه، وكل حبه.. وهو يعلم أنها جميلة.. وأن جمالها فى حاجة دائماً إلى حارس، يحميه، لا من الناس فحسب، بل منها أيضاً..

ولا حظت زيزى أن كثيرا من الرجال يحسبون حساب زوجها .. وأنهم يتعمدون أن يضعوا إعجابهم بها في قالب من الاحترام .. وأن نظراتهم إليها فيها كثير من اليأس .. اليأس من أن يصلوا إليها ..

وبدأت تشجع الرجال على التحرر من احترام زوجها.. واحترامها.. كانت إذا رقصت مع واحد منهم التصقت به، وسكبت أنفاسها فى أذنه.. وتسعد عندما تحس به يرتعش بين ذراعيها، وتحمر أذناه، ويشع الصهد من وجهه.. تحس ساعتها بقوة جمالها.. بسحرها... بسيطرتها..

وكانت إذا جلست إلى مائدة تمادت فى حديث جرىء.. لترى الأنفاس حولها مبهورة.. والعيون جاحظة.. وزوجها ضعيف.. لا يستطيع أن يصد عنها كل هؤلاء الرجال المتهالكين.

وانطلقت فى مغامرات صغيرة متعددة..

ولكن هذه المغامرات لم تعد تكفيها..

إنها لا تستطيع أن تعيش عمرها كله مرتبطة برجل واحد.. إنه يحبها.. ليس هناك امرأة نالت كل هذا الحب.. ولكن حبه لا يهمها.. إن جمالها أكبر من الحب.. وأكبر من أن يمتلكه رجل واحد..

وكان لزوجها صديق متزوج هو الآخر من سيدة جميلة.. نوع آخر من الجمال.. جمال هادئ وقور.. ولكنه جمال مشهور فى المجتمع.. حتى أن المجلات كانت تقارن دائماً بين جمال الزوجتين..

وبدأت تجرب قوة جمالها على صديق زوجها، وتتحدى جمال صديقتها..

وأصبح الأربعة يخرجون سوياً كل ليلة فى المنتديات العاملة.. الزوجان، والزوجتان.. وهى تطوف بعينيها حولها كأنها تعد العيون التى تنظر إليها، وتعد العيون التى تنظر إلى صديقتها.. ثم تتعمد أن تبرز كل فتنتها، وكل إغرائها، وتعرض كل فضائحها الصغيرة، حتى تجتذب أكبر عدد من العيون.. كل العيون..

وأخيراً انتصرت..

أحبها زوج صديقتها..

وتزوجته بعد أن طلقت من زوجها..

ولم يكن يهمها أن يحبها.. ولم يكن يهمها أن يتزوجها.. ولم يكن يهمها أيضاً أن تخرب بيت صديقتها، وأن تراها وهى تنزوى عن المجتمع باكية شقية.. كان كل ما يهمها، وكل ما تحس به، هو أنها انتصرت.. انتصر جمالها..

وكان الزوج الجديد أقسى عليها من الزوج الأول.. إنه يحبها أكثر.. ويغار عليها أكثر.. ويعرف نزواتها أكثر.. فأحاطها بسياج من مراقبته.. كان يعيش معها ككلب الحراسة.. وراءها فى كل مكان.. وينبح كلما اقترب منها رجل..

ولكن..

إنها تستطيع دائماً تجد ميداناً تعرض فيه جمالها..

وتتلقى فـيـه من عيـون الرجـال نظرات الاشتـهـاء.. والرغبـة.. والحسرة..

لم يتغير منها شيء..

كل ما فـعله زوجهـا أنه حد من مـغامـراتها الطائشـة، ولكنه لم يستطع أن يحـد من إحساسها بـجمالها، ولا من اندفاعـها فى إثارة الضجة حول هذا الجمال..

وكان هناك زوج آخر يعيش فى حـياتها.. زوج كل النساء.. زوج قاس لا يرحم.. ولا يشفق.. إنه الزمن..

الزمن لا يريد أن ينساها، ولا يريد أن يطلقها..

وهى تكبر.. وكلما كبـرت عاماً ازداد تهالكها وتشبثهـا بجمالها.. وعندما تعدت الثلاثين من عمرها، بدأت تبدو كالمجنونة.. إنها ترتدى ثياباً خليعة.. الخلاعة فيها تطغى على الذوق السليم.. وهى تغالى فى المساحيق التى تضعها على وجههـا.. وتعقص شعرها بطريقة مثيرة، كأنها تقيم من خصلات شعرها مسرحاً للأراجوز..

وهى تتلفت حولها فـتجد جيلاً جـديداً من البنات والنساء.. قد لا يكون بينهن من هى أكثـر منها جمالاً، ولكنهن جـميعاً أكثـر شباباً.. وأكـثر نضـارة.. وأكثـر حيـاة.. وعيـون الرجـال تلتفت إلى العـالم الجديد.. إلى الشباب.. والنضارة.. والحياة..

وجنت..

أقبلت تشـرب الخمر بشراهة لتنسى الزمن.. لتنسى أنهـا تكبر.. لتنسى أنهـا لا تملك السلاح الذى تستطيع أن تحـارب به غريمـاتها الجدد.. وازدادت تهتكاً.. أصبـحت حياتها كلها استعـراضاً لجسدها، وخلاعتها، وجنونها..

وزوجها لا يستطيع أن يوقفها.. إنها مجنونة.. مجنونة..

وخيل إلى المجنونة أنها لو استطاعت أن تتخلص من زوجها، فستعود إلى عرشها.. العرش الذى تصنعه من عيون الرجال.. ستصبح حرة.. وسيعود الرجال يطمعون فيها، ويجرون وراءها، ويشتهونها.. ويضعونها على عيونهم..

وطلقت..

أقامت ضجة كبرى، حتى طلقها الرجل الذى لا يزال يحبها.

وخرجت إلى المجتمع، وفى يدها شاب صغير من الجيل الجديد.. لتقنع الناس أنها لا تزال من الجيل الجديد.. إنها لم تعد من الماضى، بل تعيش فى الحاضر المتجدد..

لكن لا أمل..

إنها لا تستطيع أن تعود إلى عرشها..

والزمن يسحبها ليضعها فى مكانها.. مكانها بين رجال عجائز.. يشتهونها كما يشتهون أحلام شبابهن.. ولا يستطيعون أن يقدموا لها إلا نقوداً.. ثمناً لسهراتها معهم وثمناً لجسدها الذى تبذله بين أيديهم.

ولجأت إلى آخر سلاح تستطيع أن تقنع به نفسها أنها لا زالت أجمل بنات القاهرة..

المخدرات..

أدمنت المورفين..

وأخذها المورفين إلى آخر السلم.. إلى نوع من الرجال، لا يحترمون الجمال، ولا يقدرونه، ولكنهم يستعملونه.. يستعملون بقاياه..

ورأيتها فى الأسبوع الماضى..

صفراء.. هزيلة.. شعرها ساقط فوق جبينها.. وعيناها تائهتان.. وأصباغ كثيرة على وجهها.. كانت بجانب رجل عجوز، قمىء، يورد

النساء لكبار السائحين..

ورأتني.. وكما تعودت، حاولت أن تلفت نظرى، فانحنت على الرجل القمىء تقبله.. لعلى أكتب عنها فضيحة فى صفحة المجتمع..

وتجاهلتها.. وأنا أرثى لها..

وجاءت ورائى تصيح :

– يا أستاذ.. تسمح كلمة !

وقفت فى انتظارها، دون أن أتقدم إليها، وعندما وصلت إلى ووقفت تنظر إلى فى حدة، ثم كأن عينيها لم تحتمل حدتها، فانطفأت نظرتها، وقالت فى صوت ضعيف :

– أستاذ.. ما رأيك فى ؟

فقلت وأنا أدهش لسؤالها :

– ليس لى رأى فيك..

قالت وبين شفتيها ابتسامة مسكينة :

– إنى أعرف رأيك فى.. لست فى حاجة لأن أسمعه.. ولكن قل لى... ماذا ينقصنى.. طول حياتى ؟

قلت :

– الحب ؟

قالت وهى تضحك ضحكة مترنحة :

– الحب.. لقد حصلت على كثير من الحب !!

قلت :

– لقد أحبك بعض الناس.. ولكنك أنت لم تحبى أحداً..

قالت مترنحة :

– إن المثل يقول.. أن تحب فهذا لا شىء.. وأن يحبك أحد فهذا بعض الشىء.. وأن تحب ويحبك من تحبه فهذا هو كل شىء..

قلت :

- هذا مثل خـاطىء.. وصحته.. أن تحب، فـهذا هو كل شىء.. إن الحب الذى يحمينا هو الحب الذى يعيش فى صدورنا، لا الحب الذى يعيش فى صدور غيرنا..

قالت فى أسى :

- لقد كنت جميلة، وكنت أستحق مصيراً غير هذا..

قلت :

- إن جمالك كان جمـال الإطار.. والحب هو جمال الصورة.. أنت إطار جميل وضعت فيه صورة فارغة، ليس فيها جمال..

قالت :

- زوجى ظلمنى..

قلت :

- إنك لم تقدمى لزوجك غيـر جمال وجهك.. جمـال تقدمينه لكل الناس.. وتستطيعين أن تجذبى به عيون كل الناس.. ولكن الزوج فى حاجـة إلى جمال لا يجـذب عينيه فـحسب، بل يجذب عـقله، وقلبه، وحياته..

قالت :

- ماذا أفعل ؟

قلت :

- تزوجى مرة أخرى.. رجلاً لا يجذبه جمال وجهك، ولكن يجذبه جمال شخصيتك..

قالت :

- أين أجده.. كلهم يكتفون بالنظر إلى وجهى..

قلت :

- لأنك لا تقدمين لهم إلا وجهك.. حاولى أن تقدمى شيئاً آخر..

قالت :

– فات الأوان.. لقد كبرت.. أصبحت عجوزاً.

قلت :

– إن الشخصية لا تكون أبداً عجوزاً.. إنها الشىء الذى يحتفظ دائماً بشبابه..

قالت :

– يا ريت..

وتركتنى.. ووقفت أرقبها.. عادت إلى الرجل الذى جلست معه، ومدت يدها تلتقط كأسها.. ثم فجأة.. ألقت الكأس.. وقامت من جانب الرجل.. وسارت فى خطوات مسرعة، وفى عينيها عزم.. كأنها ذاهبة لتبحث عن شىء ضاع منها طول حياتها..

مصران أعور

كنت فى الرابعـة والعـشـرين من عـمـرى، وتزوجت رجلا فى الخامسة والخمسين..

لا تشهق..

فلم أكن ضـحيـة، ولم يجـبرنى أحـد على زواجه، بالعكس، لقد اخترته بنفسى، وفضلته على كثيـر من الشبان الذين تقدمـوا لخطبتى فى ذلك الوقت.. بل وحـسـدنى عليه كل البـنات، وكل السيـدات أيضـا..

كان رجلا رائعا.. طويلا، رشيقا، أنيقا، والشعر الأبيض فى فوديه كدخان بخـور العنبر.. وكان حديثه عذبا، لا تمله.. كنت أسـتمع إليه الساعات فيخيل إلى أنى أسـتمع إلى لحن رائع لشوبان.. وكان غنيا، كريما، مفاتيح الجنة بين يديه.. وكان خبيرا بالمرأة... كان يعرف متى يقول الكلمة الحلوة، وكـيف يقولها.. ومتى يضـغط على اليد، وكيف يضغط عليـها.. ومتى يقدم الهـدية وكيف يقدمها.. ومـتى يدعو إلى سهرة، وكيف يعدها.. كان خبيرا، إلى حد أنى كنت أغار من خبرته.. لا بد أنها خـبرة اكتسـبها من خلال تجـارب ومغامرات كثـيرة، مع بنات ونساء كثيرات.. غيرى !

ووقـعت أسيـرة خبـرته وعذوبتـه، من قـبل أن نتزوج.. وعندمـا تزوجنا قضـينا شهـر العسل فى سويسـرا.. شهـر فى الجنة.. كانت الأيام تمر بنا حلوة هادئة.. كأننا نحلم.. كأننـا نسبح فوق السحب.. لا عنف، ولا نقـاش، ولا شىء ينقـصنى.. وفى كل سـاعـة أحس بالأفق يتسع أمامى.. وأحس بدنيا جديدة من النعيم.. وأحس بعقلى يكبر.. لم يكن زوجا فحـسب.. كان أكثر من ذلك.. كان أبا وأمـا.. أكثر.. فلم يكن أبى وأمى يدللاننى كل هذا الدلال.. ويمنحـاننى كل هذا الاهتمـام.. لقد كـان يحس بى، قبل أن أحس بنفـسى.. كـان يحس بأحلامى قـبل أن

أحلمـها.. ويحس برغـباتى قـبل أن أريدها.. ويحس بمرضى قـبل أن أمرض..

وفى يوم نظر إلى وجهى بعينيه الحانيتين، وقال :

– إنتى مش عاجبانى النهاردة يا زيزيت.. لونك متغير !

ولم أكن أشعـر بمرض.. ولا بألم.. ورغم ذلك فقـد أصر على أن يستدعى لى الطبيب.. أكبر أطباء سويسرا..

أتدرى ماذا قال الطبيب :

لقد اكتشف أنى مصابة باحتقان فى المرارة..

وبدأت العـلاج.. وبدأت أتعرض لسلسلة أمـراض كثـيرة بجـانب المرارة.. الكلى، والكبد، والمصران الغليظ، ثم.. القلب !

ولم يبـد على زوجى أنه ضـاق بأمـراضى.. أو ضـاق برقـادى الطويل فى فـراشى.. كان دائمـا بجانـبى يرعانى، وينظر إلى كـأنى أغلى وأثمن شىء يمتلكه.. ويناولنى الدواء بيده.. لم يتأخر لحظة عن موعد الدواء.. وبدأ يقـرأ كثيرا فى كتب الطب، وفى المجـلات الطبية، ويتابـع آخر مسـتحـدثات الأدوية.. وأصبح حـديثنا كله عن المرض والدواء والأطباء.. وأصـبح لى فى حجـرة نومى أجزخـانة صغـيرة أنيقة، تنتظم فيها زجاجـات الدواء، كأنها زجاجات العطر.. وأصبحت أعرض على صديقاتى أمراضى وأدويتـى كأنى أعرض عليهن ثيابى الجديدة.. وأحس بنوع من الزهو وأنا أعرضـها.. وزادنى المرض رقة واستسلاما.. ولا أكذب عليك، فـقد كنت أبالغ فى رقتى واستسلامى كـأن المرض نوع من التظاهر بالارستـقـراطية، ومظهـر من مظاهر الدلع والدلال..

وزوجى سعيد..

يرعانى..

ولا أكاد أقوم من فـراشى يوما لأذهب إلى السينما، أو لأسـتقبل

بعض الضيوف، حتى يعود بى الزوج الرحيم إلى الفراش، لأبقى فيه أياما، وأسابيع، وهو بجانبى.. فى عينيه حب، ينظر إلى كأنى الشىء الرقيق الغالى الذى يملكه..

وكان لزوجى ابن أخ..

شاب فى التاسعة والعشرين من عمره..

وكان يتردد علينا كثيرا.. ولم يكن من عادتى ولا من عادة زوجى، أن نترك أحدا يتردد علينا بهذه الكثرة، أو يرفع الكلفة بيننا وبينه.. ولكن عادل.. ابن أخى زوجى.. كان شيئا آخر.. كان بمثابة ابن لزوجى، فهو الذى رباه ورعاه بعد وفاة والده.. ورغم أن عادل كان يقيم مع أمه، إلا أنه كان معتبراً بيننا كواحد منا.. كأنه يعيش معنا.. لقد كان يدخل حجرة نومى، ويجلس بجانب فراشى..

وكان عادل يسخر من مرضى..

كان لا يريد أن يصدق أنى مريضة.. كان يسمع كلام الأطباء فيتهمهم بأنهم نصابون.. وكان يرانى أتناول الدواء، فيتهمنى بأنى مصابة بالوهم.. وكنت أتأوه فيقول لى.. بلاش دلع !

وكنت – رغم هذا – أستريح لعادل.. كانت سنه مقاربة لسنى.. ولكنى كنت أشعر بأنى أكبر منه.. كأنه ابنى.. ألست زوجة عمه..

وبدأت أرى فى عينى عادل نظرات تقلقنى..

نظرات، كأنه يطرق بعينيه فوق قلبى..

ثم بدأت أسمع منه كلاما يحيرنى.. كأنه يحاول أن يقول لى بأن هناك من يحرص على أن أظل أسيرة الوهم بأنى مريضة..

وكنت لا أغضب من هذه التلميحات.. كنت أتجاهلها.. إلى أن قال لى يوما بصراحة :

– فوقى لنفسك يا زيزيت.. ما تضيعيش عمرك فى كلام فاضى.. إنتى مش عيانة ومافيكيش حاجة.

قلت :

– اسأل عمك، وهو يقولك..

قال فى حدة كأنه يهم بالصراخ :

– عمى هو اللى معييكى.. هو اللى أقنعك بأنك عيانة.. ومصمم على أنك تفضلى عيانة طول عمرك..

قلت وأنا فى دهشة :

– ليه... وهو حايخد من كده إيه ؟

قال وهو يزداد حدة :

– حياخذ شبابك.. الفرق بينك وبينه واحد وثلاثين سنة.. ومش ممكن يعيش معاكى وهو مطمن، إلا إذا ضيع شبابك... ضيع شبابك ازاى.. بالمرض.. إنه يوهمك أنك مريضة.. علشان تبقى عجوزة زيه.. علشان تفضلى راقدة فى السرير، وماتطالبيش بحقوقك.. حقوق شبابك..

وشهقت..

لا.. لايمكن أن يكون هذا الكلام صحيحا.. لايمكن أن تكون كل هذه الأمراض وهما.. مجرد وهم.. وكل هذه الأدوية.. وكل هؤلاء الأطباء.. مستحيل.. مستحيل..

وقلت لعادل :

– إيه الكلام اللى بتقوله ده ؟

وقال عادل وهو ينحنى فوق فراشى :

– باقول إنى باحبك يا زيزيت.. باحبك.. من يوم ماشفتك وأنا باحبك.. وباتعذب.. حرام عليكى تضيعى شبابك وشبابى علشان راجل عجوز زى عمى..

وقبل أن أرد عليه كانت شفتاه فوق شفتى..

وحاولت أن أغضب منه..

ولم أستطع..

استسلمت لقبلته الثانية.. وقبلته الثالثة.. وقبلات كثيرة.. وأحسست بدماء جديدة تجرى فى عروقى.. دماء شبابى..

ويومها قمت من الفراش..

ولم يستطع زوجى أن يعيدنى إليه..

ولم أعد أتناول الدواء، ولا أتردد على الأطباء.. اكتشفت فعلا أنى كنت واهمة.. أنى لست مريضة، أريد أن أخرج من البيت.. وأريد أن ألهو.. وأن أضحك.. وأن أرى عادل..

ولا أطيل عليك.. لقد تركت بيت زوجى غاضبة، وأقمت فى بيت أبى.. ورفض زوجى أن يطلقنى.. لم يطالبنى بالعودة، ولكنه فقط رفض أن يطلقنى.. وظل صابرا محتفظا بكبريائه..

وتماديت مع عادل..

أصبحنا نلتقى فى شقة خاصة، اشتركت معه فى تأثيثها..

وأصبح لقاؤنا لحنا عنيفا.. ورمبا.. سامبا.. تشاتشا.. ليس كألحان التانجو والفالس، التى كنت أعيش فيها مع زوجى..

ثم كان يوم..

بعد ستة شهور فقط، من لقائى مع شبابى..

وذهبت إلى الشقة التى اشتركت فى تأثيثها مع عادل.. ذهبت بلا موعد معه، لأضع فيها تمثالا عاريا اشتريته فى طريقى..

ورأيته..

رأيته مع امرأة أخرى..

على نفس الفراش..

ووقفت مبهوتة.. وصراخ عنيف يملأ صدرى.. ولا أدرى كيف كنت أبدو ساعتها.. وحرت كيف أتصرف.. ولكنى أخيرا خرجت.. دون أن أنطق بكلمة.. وجريت.. جريت على السلم.. ثم ركبت

السـيـارة، وكل شيء في يجـرى.. يلـهث.. وعـدت إلى بيت زوجي، وألقيت بنفسى على فراشي.. وقلت له وأنا أحبس دموعى :

- أنا عيانة.. هات لى دكتور..

وابتسم زوجي في هدوء، واستدعى الطبيب..

أتدرى ماذا قال الطبيب ؟

قال إني مـصابة بالتـهاب في المصـران الأعور، وفي حـاجة إلى عملية جراحية !!

واستسلمت..

استسلمت للعملية الجراحية، وللمرض.. كأني وجدت فيه عزائي.. ولكني لم أعد كمـا كنت.. إني لست مقتنعة بأنـى مريضة.. بل لست مقتنعـة بأني كنت في حاجة إلى عملية المصران الأعـور.. إني أحيانا أتصور أن زوجي أجرى لى العملية بالاتـفاق مع الطبيب.. عقابا لي.. وأحيـانا أشتاق لعـملية أخرى أتعـزى بها، وتلهيني عن التـفكير في عادل، وترضى زوجي الذي لا يرتاح إلا إذا رآني مريضة..

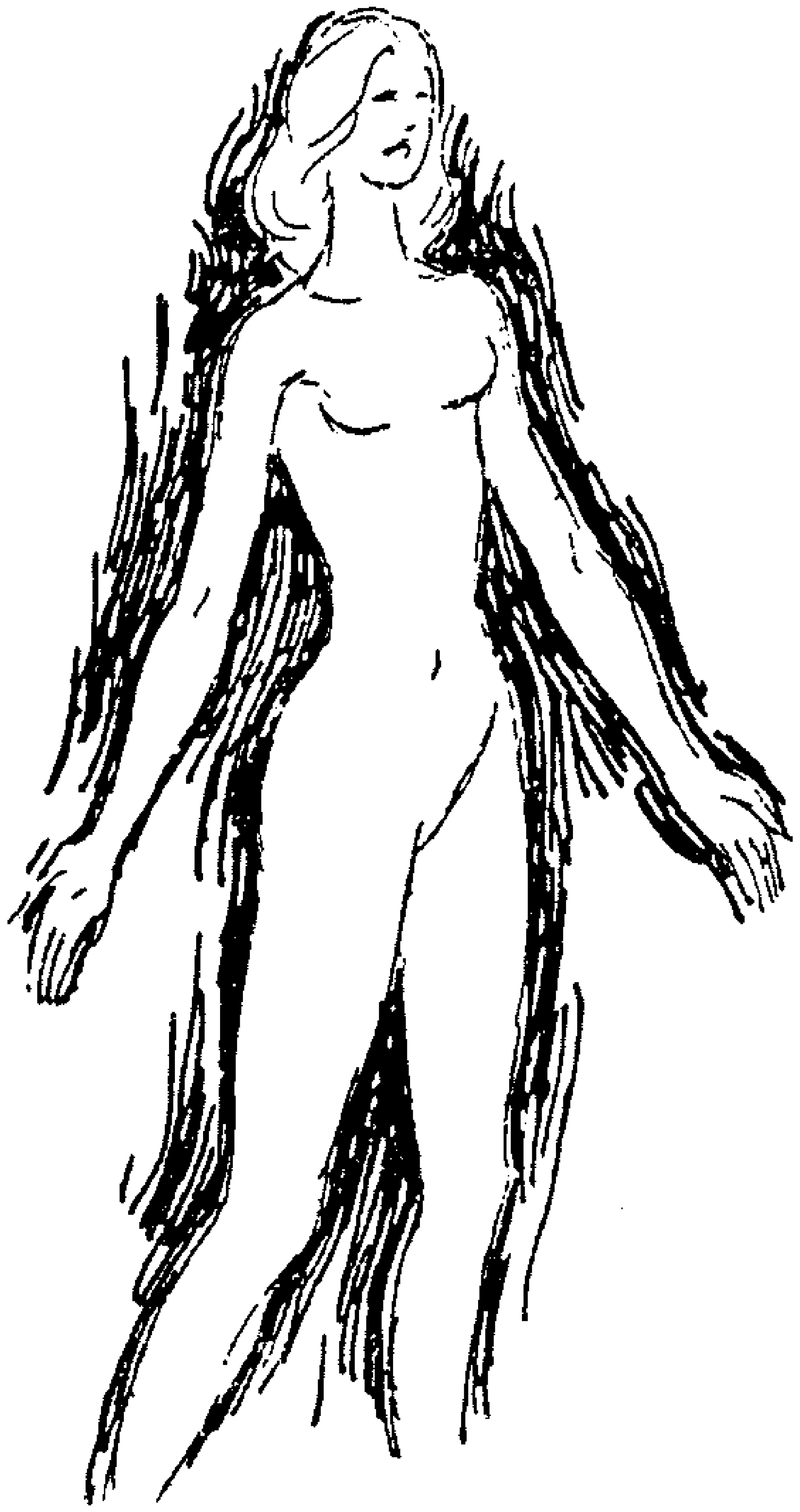

الخطوط الطويلة

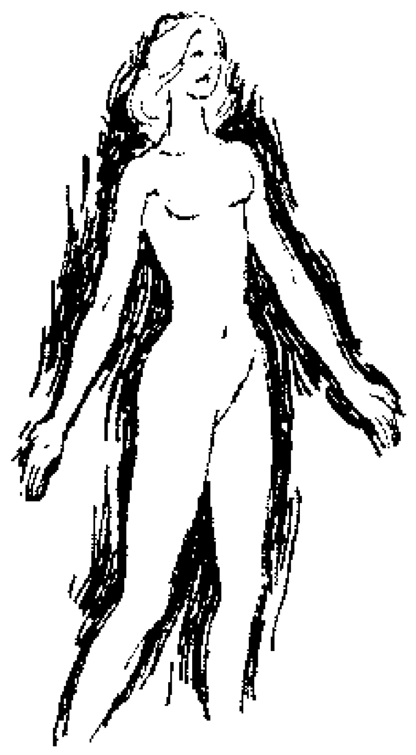

لو استعرضت التماثيل التى أصنعها لوجدت أنها كلها تمثل أجسادا طويلة.. ومنذ كنت طالبا فى كلية الفنون، وكل قطعة فنية تخرج من بين أصابعى، تخرج طويلة.. إن نفسى مليئة بخطوط طويلة.. طويلة جدا.. وكل شىء ينقلب أمام عينى إلى شىء طويل.. النساء طويلات، والرجال طوال، والشجر طويل، وقلة الماء لها عنق طويل.. خطوط طويلة.. طويلة جدا..

وأنا أحب كل شىء طويل.. المآذن.. والنخل.. والعمارات.. والبالونات الملونة فى يد الأطفال.. إنى أرتاح كلما رفعت رأسى إلى أعلى.. أحس كأنى أتسلق هذه الأشياء الطويلة لأصل إلى السماء.

وكانت الأشياء الطويلة هى كل حياتى.. أعيش بينها، وأصنعها بيدى.. لم يكن فى حياتى شىء آخر.. لم يكن فى حياتى نساء، إنما كنت أكتفى منهن بخيالى.. وخيالى يرسمهن طويلات.. طويلات جدا.. أطول مما تستطيع أن تكون أية فتاة..

وكان لى صديق اسمه جلال.. ولم يكن جلال فنانا، أو يفهم شيئا من الفن.. كان بعيدا عنى فى كل شىء.. وكان طالبا فى الجامعة الأمريكية يدرس العلوم السياسية.. ولكنى كنت أحبه لمرحه، وإقباله الشديد على الحياة، ونهمه فى تذوق كل شىء.. سواء كان تذوق ألوان الطعام أو ألوان البنات.. وكان يلجأ إلى كل الحيل ليشبع نهمه.. وكانت له خدع كثيرة ليوقع بالبنات.. ويروى لى هذه الحيل والخداع فأضحك، وأنظر إليه مبهورا بذكائه، متعجبا من جرأته وسفالته.. ورغم هذه السفالة، كنت أحبه.. كان يمثل لى الأرض التى أقف عليها بقدمى،وتطول عنها قامتى.. تطول إلى سماء المثل العليا النظيفة التى أؤمن بها وأعيش فيها..

وجاءنى جلال يوما ليقول لى إنه تعرف بفتاة أمريكية التحقت أخيرا بالجامعة.. جميلة.. تلحس.. تهوس.. وأخذ يصفها لى وهو

يرقص من الفرح..

ولم أهتم.. فقد تعودت من جلال أن يتعرف كل أسبوع بفتاة جديدة.. وأحيانا، فتاتين فى الأسبوع.

وأصبح جلال يأتى إلى كل يوم ويروى لى مزيدا من التفاصيل عن الفتاة الأمريكية.. أدق التفاصيل.. إنها ابنة أستاذ أمريكى استدعى لإلقاء عدة محاضرات فى كلية الآداب بجامعة القاهرة.. وتملك عزبة فى أمريكا.. و..و.. لقد قبلها.. لقد أخذها إلى بيته.. لقد تذوقها !

وكنت أستمع إليه، ولا أهتم..

إننا لا نهتم كثيرا بالأرض التى نقف عليها..

ثم جاءنى جلال ومعه الفتاة..

وبهت..

يا الله.. إنى لم أكن أتصور أن هناك شيئا طويلا إلى هذا الحد..

وتسلقت قامتها الطويلة بعينين مبهورتين، وفكى ساقط من الدهشة.. إلى أن وصلت إلى وجهها.. يا الله.. إن رأسى لم يرتفع من قبل إلى شىء جميل كل هذا الجمال.. العينان الواسعتان الملونتان، ينطلق منهما بريق نشط.. والأنف الدقيق.. والشفتان كوردة لم تتفتح بعد .. وشعرها الأصفر يرتفع فوق رأسها كذيل الحصان ، ثم ينسدل.. طويلا.. طويلا.. حتى يصل إلى خصرها..

وقدمها جلال إلى :

- ماجى..

ثم أخذ يتحدث كثيرا كعادته.. ولكنى لم أكن أستمع إليه.. كنت لا أزال مبهوتا، وفكى لا يزال ساقطا من الدهشة.. والخطوط التى فى نفسى تزداد طولا.. وأحس كأنى أخبط برأسى فى السحاب..

وأفقت من دهشتى، والتفت إلى جلال وقلت له بلهجة خطيرة، إنى أريد أن أصنع لماجى تمثالا.. قلتها كأنى أطلب منه أن يستدعى لى الإسعاف..

وهز جلال كتفيه بلا مبالاة..

ووافقت ماجى..

واستطعت أن آخذ إذنا من إدارة الكلية لتأتى ماجى إلى الأستديو وتقف أمامى..

وأصبحت تأتى كل يوم بعد أن تنتهى من دراستها فى الجامعة الأمريكية، وتجلس على المائدة المستديرة التى تجلس عليها الموديلات.. وأصنع تمثالها.. ولكنى لم أكن مخلصا فى صناعة التمثال.. كنت أحب النظر إليها أكثر من حبى لفنى.. كانت شيئا يغنينى عن فنى.. إنها أطول من خيالى.. أطول من كل شىء يمكن أن أصنعه بيدى.. ومضت ثلاثة شهور وأنا لم أنته من صناعة التمثال..

وبدأ شعور جديد يزحف على قلبى..

لعله الحب..

ومهما كانت حقيقة هذا الشعور، فقد وجدت نفسى أقاومه.. كنت أعتقد بأن ليس من حقى أن أشعر نحو ماجى بأكثر من الصداقة.. فهى فتاة صديقى.. وصديقى قد أئتمننى عليها..

وثار فى نفسى نوع من الإحساس بالذنب نحو صديقى.. ودفعنى هذا الإحساس إلى أن أذهب إليه كل يوم، وأروى له تفاصيل كل شىء حدث بينى وبين ماجى.. ولم يكن يحدث بيننا ما يستدعى هذا الإحساس بالذنب.. لم يجر بيننا سوى أحاديث فى الفن، وفى الأدب، وفى الأشعار التى كانت تكتبها.. وكنت أروى لصديقى كل هذه الأحاديث.. ولكن الذنب كان فى تطور عواطفى نحوها..

ثم لم أعد أحتمل..

ذهبت إلى صديقى، وقلت له إنى أحب ماجى..

وهز جلال كتفيه بلا مبالاة، كعادته، وقال :

– خذ راحتك.. ولا يهمك !

واستسخفت نفسى، فقد كنت إلى ذلك الحين لم أفاتح ماجى بحبى.. فلماذا أفاتح به صديقى..

وعواطفى تزداد تطورا.. وهى تزداد صراحة فى أحـاديثها، كانت تحدثنى عن نفسـها كثيرا، كأنهـا لم تجد فى حياتها أحدا تتحدث إليه عن نفســها قـبلى.. ثم.. ثم جاءت يوما إلىّ وهـى متعـبة.. وبدل أن تجلس على المائدة رقدت عليها، ونامت..

نامت نوما هادئا عميقا..

وأنا واقف أنظر إليها مبهورا بجمالها وطولها.. إنى لم أر من قبل شيئـا طويلا نائما.. كل الأشياء الطويلة واقفـة.. ولم أعد أستطيع أن أتمالك نفسى، فاقتربت منهـا على أطراف أصابعى، وانحنيت وقبلتها فوق خدها.. لم تكن قبلة.. كانت مجرد لمسة من شفتى..

وظلت نائمة..

وأنا واقف بعـيــدا أبتـهل إلى الجـمــال الطويـل النائم.. إلى أن استـيقظت، وجلست أمامى، لأعمل فــى تمثالها.. وظللت يومهـا أعمل حتى الغروب، ثم خـرجنا سويا نسير فى شارع الجـبلاية، لأوصلها إلى حيث تقيم فى الباخرة « أرابيا ».. والتفتت إلى فجأة وقالت :

– هل تريد أن ترانى فى أسعد حالاتى ؟

وفجـأة خلعت حذاءها من قدمـيها.. وأخـذت تسـير بجانبى فى الشارع حـافية القـدمين.. وارتبكت، أحسـست كأن كل الناس تنظر إلينا.. ولكنها قالت :

– لا ترتبك.. أراهنك أن أحدا لن ينظر إلى قدمى !

وأخـذت تتراهن على كل من يمـر بنا.. وفـعلا لم ينظر أحـد إلى قدميـها ليلحظ أنها تسير حـافية.. كلهم يكتفون بالنظر إلى وجـهها الجميل وقامتها الطويلة..

وعندما وصلنا إلى الباخرة، سألتها وأنا أتلعثم :

– هل ستقابلين جلال الليلة ؟

واحمر وجـهها كأنما انطلقت فيه الـنار، ولمعت عيناها، وقالت فى حدة :

– لا.. لن أقابله.. لا أريد أن أقابله.. إن صديقك مقرف.. إنه لايرى

فىّ إلا قطعة من اللحم.. إنه لا يريد إلا جسدى.. إنه حيوان..

ونظرت إليها فى دهشة.. لقد كنت أعتقد أنها تحبه.. ثم خفضت عنها عينى صامتا.. وأمسكت بيدى وقالت فى رقة تمسح غضبها..

- أنت شىء آخر.. أنت إنسان..

وتركتها، وأنا ثائر على صديقى.. كيف لا يرى فيها إلا قطعة من اللحم.. كيف لا يرى هذه الخطوط الطويلة.. الطويلة جدا..

ورغم ذلك فقد ذهبت إلى صديقى فى اليوم التالى وقلت له كل شىء.. قلت له إنى قبلتها وهى نائمة.. وقلت له إنها تتهمه بأنه حيوان.

وهز جلال كتفيه بلا مبالاة.. وربما اغتاظ ساعتها، أو حقد على.. ولكنى لم ألحظ منه إلا اللامبالاة..

وتطورت علاقتى بماجى.. أصبحنا نخرج كل يوم سويا.. وأصبحنا لا نفترق.. وتعودت منها كثيرا من التصرفات الشاذة.. كانت دائما ضاحكة.. منطلقة.. بريئة..

ولم تعد ترى صديقى.. وأصبحت أحاديثنا ناعمة، جميلة، ليس لها بداية ولا نهاية.. أصبح كل منا يعرف مافى قلب الآخر دون أن نبوح به.. ولم يكن صوتها يرتفع ويحتد إلا إذا جاء ذكر جلال.. إنه حقير.. سافل.. إنها تكرهه.. إنه أول رجل فى حياتها اغتصب جسدها.. وهى تقرف منه.. وتقرف من نفسها كلما تذكرته..

وأصبحت حريصا على أن أؤكد لها أنى لست كصديقى.. إنى لا أطمع فى جسدها.. إنى لا أريد حتى أن ألمسه.. إنى فقط أعبد الخطوط الطويلة..

إلى أن كان يوم، وكنا جالسين على شاطىء النيل، وقدماها العاريتان مغروستان فى الطين.. وقالت لى فجأة :

- لماذا قبلتنى وأنا نائمة ؟

وتلعثمت.. خفت أن تعتبرنى كصديقى، وقلت :

- لا.. لم.. كنت..

وقاطعت لعثمتى قائلة :

– لا تسرق شيئا هو من حقك !

ونظرت إليها فى دهشة.. وشفتاها تقتربان من شفتى..

وقبلتها..

قبلتها كثيرا.. إنى لم أتعود على كل هذه القبل..

وكنت أدخل معها فى غرفتها بالفندق العائم، وأقبلها مزيدا من القبلات..

و..

ولا شىء غير القبل..

كنت لا أريد أن أكون كصديقى جلال..

وكانت لا تريد أن تعيد تجربتها مع جلال..

كانت هناك عقيدة تقف بيننا.. عقدة نفسية، اسمها جلال..

وكنا ننساق فى قبلاتنا.. وأشعر بالنار تندلع فى أعصابى، وفى أعصابها.. ثم ينظر كل منا إلى الآخر.. ونشعر بشىء كالخوف.. الخوف من أن يفقد أحدنا الآخر.. الخوف من أن أكون كجلال.. والخوف من أن تشعر نحوى شعورها نحو جلال.. فنكبت النار، ونكف عن قبلاتنا..

وتعذبت كثيرا بهذا الكبت ..

كنت أتركها وأذهب إلى بيتى، وأدور فى غرفتى كالمجنون.. أضرب الجدران بقبضتى.. وأكاد أهم بالبكاء.. وأعود إليها وأنا مصمم ألا أقبلها، حتى لا أتعرض بعد ذلك لعذاب الكبت.. ولكننى لم أكن أستطيع أن أقاوم.. ولا هى.. كنا نحب أحدنا الآخر.. ونحب قبلاتنا.. ونتعذب بعقدتنا.. العقدة التى تركها لنا جلال.. كأنها اللعنة التى تلاحقنا..

كم مضى علينا..

أربعة شهور..

ثم تقرر أن تغادر مصر.. تحدثنا فى الزواج.. ولكنها كان يجب

أن تعـود أولا إلى بلدها.. وسـافرت مـعهـا إلى الإسكندرية، وأقـمنا يومين فـى فندق واحد.. فى غرفـتين مـتلاصقـتين.. لا.. فى غـرفة واحـدة.. ورغم ذلك فاللعنة تقف بـيننا.. أحاول أن أقنع نفـسى بأن حبنا عـذرى.. حب سام.. ليس كحب جـلال.. فتعـذبنى النار المندلعة فى أعصـابى.. وتحاول أن تقنع نفـسهـا بأنها لا تريد منى مـا كان يعطيه لها جلال.. فتشتعل النار..

وسافرت..

واعتقدت أنى سأستـريح من النار.. وسيخلص حبى من العذاب.. سأحبها على البعد حبا أرق من حبى لها وهى قريبة منى..

ولكن.. لا.. إن النار تـلاحـقنى.. تلاحـقنى وهى بـعـيـدة عنى.. تلاحقنـى فى صحوى، وفى نومـى.. وخرجت من البيـت كالمجنون، ذهبت إلى جلال، والنار تعـمى عينى.. وانهلت عليه ضربـا.. ضربته بكل غلى.. بكل عذابى.. بكل لهيب أعصابى..

وأبعدونى عنه..

وهو مندهش :

– ماذا أصابك أيها المجنون.. ألم أترك لك ماجى ؟!

– لا.. إنك لم تتركها لى.. لقد كانت لعنتك تلاحقنا..

وعدت أصنع التماثيل للأشياء الطويلة..

لقد ازدادت الخطوط طولا..

إن أصدقـائى يسألوننى فى تعـجب : لماذا أصنع الخطوط طويلة إلى هذا الحد..

أين زوجى ؟

قضيت عمرى كله، وأنا أبحث عن زوجى..

كنت وأنا فى الرابعة عشرة أبحث عنه بخيالى، ثم أصبحت وأنا فى السابعة عشرة أبحث عنه فى الواقع.. أبحث عنه فى كل رجل ألتقى به، وفى كل مجلة أقلب صفحاتها، وفى كل فيلم أشاهده، بل كنت أبحث عنه أيضا فى الشوارع.. كنت أسير فى الشارع وعينى تختلس النظر إلى كل رجل أمر به، وأبحث فى وجهه، لعله يكون زوجى..

الرجال كلهم لا يصلحون لشىء إلا للزواج.. والدنيا كلها ليست إلا سوقا أنتقى منه الرجل الذى أتزوجه..

ولم أكن أبحث عن الحب..

صدقنى.. إن خيالى لم ينطلق أبدا إلى الحب.. لم أكن أحن إلى شاب يثير عواطفى، ويملأ فراغ يومى بحديث التليفون، ويأخذ شفتى بين شفتيه.. لا.. كان كل ما أريده هو رجل أتزوجه.. وكل ما أحلم به هو الزواج..

الزواج أولا.. وأخيرا !

ولم أكن أريد أى زوج.. بل كنت أريد زوجا لامعا.. زوجا يحسدنى عليه البنات، ويشبع غرورى عندما أحمل اسمه، ويجمع حولى العيون كلما سرت به فى شارع أو دخلت به إلى حفل..

ولم يكن عندى ما أقدمه لمثل هذا الزوج إلا جمالى.. فأنا جميلة.. وأعرف أنى جميلة.. أجمل من كل البنات.. وهذا الجمال يجب أن يكون له ثمن.. ولن يستطيع أن يدفع ثمنه إلا رجل لامع ناجح.. يتزوجنى..

وقد تعودت وأنا أطوف بسوق الرجال أن أختصر منهم كل الرجال المتزوجين.. إن الرجل المتزوج بالنسبة لى رجل ميت.. رجل

أدى وظيفته فى الحياة وانتهى.. لا نفع منه.. ولا يستحق الحياة فى دنياى..

وكنت أنظر إلى الرجل فى وجهه، فإذا أعجبنى نقلت عينى بسرعة إلى أصابع يديه، فإذا رأيت فيها خاتم الزواج، شطبته من الحياة.. وبخلت عليه بالنظرة الثانية.

وفوجئت بحقيقة رهيبة..

إن كل الرجال اللامعين متزوجون.. كل الأغنياء متزوجون، وكل الكتاب الكبار متزوجون، وكل نجوم السينما متزوجون.. ورجال الأعمال، والمحامون و.. و.. كلهم متزوجون.. كلهم يحملون علامة النهاية فى أصابعهم.. حتى الشبان منهم.. هل تعرف ممدوح خيرى، الذى ورث عن أبيه خمس عمارات وأكثر من نصف مليون جنيه.. إنه فى الرابعة والعشرين.. ورغم ذلك انتهى المسكين من حياتى.. فهو متزوج !

وأخذت نوبات من اليأس تطوف بقلبى.. إنى لن أجد أبدا الزوج الذى أحلم به.. وبدأت أفكر فى أن أتنازل عن جزء من هذه الأحلام.. أن أتواضع.. فكرت أن أقبل الزواج من أحد الشبان الذين يخطون خطواتهم الأولى فى الحياة، وأكافح معه إلى أن يلمع وينجح ويغتنى، وألمع وأنجح وأغتنى معه.. ولكن لا.. إنى لا أستطيع أن أضحى بأجمل سنوات عمرى فى كفاح وحرمان.. ومن أدرانى.. لعل الشاب الذى أختاره لا يلمع أبدا ولا ينجح.. وربما نجح ولمع بعد سنوات طويلة.. بعد أن أفقد شبابى، وأصبح عجوزا.. بعد أن أفقد روعة الثوب على جسدى الشاب.. وروعة الفراء الثمين حول كتفى المشدودتين وروعة التفاف العيون المبهورة حول جمالى..

وعدت أتمسك بأحلامى.. إنى أريد زوجا جاهزا.. ليس فى عمرى وقت كاف لأصنع زوجا.. تفصيل !

وبلغت العشرين من عمرى، وأنا أرفض كل طالب زواج يتقدم لى.. فلم يكن بينهم من أبحث عنه..

إلى أن التقيت بمحمد..

كنت أسير فى شارع سليمان باشا عندما رأيته يهم بركوب سيارته.. سيارة « ثندر بيرد » بيضاء.. تجنن.. ورفعت عينى إلى وجهه.. إنه وجه وسيم.. حلو الملامح.. يضج بالرجولة.. وهو ليس صغيرا.. لعله فى الثلاثين أو الثانية والثلاثين..

ونقلت عينى بسرعة إلى أصابع يديه.. وابتسمت ابتسامة كبيرة.. ابتسمت رغم إرادتى..

ونظر إلىّ والدهشة تملأ عينيه.. ثم التفت خلفه كأنه يبحث عن الشخص الآخر الذى أبتسم له.. ثم عاد إلىّ بوجهه، وابتسم لى ابتسامة مترددة..

وسحبت ابتسامتى بسرعة، وأشحت بوجهى عنه، وخطوت من أمامه.. وكل عقلى مشغول به..

ولكنى لا أعرفه..

لا أعرف شيئا عنه ..

وفى اليوم التالى عدت أسير فى شارع سليمان باشا فى نفس الموعد.. ورأيت سيارته.. السيارة الثندر بيرد البيضاء واقفة فى مكانها أمام باب العمارة الكبيرة.. وتلكأت فى مشيتى لعلى أراه مرة ثانية.. ولكنه لم يظهر.. وتلكأت أكثر.. وأنا أفكر.. لعل مكتبه فى هذه العمارة.. لعله دكتور.. أو مهندس.. أو صاحب شركة.. ووقفت أقرأ الأسماء المعلقة على الباب، أحاول أن أختار من بينها اسما له.. وفجأة سمعت صوتا يهمس من خلفى قائلا :

– اسمى محمد شاهين.. أعلى يافطة على الشمال..

وتسمرت فى مكانى.. ولم ألتفت إليه.. أحسست كأنه ضبطنى

متلبسة بجريمة..

وعاد يهمس :

- تليفونى ٢٠٦ .

ولم أسمع بقية الرقم.. ودون أن أدرى التفت إليه وهمست مثله :

- كام ؟

وعاد يردد الرقم :

- ٢٠٦٦٧ .

ثم خطا بسرعة وركب سيارته، وأنا واقفة لا أنظر إليه وعندما سمعت صوت السيارة تتحرك تبعتها بعينى.. وفى قلبى ابتسامة كبيرة..

وقضيت يومين ورقم تليفونه يتردد تحت لسانى، ولا أجرؤ على الاتصال به.. إنى لم أتعود على معاكسة الرجال فى تليفون.. أحس أنى لو بدأت الاتصال برجل فكأنى تنازلت عن عرشى.. عرش جمالى.. كأنى أذللت نفسى.. ولكن هذا الرجل لقطة.. وأنا أريده زوجا لى.. وأخاف أن يضيع منى.. يا ربى لماذا لم أعطه أنا رقم تليفونى حتى يبدأ هو بالاتصال بى، ويعفينى من إذلال نفسى..

و..

واتصلت به.. وسرى صوته فى أذنى هادئا قويا يذيب إرادتى.. وأصبحت أتصل به كل يوم.. وعرفت عنه كل شىء.. إنه ابن مقاول كبير فى الاسكندرية، وتخرج فى كلية الهندسة واشتغل مع والده.. ثم جاء منذ ثلاثة شهور فقط ليفتتح مكتبا فى القاهرة.. وهو يقيم فى فندق شبرد ويسافر كل خميس وجمعة إلى الاسكندرية بسيارته الثندر بيرد.. البيضاء..

وطالت أحاديثنا.. ولم أكن أستطيع أن أقول له فى التليفون : تعال تزوجنى.. كنت أعلم أنى يجب أن أخطو إليه خطوة أخرى.. كان

يجب أن ألقاه.. أن أخرج معه.. وهو فى حديثه يتمنى لقائى.. ولكنه لا يلح ولا يتهافت ولا يحرجنى.. أنه قوى..

و..

لقد خرجت للقائه..

كان أول رجل أخرج إلى لقائه.. لقد كنت أعتقد قبل ذلك أنى لن أخرج أبدا للقاء رجل.. سأبقى على عرشى، والرجال يأتون إلى.. ولكنى تركت عرشى وخرجت إلى محمد..

نعم.. لقد قبلنى.. قبلنى كثيرا.. وأحببت قبلاته.. لم أعد أستطيع أن أنام إلا بعد أن تشبع شفتاى من شفتيه..

ولكنه لا يحدثنى عن الزواج !

وقلت له وأنا مختبئة فى صدره :

– وبعدين يا محمد.. حانفضل كده على طول..

ونظر إلى طويلا، وفى عينيه يأس كبير وحزن عميق.. ثم أدار رأسه وأخفى عينيه عنى وقال فى صوت محشرج ينضح بالألم :

– أنا متجوز يا زيزى..

ووقف قلبى.. أحسست كأن حجرا ضخما سقط على رأسى.. ونظرت إليه فى هلع، وصرخت صرخة خافتة :

– بتقول إيه..

قال وهو لا ينظر إلىّ :

– أنا متجوز.. وعندى ولد..

وصرخت :

– وخبيت عنى ليه ؟

قال :

– إنتى ما سألتنيش.. وأنا ماخبتش عليكى.. كنت مستنى اليوم اللى أقدر أقول لك فيه..

قلت وأنا أبتعد عنه وأنكمش فى ركن السيارة :

- كان لازم تقول لى من أول يوم، حتى لو ماسألتكش..

قال :

- ماقدرتش.. كنت عايز أعرفك.

وبلا إرادة نظرت إلى أصابع يديه كأنى سأرى فيها شيئا لم أره من قبل.. علامة الموت.. وعدت أقول :

- لكن أنت مش لابس دبلة.

قال وهو يحنى رأسه فوق صدره :

- أنا ما أقدرش ألبس خاتم أبدا.. جلدى حساس.. والخاتم بيعمل لى ارتكاريا..

ونظرت إليه برهة.. والدماء الساخنة تلهب رأسى وعينى وأذنى.. تلهبنى كلى.. وفتحت فمى.. كنت أريد أن ألعنه.. أسبه.. أقتله.. ولكنى لم أقل شيئا وفتحت باب السيارة، وألقيت نفسى منها وأخذت أعدو.. وأعدو.. لم أدر كم عدوت.. ولكنى تنبهت إلى نفسى وأنا أنزل من سيارة أجرة أمام بيتى..

■ ■ ■

هل تدرى ؟

لقد عدت إلى محمد..

لم أتزوجه..

ولكنى أحبه..

إنى أعيش اليوم فى أحلام الحب، لا أحلام الزواج..

ولا أستطيع أن أنام إلا بعد أن تشبع شفتاى من شفتيه..

الرصيف

أنا رسام..

وعندمــا أرسم وجـهــا من الوجــوه التى أختــارها، لا أرسم ما أراه بعــينى، ولكنى أرسم صورة صــاحب هذا الوجه كمــا أتخيله.. أرسـم رأيى فــيه.. أرسم حكمى عليــه.. وصحــيح أنى أتقيد بملامــح الوجه، ولكن النظرة التى تطل من العينين، والتعبير المرتسم فوق الشــفتين، ومجموعة الألوان التى تملأ اللوحــة و.. و.. كل ذلك ينبــعث من داخلى، ويكون رأيى فى الوجــه الذى أرسمــه.. وقد لا تعرف أن كل لون من الألــوان التى أستعـملها هو عبارة عن رأى يختلف عن الآخر.. الأزرق له مـعنى غير الأحمر، وغير الأصفر، وغير الأخضر.. وهكذا !

وقــد تعــودت أن أنظر إلى وجــوه الناس الذين ألتــقى بهم، وأرى فيها أكثر مما يراه الرجل العادى.. أنظر إليها بعينى فنان، وأرى فيها موضوعا، لا مجرد شكل.. فإذا أثارنى وجه من هذه الوجوه، وكونت فيه رأيا، دعوت صــاحبه ليجلس أمامى، وأرسمــه.. وغالبا ما يرحب الجــميع بــدعوتى.. لم يحــدث أبدا أن رفض أحــد الجلوس أمــامى.. وغالبا أيضــا لا يعجب من أرسمه بالوجه الذى رســمته له.. إنه يرى وجهه فى اللوحة، ولكنه يرى بجانب وجهه رأيى فيه.. فيغضب !

إلى أن التقيت بسوسن..

التقيت بها على شاطىء البحر فى رأس البر..

رأيتها من بعيد..

وتعلقت بها عيناى كأنى أشهق..

لم أر من قبل مــثل هذا الجمــال.. جمال بــرىء.. هادىء.. مريح.. كالدموع.. كالنغم الحزين.. كالتنهد.. وشعرها فى لون البندق.. تشده إلى الوراء، كأنها تخـشى أن يسرقه منها الهـواء.. وعيناها ملونتان،

واسعتان، فيهما دهشة دائمة.. دهشة ساذجة، كأنها دهشة طفل يفتح عينيه على الحياة لأول مرة.. ولم تكن ترتدى مايوها كبقية البنات.. كانت ترتدى ثوبا أزرق، مقفولا حتى رقبتها، وأكمامه تصل إلى منتصف ذراعيها.. وكانت تعبث بأصابعها فى الرمال..

وقفت أبحلق فيها، من بعيد، وخيالى يرسم لها صورة.. واحترت فى عنوان الصورة.. هل أسميها « القديسة » أو « الطاهرة » أو « براءة » أو « ملاك ».. أو.. أو..

ولم تلتفت إلى سوسن.. إنها أشد براءة من أن يمسها غبار آدمى مثلى.. أشد طهرا من أن ترفع عينيها إلى مخلوق من طين..

وقضيت يومى أحلم بالصورة التى أرسمها لها..

ثم مضت الأيام ولم أعد أحلم بالصورة، بل أصبحت أحلم بها.. بها هى.. بشخصها.. كأنى أحببتها.. ربما أحببتها فعلا..

وكان يجب أن أعرفها..

وأن أرسمها..

وأصبحت أتبعها وأنا أبحث عن الطريق إليها.. وعرفت كل أقاربها، وكل صديقاتها، وصديقات صديقاتها.. إلى أن وجدت فتاة أعرفها، ويمكن أن تقدمنى لها.. و..

وعرفتها..

وفى أول لقاء، لم أستطع أن أنتظر أكثر مما انتظرت، فدعوتها لأن تجلس أمامى لأرسمها..

وقبلت..

قبلت فورا..

لا شك أنها تؤمن بالفن.. ولذلك قبلت بهذه السهولة، وبهذه السرعة.

وواعدتها على أن تأتى إلى العشة التى أقيم فيها مع عائلتى.. إن

معى أخواتى البنات.. وليس هناك غبار على هذه الدعوة..

وقبلت..

وقضيت الصباح كله أعد نفسى لاستقبالها.. اخترت المكان الذى ستجلس فيه بحيث يبدو البحر من ورائها، ليضفى على اللوحة مسحة من الشاعرية.. واشتريت زهورا بيضاء فى لون الطهر، ووضعتها بجانب المقعد الذى تجلس عليه.. واخترت الألوان التى سأرسمها بها.. كلها ألوان هادئة بريئة.. الأزرق، والأخضر، والأصفر.. و..

وجاءت..

وأجلستها فى المكان الذى اخترته لها، وأنا أرتجف من النشوة.. كأنى مقبل على أهم عمل فى حياتى.. كأنى على وشك أن أدق بفرشاتى باب كنز.. كنز الخلود.. كنز المجد..

وبدأت أرسم وجهها..

ولم تمض دقائق حتى بدأت سوسن تتكلم :

– قول لى يا أستاذ وحيد.. أنت حاتنشر الصورة دى فى أى مجلة ؟

وكذبت أذنى.. لا يمكن أن تكون سوسن حريصة على أن تنشر صورتها فى المجلات.. إنها أكثر براءة من ذلك.. لعلها تريد أن تطمئن.. وأجبتها :

– مش حانشرها أبدا..

وسمعتها تقول فى حسرة :

– يا خسارة..

وعدت لأكذب أذنى.. ولكنها استطردت :

– يعنى ماحدش حايشوفها أبدا..

قلت وأنا أغالب نفسى :

- إزاى.. ناس كتير حايشوفوها.

قالت :

- أنا عـايزاك ترسـمنى حلوة قوى، عـلشان أغـيظ صـاحبـتى مرفت..

وكنت فى هذه الأثـناء أرسم شـعـرها.. كنت أرسم بـلون بندقى هادىء.. فـإذا بى ودون أن أدرى، أضـيف إلـيـه كـثـيـرا من اللون الأصفر، فيبدو فى الصورة، كأنه شعر مصبوغ.. رخيص !

وبدأت سوسن تتململ فى جلستها.. وعادت تتكلم :

- قـول لى يا أسـتـاذ وحيـد.. أنت تعـرف ترقص التـشـاتشـا

وارتعشت الفرشاة فى يدى.. وقلت :

- لا يا افندم..

قالت :

- يا خسارة.. لازم تتعلمها.. ولو حبيت أعلمها لك أنا..

لماذ تتكلم هذه الفتاة ؟!

لماذا لا تسكت، حتى تـصون لى خيـالى الذى أرسمهـا به.. حتى تصون لى رأيى فيها..

وكنت فى هذه اللحظة أرسم عـينيهـا.. كنت أرسمهـا بلون يغلب عليه الأزرق الـفاتـح.. كلون البـحر الذى يطل من ورائهـا.. كان فى عينيها رحيق الطهـر.. ودون أن أدرى اختلطت الألوان فى فرشـاتى.. وإذا بالألوان الفـاتحة تغـمق، وإذا بى أرسم عينيـها، وليس فـيهـما دهشة الطفل، ولكن فيهما جوع.. جوع القطة النهمة !

وازداد تململ سوسن فى جلستها.. إنها لا تستطيع أن تستقر.. لا تستطيع أن تهـدأ.. ولمحتهـا ترفع ثوبها عن ساقيـها، كأنهـا تغرينى بهما.. كأنهـا تحاول أن تلهينى عن فنى.. وكنت فى هذ اللـحظة أرسـم شفـتيـها.. الشـفتين اللتين تخـيلتهمـا هادئتين نظيـفتـين، كشـفتى

الجيوكندا.. وإذا بى أرسمها شفاها غامقة فى لون الدم.. مثيرة.. متسخة !!

وتعبت..

وطلبت من سوسن أن تأتى فى اليوم التالى بالثوب الذى تريدنى أن أرسمها به.. وكنت قد أعددت فى خيالى ثوبا مقفولا لونه أخضر فاتح.. ولكنها جاءت إلى بثوب أسود مفتوح.. ثوب يكشف عن لحم صدرها، وعن كل ظهرها.. ووقفت تتمايل أمامى، وتقول لى :

– حلو الفستان يا أستاذ وحيد.. مش حلو والنبى.. ده أنا واخد الموديل بتاعه من كريستيان ديور..

ورسمتها..

ورسمت الفستان فى لون أحمر فاتح.. يكشف عن ساقيها، وصدرها، ولم أرسم خلفها مياه البحر الزرقاء، بل رسمت فانوس نور !!

ولم أر سوسن بعد ذلك..

لا أريد أن أراها..

وقد عرضت صورتها فى معرضى، وأسميتها : الرصيف !

هكذا يتزوجون

أريد أن أعرف كيف يختار الرجل زوجته ؟

إنى أعرف كيف يختار الرجل كرافتته.. إن هناك دائما تناسقا بين جميع كرافتاته.. ذوق واحد يختار به.. ويكفى أن ترى كرافتة واحدة، لتعرف شكل الكرافتة التى سيختارها بعد سنة، أو بعد خمسين سنة !

ولكنى لا أعرف كيف يختار الرجل زوجته ؟

هل يحكم ذوقه.. أبدا.. لو راجعت أنواع النساء اللاتى عرفهن كل رجل فى حياته.. لوجدت أن ليس هناك ذوق واحد يربط بينهن.. سمينة.. رفيعة.. مثقفة.. جاهلة.. جميلة.. قبيحة..

ربما كانت هناك مقاييس محددة يختار بها الرجل زوجته.. مقاييس لا يدخل فيها الذوق..

ما هى هذه المقاييس ؟!

هل هى الأخلاق ؟ أبدا.. إن البنات العفيفات الشريفات صاحبات الأخلاق، أقل حظا فى الزواج من البنات المنحلات اللاتى يجرين بين الناس بلا مبادىء وبلا أخلاق !

هل هو الجمال ؟ أبدا.. القبيحات يتزوجن أسرع من الجميلات..

هل هو الحب ؟.. أبدا..إن قصص الحب التى تنتهى بالزواج أقل بكثير من قصص الحب التى تنتهى بالانتحار..

الثقافة ؟.. أبدا.. أيضا..

الثروة.. الأصل الطيب.. و..و.. كل هذه مقاييس باطلة.. مقاييس يتشدق بها الرجال، ثم يتجاهلونها..

لابد أن هناك شيئا صغيرا فى عقل الرجل، هو الذى يتحرك فى لحظة معينة ليختار له زوجته !

ما هو هذا الشىء ؟

الله يعلم.. ولا أحد يعلم ؟

وأنا لى قصة.. قـصة صغيرة بسيطـة، هى التى دفعتنى إلى هذا التساؤل.. ودفعنى التساؤل إلى هذا الجنون !

أنى موظفة فى إحدى الشركـات.. وبلا غرور.. أنا أجمل موظفات الشركة.. وأطيبهن.. وأرقاهن ثقافة..

ورئيس القسم الذى أعمل فيـه.. رجل فى السادسة والثلاثين من عمـره.. رائع.. ابتسامـته تخطف القلب.. ومـحترم.. ويـفرض عليك احترامه بلا تعمد.. و.. حلم كل موظفات الشركة !

وقد استطاع خلال سنوات طويلة أن يوزع إعجابه واهتمامه على كثير من موظفات الشـركة، دون أن يجرح عواطف واحدة منهن.. بل دون أن يشعر واحـدة منهن أنه معجب بالأخـرى.. كانت كل واحدة منهن تعتقـد أنها الوحيدة فى قلبه وفى عـينيه.. وتنطلق مع الأحلام الكبيرة.. حلم الزواج به فى يوم من الأيام.. وكـان يترك لكل واحدة منهن أحلامـها.. لا يصدمـها.. ولا يهدمـها.. إن الحيـاة مع الأحلام، أجمل من الحياة بـلا أحلام.. كانت هذه فلسفته.. وكـان قادرا برقته، وذكائه وهيبته، على أن يثير الأحلام فى قلب كثير من البنات !

إلى أن التقت عيناه بعينى..

ومن يومها أصبح لى وحدى.. لم يستطع ذكاؤه أن يدارى إعجابه بى.. وحبـه.. وعرفت كل الـزميلات.. عـرفن أنه أصبح لـى وحدى.. وأنى وحدى أصبحت صاحبة الحلم الكبير !

هل يحقق لى حلمى ؟

لا..

إنه يحبنى إلى حد لايستطيع أن يخـدعنى، ولا أن يترك لى حبال الأمل كما كان يفعل مع بقية البنات..

إنه لن يتزوجنى..

لأني مسيحية..

ولم أصدم.. لقد كنت أقدر هذه المشكلة أكثر منه.. كنت أعلم أني لو غيرت ديني من أجله فسأقضي على أبي وأمي.. وأنه لو تزوجني على ديني فسيقضي على أبيه وأمه.. وكلانا يحب أباه وأمه..

ولكن..

كان يجب أن أتزوج..

رغم حبي له.. كان يجب أن أتزوج.. أيضا، لأرضي أبي وأمي.. ولأرتاح من مشكلة.. ومن نظرة معينة يواجه بها المجتمع كل بنت لا تتزوج.

وتزوجت رجلا لا أحبه.. ولكنه محترم.. ناجح.. فيه كل الصفات التي تكفل لي الاستقرار.

ولا زلت أحب رئيس القسم..

وهو يعلم أني لا زلت أحبه..

ويعلم أن حبي له يكفي ليغنيه عن كل البنات..

ولكنه فجأة تزوج..

بلا مقدمات.. رأيته يوزع بطاقات الدعوة إلى حفل قرانه، على الزملاء والزميلات،، ورغم ذلك لم أفاجأ.. لقد كنت أحسب حساب هذا اليوم، في كل أيام حبي.. كنت أعلم أنه يوما ما سيتزوج.. كنت أعلم أنه وصل إلى السن التي يجب أن يتزوج فيها..

ولكن المفاجأة الكبرى.. الصدمة التي صدمتني.. هي البنت التي اختارها لتكون زوجته.. إنها إحدى الزميلات، الموظفات في الشركة.. وكنت أعلم أنه سيختار واحدة من الزميلات.. ولكن ليست هذه.. ليست هذه أبدا.. صدقني أنها آخر بنت تصلح للزواج به.. أو للزواج بأي رجل.. ليست جميلة.. ولا مثقفة .. ولا غنية.. ولا فاضلة.. وليست شيئا على الإطلاق !

وصدقني أني لا أتحدث عن غيرة ولا عن حقد.

صدقنى أن هذه هى الحقيقة..

لماذا اختارها ؟

بأى ذوق.. الذوق الذى اختارنى به.. مش معقول !

بمقياس الثقافة.. أو الاحترام.. أو.. أو.. مش معقول أيضا.. ليس هناك مقياس واحد ينطبق عليها..

وبدأت أتساءل..

وكل البنات يتساءلن..

وأخيرا سألته أنا :

– لماذا اخترتها.. هذه بالذات ؟

وهز كتفيه بلا مبالاة، وقال :

– لا أدرى.. ربما لأنها الوحيدة التى لم تحلم بالزواج بى !

هل هكذا يتزوج الرجال ؟!

سأترك بيتى !

أنا فى الثامنة عشرة..
وأختى فى السادسة عشرة
وأبى وأمى يعاملاننا كأننا صديقان لهما..
أبى يطلق لنا الحرية على آخرها، وهو دائما مشغول.. مشغول عنا، ومشغول عن زوجته.. ودائما يبدو جادا.. إنه يجلس معنا فى الفترات القليلة التى نراه فيها صامتا.. ينظر إلينا كأنه ينظر إلى مسرحية تمثل أمامه.. ولا يبدى رأيه، لأنه لا يعتقد أن من حقه أن يكون ناقدا.. إن كل ما يجيده هو إدارة مصنعه.. وأمى فنانة.. أو هذا هو ما تعتقده.. ترسم بالزيت... وتطرز قطع الأوبيسون.. وتذهب إلى الحفلات.. وهى تنظر إلينا كأنها تنظر إلى ثوب من ثيابها.. يهمها أن يكون ثوبا جميلا. وأن يتحدث عنه الناس.. وأنا أعتقد أنها أم ساذجة.. وأشفق عليها لسذاجتها.. وهى تحاول أن تكون صديقة لنا - أنا وأختى - ولكننا لانستطيع أن نعتبرها صديقة.. إننا نحادثها بصراحة.. ونناديها باسمها.. اسم الدلع.. ديدى.. ورغم ذلك لانستطيع أن نعتبرها صديقة.. عقليتها لا يمكن أن تتفق مع عقليتى أو مع عقلية أختى..

والواقع أننا - أنا وأختى - نجد أن أبى وأمى يثيران الملل.. ومما يضاعف هذا الملل أننا مضطران للارتباط بهما.. ومضطران لأن نعمل على إسعادهما.. نداللهما.. ونضحك أمامهما لنملأ عليهما البيت مرحا، ونبدد من حولهما وحدتهما.. أنا مثلا مضطر لأ أتحمل أبى حتى يدفع لى ثمن السيارة الصغيرة التى أنوى شراءها.. مضطر أن أقنعه أنه رجل عظيم.. أو على الأقل أبدو أمامه كأنى مسلّم بعظمته.. ومضطر فى الوقت نفسه أن أدلل أمى، حتى لا أجرح عواطفها..

وحتى أقنعها أنها عملت عملا عظيما بأن ولدتنى.. عمل تستحق عليه التدليل..

وأحيانا أتساءل ما فائدة الآباء والأمهات ؟

أو على الأصح.. وحتى أضع تساؤلى فى صيغة مجردة.. ما فائدة هؤلاء العواجيز !!

إن الدنيا ليست فى حاجة إلى الرجل بعد أن يبلغ سن الأربعين.. إنه يصبح بعد هذه السن عالة على الدنيا.. عالة على التقدم الذى ينشده الإنسان.. إنه يفكر بعقلية الماضى.. ماضيه.. ويفكر كأن الدنيا قد وقفت نهائيا.. وأن الطريق قد انتهى.. وهو يريد أن تقف كل الأجيال التى تجىء بعده، فى نفس النقطة التى وقف عندها.. وهو يفعل ذلك بسلامة نية.. لأنه هو نفسه يعتقد أن الطريق قد انتهى.. وأن البشرية قد وصلت إلى حافة الأفق..

وكثيرا ما حسبت الثروة التى يملكها أبى، ورحت أتخيل الأعمال العظيمة التى كان يمكن أن أقوم بها لو كانت هذه الثروة فى يدى.. إنى أستطيع أن أحرر المصنع - مصنع أبى - من هذا الجمود الذى يسير فيه.. من هذا الروتين البطىء.. وأنطلق به إلى أن يصبح فى مستوى أرقى مصانع أمريكا.. وأستطيع أن أحرك كل جنيه ليصبح عشرة.. ليصبح مائة.. بل إنى أستطيع أن أمتع نفسى بهذه الثروة التى لا يمكن لأبى أن يتمتع بها.. لأن الواقع أن المتعة هى متعة الشباب، فإذا انتهى الشباب لا يصبح هناك متعة فى الحياة مهماامتلكت من ثروة.. كل شىء خلق فى الحياة، إنما خلق للشباب.. السيارة مثلا، إنها فى يد الشباب متعة، وحاجة.. إنه يستطيع أن ينطلق بها انطلاق شبابه.. إن سرعتها هى سرعة الشباب.. إنها لم تخلق للعواجيز.. إن العجوز سيان عنده أن يركب سيارة أو يركب جملا.. بل إن الجمل يتلاءم مع طبيعته، ومع حاجته أكثر من

السيارة.. فإذا ركب بعد ذلك سيارة، استخدمها نفس الاستخدام الذى يصلح له الجمل.. سار بها فى هدوء وتأنٍ وحرص، كأنه جالس فى هودج على ظهر جمل..

ولا أعتقد أن المستقبل.. مستقبل البشرية.. سيحتمل هؤلاء العواجيز.. لن يكون هناك عواجيز فى الأجيال القادمة.. لقد انقرض كثير من الحيوانات على مر الاجيال.. وانقرض كثير من أنواع النبات.. وكذلك سينقرض العواجيز.. لأن الحياة من عادتها أن تتخلص من المخلوقات التى لا تحتاج إليها.. والحياة ليست فى حاجة إلى العواجيز.. إنها فى حاجة إلى الشباب وحدهم..

إنى مؤمن بأن الإنسان فى المستقبل لن يعيش بعد سن الأربعين..

وأبى الآن فى سن الثالثة والأربعين..

وأعتقد أنه يجب أن يموت..

وهذا الاعتقاد يمزق قلبى.. لو مات أبى فلا شك أنى سأحزن عليه جدا، فإنى رغم كل شىء أحبه.. ولكنى الآن أتكلم بمنطقى لا بعواطفى.. وأنا نفسى لا أتمنى أن أعيش بعد سن الأربعين.. إن أربعين سنة فى الحياة كثير.. كثير جدا.. يكفى أن أصل إلى التاسعة والثلاثين.. أى إلى نهاية الشباب.. وبعدها ما جدوى الحياة !!

وقد قلت هذا الكلام لأختى.. وبكت عندما تخيلت أن أبى يمكن أن يموت.. ولكنها مثلى مقتنعة بأن الحياة من حق الشباب وحدهم.. وأن الرجل أو المرأة بعد سن الأربعين يصبح شيئا مملاً لا يحتمل.. ولذلك اقتنعت معى بأن العمر يجب أن ينتهى فى الأربعين.. وأن كل جهود العلماء التى تبذل الآن لابتكار الفيتامينات التى تزود العواجيز ببريق الشباب.. لن تجدى لأنها جهود تسير فى عكس اتجاه الطبيعة.. والطبيعة كما قلت تسعى دائما للتخلص من العواجيز..

ثم..

فوجئنا يوما بأبى يدخل علينا، ثم ينظر إلينا نظرة غريبة، وهو يبتسم.. وكانت ابتسامته غريبة أيضا بالنسبة لنا.. فلم يكن من عادته أن يبتسم.. وهو يبتسم الآن ابتسامة كبيرة، تبدو أنها ابتسامة من القلب.. إنها ابتسامة تملأ كل وجهه..

ثم قال فى بساطة :

– يا أولاد.. سأترككم !

ولم نفهم شيئا ا.. وقالت أمى فى سذاجة :

– إلى أين ؟

وهز أبى كتفيه وقال :

– لا أدرى..

وقالت أختى :

– ومتى ستعود ؟

وقال فى برود عجيب :

– لن أعود !

وقالت أمى وفى عينيها فزع :

– ماذا تقصد ؟

قال وهو يبتسم :

– لا شىء.. كل ما هنالك أنى أفلست.. وكان هناك أكثر من وسيلة للتغلب على الإفلاس.. ولكنى منذ أسبوع وأنا أفكر.. بماذا أتغلب على إفلاسى.. ولم أجد هناك أى مبرر كى أسعى لاستعادة مركزى.. إنى منذ ثلاثين سنة وأنا أشتغل كل يوم.. منذ ثلاثين سنة وأنا أضع على وجهى هذا القناع الجاد.. وأرتب حياتى بالدقيقة والثانية.. والآن شعرت أن من حقى أن أتحرر من كل ذلك.. وأن أنطلق حرا من دقات الساعة.. أن أتسكع فى الحياة.. أن أجلس على مقعد فى شارع

الكورنيش وآكل كوز ذرة مشوى.. أن أتحرر حتى منكم..

قلت أقاطعه فى حدة :

– هذا ليس من حقك.. إنك لاتستطيع أن تتركنا بعد أن تحملناك كل هذه المدة الطويلة..

قال أبى فى بساطة :

– وأظن أنك كنت طول هذه المدة تعتقد أنى إنسان ممل..

قلت :

– هذا صحيح.. ولكن هذا ليس ذنبك.. كل الآباء مملون !

قال أبى كأنه يسخر منى :

– ألم يخطر على بالك أن كل الأبناء مملون أيضا..

وصرخت :

– كيف.. إن الشباب لا يمكن أن يكون مملا.. من يملأ هذا البيت بالحياة، إلا أنا وأختى.. من يزحم البيت بالضحكات.. من يسليكم.. أنا.. وأختى.. وقد كنت أبذل مجهودا كبيرا لأجعل من دنياك أنت وأمى دنيا متحركة.. حية.. لا دنيا جامدة.. ميتة..

فقاطعنى فى هدوء :

– لقد بذلت مجهوداً كبيراً فى أن تجعل من نفسك شيئا أكثر سخافة.. لقد كنت أستمع إليك وأنت تتكلم عن البديهيات كأنها فلسفة خطيرة توصلت إليها بذكائك.. وتصرخ وأنت تحكى لنا عن شىء تافه كأنك تحكى قصة اكتشاف ضخم.. وكنت أتحمل سخافتك لأنى كنت أعذرك.. فالأشياء عندما يراها الإنسان لأول مرة تبدو كبيرة.. والأفكار عندما تخطر على الرأس لأول مرة تبدو خطيرة.. وكنت دائما أحس بأنك تنظر إلىّ كأنى لا أعرف شيئا مما تعرفه.. ولم أر شيئا مما تراه.. كان يخيل إليك أن كل يوم يمر بك هو اكتشاف جديد، لم يمر فى حياتى.. كنت أعلم أنك تعتبرنى الماضى.. وتعتبر

نفسك المستقبل.. وأن المستقبل لا يمكن أن يتفاهم مع الماضى.. وكان كل ذلك يقلب معدتى.. ويملؤنى بالسأم من حديثك.. لأنه حديث شاب جاهل مغرور..

وصرخت :

– أنت أول أب يقول هذا الكلام.. إنك حتى لو اعتبرتنى جاهلا، فلا يمكن أن تعتبرنى مملا.. ولا يمكن أن تسأم منى.. إننى ابنك.. والأولاد هم كل ما يبقى من متعة للآباء.. العواجيز !

وابتسم ساخرا :

– إن الأولاد متعة فعلا وهم صغار.. فى الثالثة وفى الرابعة من العمر.. إنهم فى تلك السن يكونون أشبه بالعرائس.. نلهو بها، فى أوقات فراغنا.. ثم بعد ذلك يكبرون.. ولا يصبحون عرائس، ولا لعبا.. يصبحون أشياء مملة.. أوعية من الجهل والغرور.. وكل منهم يعتبر نفسه شخصية كاملة منفصلة عن شخصية أبيه.. ورغم ذلك فهذه الشخصية الكاملة تعيش عالة علىّ الأب.. عالة على الدنيا..

وقلت فى حماس :

– أنا لست عالة عليك.. بالعكس.. أنت عالة علىّ.. لأنى مضطر أن أعيش معك حتى أسليك.. وحتى تتباهى بى أمام أصدقائك.. وحتى أملأ عليك البيت.. وأنت تصرف علىّ نظير بقائى معك فى البيت.. لو أنك سمحت لى بأن أقيم فى شقة وحدى – وهو ما أريده – وظللت تدفع لى نفقات حياتى، لكنت فعلا عالة عليك.. ولكنك لا تفعل ذلك.. لأنك تدفع لى كل قرش نظير متعتك بى كأب.. إنك تدفع أجرا لكى أكون ابنك.. ولكن مهما دفعت لى فلن أكون عروسة تلعب بها فى أوقات فراغك.. إنى لست عروسة.. أنا رجل.

وقال ساخرا :

– إنك ستحتاج حالا لإثبات رجولتك..

قلت :

– إن الأبناء فى السويد حلوا هذه المشكلة.. فالابن فى السويد يترك بيت أبيه وهو فى السادسة عشرة من عمره..

قال فى استخفاف :

– اعتبر نفسك فى السويد.. فإننى سأتركك ما دمت لم تتركنى رغم أنك بلغت الثامنة عشرة.

وصرخت أمى :

– وابنتك.. هل ستتركها هى أيضا.. هل تريد لها أن تبيع جسدها فى سوق الرجال نظير أجر، حتى تعيش ؟

قالت أختى :

– لا تكونى ساذجة يا أمى.. إن الهاويات هذه الأيام لم يتركن سوقا للمحترفات.. هذه مهنة لم تعد مصدر رزق.. إنما أصبحت هواية.. سأبحث عن مهنة أخرى !

وصرخت أمى والدموع فى عينيها، كأنها لم تسمع كلام أختى :

– أنا لا أستطيع أن أترك أولادى..

قال أبى :

– إنك ستبقين معهم..

قالت فى دهشة :

– هل ستتركنى أنا أيضا ؟

قال فى هدوء :

– نعم..

قالت :

– ولكنى أحبك.. وأنت تحبنى.. كيف تتركنى ؟

قال :

– لقد كنت أحبك، وكنت تحبيننى.. ولكن هذا الحب انقلب مع

الأيام إلى عادة.. فقد حماسه.. فقد وهجه.. أصبح أشبه بشىء نمارسه بحكم ارتباطنا.. إنك تقبليننى بنفس الاندفاع الذى تضعين به الفرشاة فوق أسنانك كل صباح.. وكلما عدت من عملى نظرت إلىّ كأنك تنظرين إلى وجه صحيفة الأهرام، فإذا لم تجدى فيها أخباراً تهمك ألقيت بها جانبا.. وثلاثة أرباع كلامنا كلام معاد.. إنى أقول لك « إزيك » كل يوم دون أن أشعر فعلا بأنى أسأل عن حالك.. وأنت تقولين صباح الخير.. دون أن تحسى بأنك تتمنين لى فعلا صباحا فيه خير. كل شىء بيننا فقد معناه.. وأهم من ذلك.. فقد إحساسنا بحاجتنا إليه.. وعندما أتركك ستعذبين أياما قليلة.. ولكنه ليس عذاب الحب.. حتى لو خيل إليك أنه عذاب الحب .. إنه مجرد الضيق من اضطرارك لتغيير عادتك.. أنه ضيق أشبه بما تحسين به عندما لا تغسلين أسنانك فى الصباح.. أو عندما لا تطلين فى وجه جريدة الأهرام.. فلا تتركى خيالك ينطلق بك إلى عذاب أكبر.. ولا تحاولى أن تتخيلى نفسك ضحية، لتتعذبى بخيالك..

وبكت أمى..

و..

وتركنا أبى..

وكل ما تركه لنا – بعد إشهار إفلاسه – هو البيت الذى نقيم فيه.. وقد أجرنا الدور العلوى منه، وخصصنا قيمة الإيجار لأمى..

وخرجت أنا وأختى نبحث عن عمل..

اشتغلت أختى سكرتيرة..

وأنا.. أنا لا زلت طالبا فى الجامعة.. ولكنى يجب أن أبحث عن عمل.. واندفعت بكل شبابى أبحث عن عمل.. عمل عظيم.. عمل يستطيع أن يقوم به الشباب.. بكل ما فى الشباب من مستقبل.. وصدمت.. إنى لا أملك شيئا أعمل به.. حتى أفكارى الكبيرة، كنت

اكتشفت أنها قديمة وصغيرة، كلما بدأت فى تنفيذها..

واشتغلت جرسونا.. أكسب ما بين ثمانية جنيهات، وعشرة جنيهات فى الشهر.. وأذاكر بعد عملى لأحصل على شهادتى الجامعية..

وأخذت أحسب مكسبى.. سيرتفع دخلى بعد أن أتخرج فى الجامعة إلى عشرين جنيها.. وتمر سنوات ويرتفع إلى ثلاثين.. وتمر سنوات أخرى ويرتفع إلى أربعين.. ثم إلى خمسين.. و.. و.. إنى لن أستطيع أن اشترى سيارة قبل سن الأربعين.. إنى لن أستطيع أن أستريح إلا فى سن الأربعين.. لن أستطيع أن أكون عظيما قبل سن الأربعين.. لن أستطيع أن أتمتع بالحياة قبل سن الأربعين..

أريد أن أصل إلى سن الأربعين..

لا أريد أن أموت قبل الأربعين..

إن الحياة تبدأ بعد الأربعين..

و..

أتدرى..

لقد أوحشنى أبى..

■ ■ ■

منذ سنوات قرأت سطرا فى مسرحية لسومرست موم.. وتذكرت السطر الذى قرأته.. وهذا السطر هو الذى جر وراءه كل هذا الكلام الذى كتبته..

الزوجة العاقلة

إنى زوجة عاقلة..

وكنت بنتا عاقلة !

وأنا جميلة أيضا..

أجمل مما تتصور..

ومن عائلة كبيرة.. كل القوانين الاشتراكية التى صدرت منذ قيام الثورة انطبقت على عائلتى.

وقبل أن أتزوج، كان على أن أختار بين اثنين : عصام، ومصطفى..

كلاهما يحبنى..

وكلاهما يريد أن يتزوجنى..

ولكن حب عصام كان أكثر مما أحتاج إليه من حب.. حب يبلغ حد العبادة.. كان يؤلهنى.. ويذيب شخصيته فى حبى..

وكان حب مصطفى، هو القدر الكافى الذى أريده من الحب.. لم يكن حبا أكثر من اللازم.. ولكنه كان الحب اللازم..

ولم أستطع أن أعطى عصام من حبى، بقدر ما يعطينى من حبه..

فتزوجت الآخر..

تزوجت مصطفى، وأنا واثقة أن حبى فى مستوى حبه.. إلى هذا الحد كنت بنتا عاقلة..

ومرت خمس سنوات أنجبنا خلالها ولدا وبنتا.

ثم بدأت ألاحظ أن شيئا فى حبنا بدأ يتآكل ويذوب.. ليس الحب كله.. ولكن شىء منه.. ربما كانت رغبة كل منا فى الآخر.. اللهفة الحسية التى تدفع كلا منا ليأخذ الآخر..

متى بدأت ألاحظ ؟..

لا أدرى بالضبط..

ولكننا كنا مدعوين إلى حفلة ساهرة.. وكنت أرقص معه.. وفجأة

لاحظت أني وأنا أرقص معه أتلفت بعيني أرقب وجوه الرجال الآخرين، وأحكم على وسامة كل منهم.. وصدمتني هذه الملاحظة التي تنبهت إليها فجأة.. والتفت إليه.. إلى زوجي.. وضميري يؤلمني، وشيء كالاعتذار يطل من عيني.. وإذا بي أصدم صدمة أخرى.. لقد ضبطته هو الآخر ينظر إلى سيقان النساء الأخريات.. وهو يرقص معي !

ولم أتكلم..

مرت الشهور وأنا أشعر بهذا الشيء الذي يذوب بيني وبين زوجي.. دون أن أتكلم، ودون أن أحاول شيئا..

ولم يكن هذا الشيء هو كل مافي حياتنا.. طبعا، لا.. إن في حياتنا أشياء جميلة أخرى تسعدني وتسعده.. إني أثق بعقله، وهو يثق بعقلي.. وأحب أن أكون معه دائما، ويجب أن يكون معي.. حديثنا دائما شيق.. وضحكاتنا دائما من القلب.. ثم إنه أب رائع لأولاده.. وزوج رائع.. إني أتمتع بنجاحه كطبيب شاب.. وأتمتع بالمركز الممتاز الذي يوفره لي في المجتمع.. وأتمتع بالحياة الباذخة التي يوفرها لي.. فيلا.. وسيارة خاصة لي.. وطباخ.. واثنين سفرجية.. ومربية للأولاد.. وثياب.. ومجوهرات.. كل شيء.. كل شيء.. وأكثر من ذلك، وسامته التي أتخايل بها كلما وضعت ذراعي في ذراعه وظهرت به أمام الناس..

ثم..

بدأت ألاحظ أن زوجي اتخذ له عشيقة..

ثم..

تأكدت أن له عشيقة..

ثم..

عرفت أن عشيقته هي أعز صديقاتي.. فريدة !

وفريدة متزوجة أيضا..

وكدت أثور..

لقد أحسست بالثورة تتجمع فى صدرى وتكاد تنطلق.. ولكنى - كما قلت لك - عاقلة.. عاقلة جدا..

وبدأ عقلى يطفىء ثورتى..

لماذا أثور ؟..

ليس من حقى أن أثور.

لقد تزوجنى لأوفر له كل شىء.. فإذا نقصه شىء فإن من حقه أن يبحث عن هذا الشىء لدى امرأة أخرى.. وهو يدفع لى لأوفر له كل شىء.. وأنا فى حاجة إلى نقود لأحتفظ بالحياة التى أحياها.. صحيح أنى من عائلة كبيرة.. ولكنى لست غنية إلى الحد الذى أستطيع أن أدفع تكاليف الحياة التى أحياها.. وبصراحة أهلى لا يدفعون لى شيئا.. هو الذى يدفع.. وهى أنانية منى إذا أخذت نقوده وأنا لا أستطيع أن أعطيه نظيرها كل ما يحتاج إليه.. وأنانية أكثر إذا صممت على أن يظل محروما من شىء يحتاج إليه.. ثم هو عبط - غاية العبط - والغباء، إذا طلبت الطلاق وتنازلت عنه وعن الحياة التى يوفرها لى، لمجرد أنه ذهب يبحث عن شىء يحتاج إليه - ولا أستطيع أن أقدمه له - لدى امرأة أخرى..

إن الزواج مسألة اقتصادية محضة..

رجل يدفع.. وامرأة تعطى نظير ما يدفعه !

قد تقول إن هناك شيئا آخر تقدمه المرأة للرجل نظير ما يدفعه.. تربية أولاده.. وإدارة بيته.. وقد يكون هذا صحيحا فى الطبقات الفقيرة أو المتوسطة.. لو كنت أنا التى أطبخ الطعام، وأنا التى أنظف البيت، وأنا التى أغسل ثيابه، وأنا التى أربى الأولاد.. لثرت عندما أكتشف خيانة زوجى، لأنى فى هذه الحالة أعلم أنى أقدم له أشياء أخرى نظير نقوده التى

يدفعها .. ولكنى لا أفعل شيئا من كل هذا.. الخدم هم الذين يفعلون كل شىء.. والمربيات هى اللاتى يربين أولادى.. والإشراف على الخدم والمربيات لا يأخذ من وقتى أكثر من عشر دقائق فى اليوم.. وعشر دقائق لا تساوى كل ما يدفعه لى زوجى !

وقد تقول إن الزوجة تقدم أكثر من ذلك لزوجها.. إنها تشاركه تفكيره... وهى صديقة له.. كلام فاضى.. إن الأزواج عادة لا يشركون الزوجات فى تفكيرهم.. وآخر امرأة تصلح صديقة للرجل هى زوجته.. بل أنك تستطيع أن تعرف المتزوجين من غير المتزوجين من مظهر صداقتهم.. فإذا مررت باثنين - رجل وامرأة - يتحادثان ويضحكان فهما ليسا زوجين.. وإذا مررت باثنين « مبلمين » كل منهما سارح بعقله بعيدا عن الآخر، فثق أنهما متزوجان !!

وأنا فعلا صديقة لزوجى، ولكن هذه الصداقة لا تميزنى عن كثير من النساء.. تستطيع كل منهن أن تكون صديقة له، ويسعد بصداقتها..

إن الزوجة فى طبقتنا - الطبقة الغنية - ليس لها قيمة تستحق ما يدفعه لها الزوج من ماله، إلا قيمة واحدة.. قيمتها كامرأة، اختارها لأنها تستطيع أن ترضيه كرجل.. وكل ما يميزها عن أى امرأة من بنات الرصيف، أن الرجل لايستطيع أن يصل إليها إلا إذا ظل يدفع لها الثمن طول حياته، بعقد مسجل اسمه الزواج !

وأنا لا أخجل وأنا أقول هذا الكلام.. لأنى أتكلم بعقلى، لا بأعصابى، ولا بأحاسيسى..

وتغلب عقلى علىّ.. أقنعنى..

ورضيت، أو سكت، عندما اتخذ زوجى عشيقة.

وسكت أكثر عندما علمت أن هذه العشيقة هى صديقتى فريدة فإن فريدة ممتازة بكل الصفات التى تطمئننى إذا أصبحت عشيقة لزوجى !

إنها جميلة... جميلة جدا.. وهذا يجعلنى أحس بأن كرامتى محفوظة.. لو أن زوجى لجأ إلى امرأة أقل منى جمالا لجرحت كرامتى .. لأن المرأة إذا كانت أقل منى جمالاً فلابد أن فيها شيئا آخر غير الجمال جذب إليها زوجى.. ربما كانت أذكى منى.. وأنا أخشى من المرأة الذكية.. ولا أخشى من المرأة الجميلة.. وفريدة مجرد امرأة جميلة !

ثم أنها غنية.. غنية جدا.. وزوجها غنى.. وهذا يطمئننى إلى أن زوجى لن يدفع لها شيئا من ماله.. لن يأخذ من نصيبى ليعطيها.. ستظل كل أمواله لى..

ثم إنها غبية.. وهذا يطمئننى إلى أنها لن تستطيع أن تأخذ من زوجى أكثر مما أسمح لها بأخذه.. إنها لن تستطيع مثلا أن تتزوجه، لأنى أعلم أنها أغبى من أن تستطيع أن تقنعه بالزواج، ولأنها إذا حاولت أستطيع أن أدمرها بذكائى..

وهكذا عشت..

شهورا..

وصداقتى مع فريدة تزداد.. إنها تزورنى كل يوم تقريبا.. وتتناول معنا العشاء أكثر من مرة فى الأسبوع.. وزوجى يجلس بينى وبينها.. وأحيانا تأتى مع زوجها عندما لا يكون مسافرا.. وهو يسافر كثيرا.. بل أنى كنت أنتقى لفريدة ثيابها.. وأذهب إلى بيتها وأصمم لها أثاثا جديدا لغرفة نومها !

هل أنا باردة ؟

حجر..

قل عنى ما شئت.. ولكنى أسمى نفسى عاقلة !

وقد احتار الناس فى عقلى..

كانت ألسنة المجتمع - المجتمع الراقى - قد بدأت تلوك سيرة

زوجى مع فريدة.. كنت أحس بما يقال، ولكنى لم أكـن أسمعه.. لأنى لم أكن أريد أن أسـمعـه.. كنت لا أسـمـح لأحـد، ولا أعطى الفرصـة لأحد، ليتحدث عن زوجى وفريدة أمامى..

وكان الجميع يظنون أنى لا أعلم بقصة زوجى.. حتى أختى كانت تظن أنى لا أعلم.. وتحـاول أن تلمح فى حديـثهـا لعلى أعلم، ولكنى كنت أتجاهل تلمـيحاتها، ثم أوقـفها عند حدها إذا حاولـت أن تتعدى التلميح إلى الصراحة.. وأمى أيضا كانت تظن أنى لا أعلم.. ولكنها لم تحاول أن تلمح لى بشىء.. كـانت تنظر إلى بعينين ملهوفتـين كأنها تشفق علىّ.. وكـأنها توصينى بأن أتصرف بحكمـة.. وأمى أكثر من يعلم أنى عاقلة !!

وعلى أى حال.. مـاذا يريد المجتـمع منى.. إنه يريدنى أن أتطلق.. يريد أن يخرب بيتى، ليرضى نزعة الشـر والشماتة فى كل مجتمع.. لا.. لن أعطى المجتمع ما يريد.. وسأعطى زوجى ما يريد !!

إلى أن كان يوم..

وكانت فريدة فى بيتنا تتناول العشاء معنا.. وزوجى جالس بينى وبينها !

وفـجأة سـمعـت جرس البـاب يدق.. ثم اندفع إلينا زوج فـريدة كالثـور الهائج.. ووقف أمامنا وكله يرتعش.. ثـم نظر إلىّ فى عينى، وقال صاخبا :

– يا هانم، أحب أقول لك إن جوزك ماشى مع مراتى.. وارتعشت فريدة، ووجهها أصبح فى لون مفرش المائدة !

وقفز زوجى واقفا وعيناه خارجتان، وهو يتهته بكلمات غريبة !!

وابتسمت أنا فى برود وقلت للزوج الهائج :

– أظن ما يصحش تواجهنى بكلام زى ده، إلا بعد ماتتأكد منه !

وصرخ الرجل وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

- أنا متأكد..

قلت وأنا أسحب ابتسامتى وأنظر إليه نظرة جادة :

- تسمح تقول لى اتأكدت إزاى ؟

ومد يده فى جيبه وأخرج علبة سجائر ذهبية.. ولوح بها أمام عينى.. إنها علبة سجائر زوجى، وعلى طرفها الحروف الأولى من اسمه..

وعاد الرجل يصرخ :

- مش دى علبة سجاير مصطفى.. النهاردة جيت من السفر.. ودخلت أوضة النوم.. وقلبت مخدة السرير بالصدفة، لقيت تحتها علبة السجاير.. يبقى معنى كده إيه.. عايزانى أتأكد أكثر من كده إيه..

ومددت يدى فى بساطة، وتناولت منه علبة السجائر، وقلت وأنا أبتسم :

- مرسى..

ونظر إلىّ فى جنون وصرخ :

- مرسى يعنى إيه ؟

قلت :

- العلبة بتاعة مصطفى صحيح، لكن أنا خدتها منه من زمان.. وامبارح كنت عندكم فى البيت، وكانت فريدة نايمة فى السرير، وأنا جيت قعدت جنبها.. وطبعا طلعت علبة السجاير علشان آخد سيجارة.. ويظهر أنها انزاحت ودخلت تحت المخدة، وقمت وروحت ونسيتها.. المهم أنى طول النهار بادور عليها.. ماكنتش عارفة أنا نسيتها فين.. وكنت خايفة إن مصطفى يعرف إنها ضاعت منى، يزعل.. الحمد لله اللى لقيتها..

وسكت الرجل وهو ينظر إلىّ كأنه لا يصدقنى ثم قال :

- صحيح الكلام ده ؟.

ونظرت إليه فى غضب، وصرخت فى وجهه :

– طبعا صحيح.. ومن فضلك تـانى مرة قبل ماتتهم جوزى لازم تتأكد.. أنت مش بس اتهمت جوزى.. واتهـمت صاحبتى كمان.. وأنا أفهم أنك تكون غـيور على مراتك.. إنما مـاافهمش أنك تحاول تفـسد حياتى بغيرتك... أنا عارفة جوزى كويس..

وعارفة صاحبتى كويس..

وأخذ الرجل يتلفت فى وجوهنا نحن الثلاثة.

وفريدة تبكى وترتعش..

وزوجى واقف ينظر إلى زوج عـشيـقتـه فى هلع وينظر إلى فى عجب..

ثم هدأت نظراته..

ونكس رأسه..

وارتبك..

وقال زوج فريدة فى صوت خفيض :

– أنا آسف.. آسف قوى.. أنا مروح البيت يافريدة !!

وخرج..

ووقفت أنظر إلى زوجى وعشيقته وبين شفتى ابتسامة ساخرة..

ورفعت فريدة رأسها وقالت ودموعها تبلل عينيها الجميلتين :

– أنا مش عارفة أقول إيه ؟

قلت فى حزم :

– ما تقوليش حاجة..

قالت :

– مش عارفة أعتذر لك إزاى..

قلت :

– مـا تعتـذريش.. إنتى مـا خـدتيش من جوزى أكـثـر من اللى

سمحت لك إنك تاخديه..

وشهقت كأنها فوجئت..

وقال زوجى وهو يقترب منى فى حذر :

– قصدك إنك كنتى عارفة من زمان ؟

قلت فى ثقة :

– من أول يوم.. لكن أنا كنت فاكراك أذكى من كده.. ماكنتش فاكره إنك ممكن أنت وفريدة تنسوا نفسكم لدرجة إنك تروح لها البيت، وتنسى علبة سجايرك تحت المخدة..

وانفتحت عينا فريدة كأنها مبهورة، وقالت :

– إنتى مدهشة.. مدهشة..

ثم قامت من على مقعدها وهمت بالانصراف..

وصرخت فيها :

– رايحه فين ؟..

قالت كأنها تلميذة خايبة :

– رايحه أصالح جوزى..

قلت فى حدة :

– إوعى تصالحيه.. بالعكس.. ازعلى منه.. جدا.. افضلى عيطى على طول.. وماتخليهش يقرب لك، ولا يلمسك، ولا يكلمك.. فهميه أنه جنى عليكى.. فهميه أنك مش حتصفحى عن عدم ثقته فيكى.. وافضلى كده.. لغاية ما يجيب هدية كبيرة.. والا يكتب لك العمارة بتاعته.. فاهمة !

قالت وقد عادت مبهورة بذكائى :

– حاضر..

وخرجت.. وأنا أبتسم وراءها ساخرة..

واقترب منى زوجى أكثر وقال بصوت مخنوق يرتعش :

– حاتعملى إيه يا شهيرة ؟.

ورفعت رأسى إليه، وقلت مبتسمة :

– مش حاتحلى.. تحب أقشر لك برتقالة ؟.

وعاد يقول وفى صوته رنين مسكين :

– اعملى معروف.. حاتعملى إيه فينا.. فينا أنا وأنت !

ولم أرد..

أخذت أقشر برتقالة وأنا أخاطب نفسى فى سرى.. إنه لا يعلم أنى حائرة فيما يجب أن أفعله.. هل أطلقه، وأخسر حياتى.. هل أظل راضية بهذا الوضع الشاذ الذى وجدت نفسى فيه.. هل أخونه.. نعم لقد فكرت أن أخونه.. وعصام الذى يحبنى من قبل أن أتزوج، لا يزال يحبنى.. ولا يزال يبدى حبه فى كل مناسبة من المناسبات العامة التى نلتقى فيها.. ولكن لم أكن أستطيع أن أخون زوجى وهو يدفع لى من ماله.. وهو يصرف على.. أن بعض الثمن الذى أتقاضاه منه، هو ثمن إخلاصى له، وثمن أن أكون ملكه وحده.. وإذا كنت قد سمحت له بخيانتى فلأنى لا أدفع له ثمن إخلاصه.. أما هو، فيدفع لى !!

لذلك لم أخنه..

ولكن هل أستطيع أن أستمر هكذا.. أن أعيش هذه الحياة ؟

إن الطريق الوحيد لكى أبدل هذه الحياة هى أن أستقل عن زوجى ماليا.. أن أتحرر منه اقتصاديا.. ألا آخذ منه ثمن شىء لا أعطيه له.. حتى لا أحتمل منه شيئا لا أرضاه لنفسى ؟

كيف ؟

كيف أتحرر ؟

بأن أشتغل.. أن أكسب.. أن يكون لى دخلى الخاص حتى لا أعتمد على دخله.. أن أرفض نقوده.. وتكون لى نقودى..

وكانت لى صديقة افتتحت محلا لتأثيث البيوت.. وهندسة الديكور.. وسبق أن عرضت على أن أشترك معها.. كانت تعرف أنى خبيرة فى الديكور، وأنى أستطيع أن أجتذب إلى المحل، صديقاتى اللاتى يثقن فى ذوقى، ولم تكن تريد منى أن أشاركها فى رأس المال، ولكن أشاركها بعملى.. ولى نصف الأرباح..

ورفضت أيامها..

رفضت لأنى كسولة، ولم أكن أعتقد أنى أطيق العمل.. ولكن الآن.. وبعد هذه الفضيحة التى ارتكبها زوجى وفريدة.. هل أصر على كسلى ؟

وعاد صوت زوجى المرتعش يقول :

– ما تسكتيش يا شهيرة.. قولى لى حا نعمل إيه ؟

والتفت إليه وقلت فى بساطة :

– حاشتغل ؟

قال فى دهشة مفجعة :

– إيه ؟!

قلت :

– حاشتغل مع صاحبتى منيرة فى محل الديكور ؟

قال فى حدة :

– وايه عرفك أنى حاسمح لك تشتغلى !

قلت وأنا أبتسم له :

– أنا سمحت لك بحاجات كتير.. أظن ممكن تسمح لى أنى أشتغل.. وما أظنش الشغل عيب..

ولم يستطع زوجى أن يقاوم طويلا..

واشتغلت..

وكل شىء بدأ يتغير..

زوجى ينتظرنى كل يوم حتى أعود من عملى.. وكان فى أول الأمر يطلق أعصابه فى وجهى كلما عدت.. ولكنه بدأ يتعود.. وبدأت أعصابه تنطق باللهفة.. اللهفة إلى رؤياى.. ولكنى لا أشبع لهفته.. إنى لم أقرر بعد أن أشبع لهفته.. وشخصيتى تكبر أمام شخصيته.. شعورى بالاستقلال ينفخ فى شخصيتى.. وهو يحاول أن يسيطر على هذه الشخصية الجديدة.. ولكنه لايستطيع.. فيخضع لها..

وقد سافرت فريدة بعد الحادث.. أخذها زوجها وأقاما فى الاسكندرية محل عمله.. وربما كان زوجى خلال هذه الشهور قد تردد على امرأة أخرى.. لا أدرى.. والواقع أنى لم أهتم..

وفى آخر العام، أخذت أرباحى من محل الديكور..

ربحت ألفى جنيه..

وهرعت إلى زوجى فرحة، وقلت مهللة :

– ربحت ألفين جنيه فى سنة واحدة..

وقال زوجى فى برود وقرف :

– مبروك..

وعدت أقول :

– وحطيت لك فى حسابك فى البنك ألف وخمسميت جنيه !

قال :

– ليه.. بتوع إيه دول ؟

قلت :

– نصيبى فى مصروف البيت طول السنة..

وقفز صارخا :

– مين قال لك إنى عايز الفلوس اللى صرفتها عليكى.. من إمتى كنت باحاسبك على مصروف البيت ؟.

وقلت فى هدوء :

– ماتنســاش أني باشتغل دلوقت.. بـقيت زيي زيك.. ولازم أبقى زيي زيك في المصروف..

وصرخ :

– أنا ما اسمحش.. كرامتي ما تسمحش !

قلت :

– أما مصممة.. لأن كرامتي برضه ماتسمحش.. وعلى فكرة.. أنا مسافرة بكره لبنان..

قال في ذهول :

– لوحدك ؟.

قلت في بساطة :

– لأ.. مع عصام ؟

وجن صارخا :

– يعني إيه.. إزاي أسـمح لمراتي تـسافـر مع واحـد كـان عـايز يتجوزها ؟.

قلت :

– ولسه عايز يتجوزني..

قال :

– يعني.. إيه.. تكونيش ماشية معاه ؟

قلت في هدوء :

– أنت عـارف يا مـصطفى أني مش ممكن أمـشي مع حـد.. أنت متأكد أن ده مش من مبادئي.. أنـا عارفه كويس أن الستات مش زي الرجالة.. الـراجل زي التور مايهـموش أنه يعـاشر ميـت بقرة.. إنما الست حاجة تانيـة.. الست يكفيها راجل واحد، لأنها بتـمثل الأمومة والحنان والنظافة.. والراجـل لما يخون مراته ما بـيخسرش حـاجة.. إنما الست أمـا تخـون جـوزها بتـخـسـر كل حـاجـة .. بتـخـسـر

شخصيتها.. بتتمرمط .. بتضيع منها أجمل ما فيها.. وبتلاقى نفسها ماشية في طريق ما تقدرش ترجع منه.. أنا عارفة كل ده كويس !

وسكت قليلا، ثم قلت :

– إنما عصام عايز يتجوزني..

قال وكله يرتعش :

– أنا ما اسمحش أنك تسافرى معاه.. مش ممكن أسمح لك !!

قلت :

– ما تنساش أني باسمح لك بحاجات كتير.. وأننا دلوقت زى بعض..

قال وهو يكاد يبكى :

– إنتى بتنتقمى منى.. كفاية يا شهيرة.. كفاية عذاب... إنتى عارفة أنى بحبك.. وعارفة أنى محتاج لك.... وعارفة أن الغلطة اللى غلطتها راحت لحالها.. وعارفة أنى عايزك.. عايز أبوسك.. عايز آخدك فى حضنى..عايز استريح على كتفك..

و..

و..

ولم أسافر إلى لبنان..

أنى أقضى مع زوجى عمرا جديدا..

كأننا تزوجنا من جديد..

ولا زلت أشتغل..

لأنى عرفت أنه لن يكون زوجى لى، إلا إذا كنت مستقلة عنه !!

■ ■ ■

هذه ليست قصتى.. ولكنها قصة مسرحية لسومرست موم، تذكرتها.. ونشرتها مختصرة، معربة، بتحوير كبير لم يخطر ببال سومرست موم !!

فهـرس

	صفحة
قتلت عمتى	٥
الحاج مدبولى .. حرامى	١٧
سارق الأتوبيس	٣١
لاعب الكرة .. يحب	٤٥
إمبراطورية «ميم»	٥٥
الشيخ فى بطن القطة	٦٧
حنان بنت السلطان	٧٥
إنهم يصفقون لى	٨٥
رسالة أم	٩٧
لماذا أعيش	١٠٧
أريد أن أقتل	١٢١
المسئولية	١٢٩
قلب المضيفة	١٣٥
زواج البحار	١٤٥
بلا شخصية	١٥٥
كيف ننسى	١٦١
الحب والمجتمع	١٦٧
قبل الطلاق	١٧٣
تزوجت نجمة	١٧٩
الناس يضربون عنتر	١٩١
مهنة الأغنياء	٢١١
الثــــأر	٢١٧
البحث عن أمى	٢٢٥
وأنا	٢٣٣
العبقرى	٢٤١
الجميلة	٢٤٧
مصران أعور	٢٥٧

فهـرس

	صفحة
الخطوط الطويلة	٢٦٥
أين زوجى	٢٧٣
الرصيف	٢٨١
هكذا يتزوجون	٢٨٧
سأترك بيتى	٢٩٣
الزوجة العاقلة	٣٠٣

بطاقة فهرسة:

عبد القدوس ، إحسان ، ١٩١٩– ١٩٩٠

بنت السلطان/ إحسان عبد القدوس. – ط ١.–

القاهرة : قطاع الثقافة، (٢٠٠٩)٣٢٠ص ؛ ٢٠ سم . –

(الأعمال الكاملة)

تدمك ٩٧٧٠٨ ١٤٢٢٩

١ – القصص العربية

أ – العنوان ٨١٣

رقم الإيداع

٢٠٠٩/١١٢٨١٤

الترقيم الدولى

977-08-1422-9

الأعمال الكاملة للكاتب إحسان عبد القدوس

١	التجربة الأولى	٣٤	لا تتركونى هنا وحدى
٢	منتهى الحب	٣٥	اللون الآخر
٣	شفتاه	٣٦	يا عزيزى كلنا لصوص
٤	آسف لم أعد أستطيع	٣٧	البنات والصيف
٥	يا ابنتى لا تحيرينى معك	٣٨	لا أنام
٦	لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص	٣٩	أنا حرة
٧	حتى لا يطير الدخان	٤٠	شىء فى صدرى
٨	زوجات ضائعات	٤١	أنف وثلاث عيون ج.١
٩	الرصاصة لا تزال فى جيبى	٤٢	أنف وثلاث عيون ج.٢
١٠	البحث عن ثورة	٤٣	لن أعيش فى جلباب أبى
١١	ومضت أيام اللؤلؤ	٤٤	سيدة فى خدمتك
١٢	فى وادى الغلابة	٤٥	النساء لهن أسنان بيضاء
١٣	خواطر سياسية	٤٦	دمي ودموعي وابتسامتي
١٤	بعيداً عن الأرض	٤٧	الحياة فوق الضباب
١٥	علبة من صفيح	٤٨	وعاشت بين أصابعه
١٦	الطريق المسدود	٤٩	وغابت الشمس ولم يظهر القمر
١٧	زوجة أحمد	٥٠	قلبى ليس فى جيبى
١٨	لا ليس جسدك	٥١	كانت صعبة ومغرورة
١٩	لا شىء يهم	٥٢	فوق الحلال والحرام
٢٠	لا تطفىء الشمس ج.١	٥٣	وكر الوطاويط
٢١	لا تطفىء الشمس ج.٢	٥٤	لن أترك كل هذا
٢٢	فى بيتنا رجل	٥٥	ونسيت أنى امرأة
٢٣	النظارة السوداء	٥٦	بنت السلطان
٢٤	صانع الحب	٥٧	وتاهت بعد العمر الطويل
٢٥	بائع الحب	٥٨	الهزيمة كان اسمها فاطمة
٢٦	أين عمرى	٥٩	الراقصة والسياسى
٢٧	بئر الحرمان	٦٠	الحب فى رحاب الله
٢٨	الخيط الرفيع	٦١	الوسادة الخالية
٢٩	عقلى وقلبى	٦٢	العذراء والشعر الأبيض
٣٠	على مقهى فى الشارع السياسى	٦٣	رائحة الورد وأنوف لا تشم
٣١	السعادة ليس لها تاريخ	٦٤	أيام شبابى
٣٢	حالة الدكتور حسن	٦٥	ثقوب فى الثوب الأسود
٣٣	لم يكن أبداً لها	٦٦	تاريخ أحد اللصوص